مروة الجمل

رواية

عزيزتي مريم

#الستار_الأبيض

obeikan.com

الكتـــــــاب: عزيزتي مريم
المــؤلــــف: مروة الجمل
تصميم الغـــلاف: مروة فتحي
المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع
رقــم الإيـــداع: 22822 / 2016
الترقيـم الدولـي: 4 - 127 - 779 - 977 - 978
الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة
هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173
الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

مروة الجمل

رواية

عزيزتي مريم

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

obeikan.com

obeikan.com

إهـداء

لكل تائهة، لا تجد ملاذًا لعفويتها سوى الوهم

لكل أنثى خائفة من مجتمعٍ يخاف العيب، ولا يخاف الحرام

لكل امرأة آثرت مواجهة مخاوفها، وسارت خلف سعادتها

لكل أم، أخت، وزوجة.

لكل أبٍ، أخ، وزوج

رجاءً لا تسدلوا الستار فخلفه يقبع الكثير

مروة الجمل

obeikan.com

obeikan.com

(١)

خلف نافذتها الصغيرة أزاحت "مريم" ستارها الأبيض الرقيق، ووقفت تحتسي كوبًا من القهوة، وهي تتابع بسبابتها قطرات الماء المتساقطة على زجاج نافذتها حتى تفقد قدرتها على الانزلاق، حينها أمسكت بمقبض النافذة لتفتح الزجاج على مصراعيه، فاندفع الهواء داخل حجرتها، وإذ بستائرها تتطاير خلفها وكأن لها جناحان، نظرت إلى صورتها المنعكسة في زجاج نافذة بالمنزل المقابل لها.

قامت بإحضار المقعد الصغير الموجود أمام مرآتها ودولاب تجميلها، ووضعته أسفل النافذة، وصعدت على طرف المقعد، إلى قاعدة النافذة المفتوحة، وكأنها تصعد سلمًا زجاجيًّا برقة ونعومة وكأنها ترتقي نحو الجنة.

شعرت وكأن دفعات الهواء المتسارعة إليها ستقذف بجسدها من فوق النافذة، ففردت ذراعيها علّها تحفظ توازنها، وسط تلك الصراعات القائمة بين جسدها وبين الهواء؛ وقاعدة النافذة المُشبعة بقطرات الماء، والتي جعلتها أشبه بساحة للتزلج.

مالت برأسها إلى الخلف، وفكت ربطة شعرها، فتحرر من بين أصابعها حتى لامس أسفل ظهرها، وبدأ يختلط مع الستائر المتطايرة خلفها كجناحين، فلم تعُد تُميّز شعرها الأسود من جناحيها الأبيضين.

أصبحت كعصفور اختلط ريشه الناصع البياض ببضع ريشات سوداء نمت بجناحيه بعد أن فقد وليفته التي عرفها منذ أن خرج من بيضته الصغيرة داخل ذلك العش الموجود أعلى شجرة البلوط العتيقة التي تقف شاهدة على كل ما يحدث حولها محتفظة بأسرار الكون.

- ماما.. ماما.. ماما!

-نعم يا صغيري!

-لقد أشرقت الشمس، يجب أن نذهب إلى حديقة الحيوان كما وعدتيني..

-حسنًا! ولكن هل لك أن تتركني أنام قليلاً! ف أنا مُتعبةٌ للغاية، وقد عملت لوقت متأخر الليلة الماضية.

-ولكنكِ وعدتيني أن نذهب يوم الجمعة؛ واليوم هو الجمعة، أنسيتي وعدكِ يا ماما؟!

استفاقت من حلمها وصمتها على صوت صغيرها ذي العشرة أعوام، وفتحت عينيها السوداوين الناعستين، ونظرت إلى ساعة الحائط القديمة المعلقة على الحائط المقابل لسريرها فوجدتها لم تتجاوز الثامنة صباحًا.

نظرت إلى صغيرها بعتاب قائلة بحنان:

- "ياسين"! الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد!

-مممممم، هلّا قمتِ يا ماما، أرجوكِ..

obeikan.com

- "ياسين"! دعنا نكمل نومنا بضع ساعات أخرى، ثم نستيقظ ونتناول الإفطار، ثم نتوجه إلى الحديقة بسرعة الصاروخ.

-مممم حسنًا! ولكن أنا جوعان.

-لا! أنت شقيّ ولست جوعان، هيا نَم قليلاً واتركني أنام.

-أرجوكي يا أمي!

-حسنًا حبيبي! ولكن فقط أتركني أنام ساعة إضافية، واذهب أنت لإيقاظ دميتك الأرنبية الصغيرة، ألن تأخذه معك؟

-بالفعل سأخذه سأذهب لإيقاظه حالاً، سيخاف إن تركته وحده.

ذهب "ياسين" إلى غرفته المجاورة لغرفة مريم، بعد أن وقعت كلماته على أذنيها كصواعق متتالية تأتيها من سماء مرتعدة..

أما هي فأغمضت عينيها وأستسلمت لنومها مرة أخرى.

*****

obeikan.com

(٢)

في غرفتها الصغيرة بجدرانها الوردية، نامت على سريرها منكمشة تحت غطائها الكشميري، مُحتضنة دُميةً أهدتها لها جدتها في عيد ميلادها الخامس، استفاقت "مريم" بنت الأعوام الست على صوت أبيها الذي يُطالبها بالذهاب مع أخيها إلى منزل جارتهم، والبقاء هناك حتى يعود هو وأمهما في المساء؛ فقد تُوفيت جدتهما لأمهما صباحًا، وسيقضيان اليوم بأكمله هناك بمنزل الجدة للعزاء.

-"مريم"، يا "مريم"!

-مممممم!

-قومي يا صغيّرة! فوقي.

-بابا! اتركني أنام.

-ليس هناك وقت للنوم، أريد النزول.

-حاضر! حضرتك ممكن تصحّي "محمد" الأول، للحمام؟!

-انتهى "محمد" من الحمام ومن ارتداء ملابسه أيضًا، لم يتبقّ سوى أنتِ، أيتها الكسولة الصغيرة!

أحبها والدها كثيرًا، ولكنه كان يعاملها وكأنها ولدًا، بل وكان يعتمد عليها في

كثير من الأحيان أكثر من اعتماده على أخيها الذي يكبرها بأربعة أعوام؛ فكانت "مريم" تسبق سنها فكرًا وعلمًا، بشخصيتها القوية، ورأيها المستقل، وتفكيرها واسع الأفق، لكنها أيضًا لم تفقد ملامحها وتفاصيلها الأنثويّة الرقيقة.

ارتدت "مريم" فستانها الورديّ القصير، وأمسكت يد أخيها "محمد" وانطلقا مع ابيهما إلى منزل جارتهم "نادية"؛ حيث سيقضيان اليوم معها هي وأبنائها "حسن" و"ندى".

-صباح الخير يا أستاذ "عماد"، البقاء للّه في وفاة أم "عزة".

-الدوام للّه يا أم "حسن"! الحمد للّه ارتاحت، فقد تعبت كثيرًا مؤخرًا بعد أن تمكَّن المرض من جسدها..

آسف! ان كنا نتثاقل عليكِ هذه الأيام بترك "مريم" و"محمد" طوال النهار، ولكنك أدرى بالظروف الحالية.

-لا تقل ذلك أستاذ "عماد"! "مريم" و"محمد" في عيني، هما مثل "ندى" و"حسن".

-جزاك اللّه خيرًا يا أم "حسن"! أستأذن أنا لألحق بمراسم الدفن والعزاء، وحتى لا تكون "عزة" بمفردها في هذا الموقف..

-تفضل! بلغها خالص التعازي! إلى أن أتمكن من الذهاب لأداء الواجب بنفسي.

-حسنًا! سأُبلغها تعازيكِ، السلام عليكم.

إنصرف "عماد" إلى منزل الجدة؛ حيث العزاء والغُسل، ثم انطلقوا جميعًا إلى المدافن، وأودعوا أم "عزة" مثواها الأخير.

في منزل الجدة؛ بالدور الأرضي، بأحد البيوت القديمة بمنطقة شعبية قديمة؛ حيث ترابط الأهل والجيران، وحيث رائحة التراب والعطن تختلط برائحة أنفاس من بالبيوت، مع رائحة ما يطبخون من طعام؛ أقامت الخالات مأدُبة الوفاة؛ "كعادة أهل الأحياء الشعبية في مثل هذه الظروف"؛ أكل الجميع بعد أن استجمعوا قواهم، وآمنوا بأن "كلٌّ من عليها فان"، وأن لكل منّا ميعاد سيذهب فيه إلى مثواه الأخير.

*****

في منزل "نادية" كانت "مريم" تلعب مع "ندى" و"حسن" وأخيها لعبة العريس والعروسة، فكانت "مريم" عروس لـ "حسن" الذي يكبرها بعامين، وندى عروس لـ "محمد" والذي يكبرها بعامين أيضًا.

بينما كانت "نادية" بالمطبخ تجهز الطعام لأربعتهم، تبادلوا القبلات التي كانت تتسم بالبراءة حينها؛ فكان كل ما يعرفونه عن الزواج بذلك العمر هو القبلات، وربما لمس اليدين والإمساك بهما بقوة.

كانت المشاعر الأولى التي طرقت إحساس "مريم" تتسم بالرقة، والبراءة، والنقاء البللوري، فلم تكن تعلم أن الغد يخبئ لها ماهو ضبابيّ أسود؛ لم تكن تعلم أن الغد سيحمل لها مشاعر جديدة مختلفة كليًا عن تلك المشاعر التي أحستها الآن!!

obeikan.com

في صباح اليوم التالي، وبعد أن أيقظتها والدتها، وساعدتها على تغيير ملابسها، وألبستها فستانها الأحمر القصير بنقاطه البيضاء الصغيرة، والفيونكة البيضاء الموجودة أعلى (الكرانيش) العريضة التي يشبه التنورة القصيرة على الجانب الأيمن من الفستان، ووضعت لها رابطة الشعر الحمراء، انطلقوا جميعًا إلى منزل الجدة حيث اليوم الثاني للعزاء.

كان هناك الخالات وأولادهم وبناتهم؛ الكل موجود ببيت جدتهم، التي كانت مريضة منذ شهر، استمتعت "مريم" باللعب مع أقاربها من أبناء وبنات الخالة حتى حان موعد الغذاء؛ حين نادت عليها "عزة" (أمها) لتُناولها كيسًا من الملح من عند جارتهم "فتحية" والتي كانت بنفس الوقت زوجة "حسين"؛ عم "عزة"

- يا مريم، انتِ يا بنت!

-نعم يا ماما.

- تعالي هاتِي لي كيس ملح من عند عمتك "فتحية"، لأن الملح خلص.

- حاضر يا ماما! (- هيييه.. هييييه).

- ومالك فرحانة ليه؟ إذا طلبت منك شيئًا بالمنزل لا تتحركي من مكانك؟؟ ليه فرحانة بذهابك عند طنط "فتحية"؟؟

- لأن جدي "حسين" يعطيني نقودًا لأشتري الشوكولاتة.

- ااااه فهمت! فلتذهبي الآن لإحضار كيس الملح ولا تتأخري، ولا تنسي أن تخبري طنط "فتحية" وزوجها أننا بانتظارهما في المساء.

- حاضر يا ماما.

انطلقت "مريم" بخطوات واثبة مرتدية فستانها الجميل إلى منزل طنط "فتحية" كما كانت تناديها لتحضر الملح ولتظفر بالعملة المعدنية (قرشين صاغ) من جدو "حسين" والتي كان يعطيها لها كلما رآها!! ولم تكن تعلم أنه يهديها تلك العملة المعدنية ثمنًا لسكوتها وصمتها التام عمّا يفعله..

كان جدو "حسين"؛ كما كان يجب أن تطلق عليه؛ فهو من المفترض عم أمها أي بمكانة جدها، ما أن يفتح لها الباب حتى تتهلل أساريره فرحًا، فقد جاءت الصغيرة التي يعبث بجسدها وينتهك برائتها دون أن تدري بفعلته، أو تستوعبها!!!! وقد كان يعطيها (القرشين صاغ) طالبًا منها الصمت، بينما يقوم بتنظيف سروالها الداخلي من القاذورات العالقة به (حسبما أفهمها)!!

بعد أن ينتهي من عبثه ببرائتها ينادي على "فتحية" لترى ماذا تريد تلك الصغيرة وتُحضره لها، وبينما تذهب "فتحية" لإحضار المطلوب يعبث مرة أخرى بسروالها الذي لم يكمل دقائق واتسخ مرة أخرى بالتراب الموجود بمنزلهم !!!

*****

كبرت مريم،وخطَّ الزمن ملامحه على جسدها، فازدادت أنوثتها، ونضج عقلها وخيالها، وازداد تميزها؛ التحقت بالمدرسة الثانوية، ولكنها كانت تختلف كثيرًا عن نظيراتها من الفتيات في سنها؛ في انسياقهن البيولوجي والوجداني تجاه

obeikan.com

الذكور.

كانت معظم صديقاتها تعيش حالة حب؛ سواء أحبت زميلاً لها، أو مدرسها الوسيم؛ طالب كلية التربية الذي التحق مؤخرًا بالمدرسة للتدريب، أو حتى تهيم عشقًا بمدرس الفيزياء أو الرياضيات الذي يشرف على نهاية الثلاثينات أو دخل بالفعل العقد الرابع من عمره، وبدأ الشعر الأبيض يغزو رأسه، مما يزيد من وقارة، ويزيد من ولع الفتيات به.

-"مريم".. أتريَّ ذلك المدرس، ياله من وسيم!..

-مالك يا نهى! إنه مدرس؛ ليس لوسامته علاقة بعمله.

-بلهاء! إنه مدرس تحت التمرين؛ أي أنه مازال طالبًا بالكلية؛ عشرون عامًا على الأكثر، إذًا لا يوجد مانع من حبه والارتباط به.. أو خطبته والزواج منه.

-حب، وارتباط، وخطبة، وزواج !! خيالك واسع!..

-لا تذكري شيئًا عن الخيال، فأنتِ من يحب شخصًا خياليًا، أهناك من يعشق الهواء أيتها المختلة!!

-سبق أن أخبرتك أنه ليس من شأنك، وإن لم تمتنعين عن ذكره لن أحدثك بعد اليوم..

-كفى كفى! طفلة أنتِ، وصغيرة العقل، ما رأيك إذًا بالأستاذ "أشرف" مدرس الفيزياء؟؟ رجل وقور، لهيبة الأبيض برأسة دواوين..

ol eikan.com

-وما به أستاذ "أشرف"؟ رجل وقور محترم، ويشرح بضمير؟

-محترم، نعم، ووقور نعم، ولكنه أيضًا وسيم.

-ألا يوجد ما يهمك بالرجل سوى شكله، ووسامته!!؟؟

-وما يهمني سوى الشكل؟؟ المال؟؟

-المال!!، صدقًا أنتِ فارغة من الداخل، ألم تسمعي عن شيئٍ ما يسمى بالأخلاق، الحنان، العقل المفكر؟؟

-لأ.. سمعت عن السد العالي، أقول لكِ شيئًا؟ إذهبي إلى حيث كنتِ ذاهبة.

-أنا ذاهبة بالفعل، وسأتركك لكلامك الغريب، وأستاذ "أشرف"، ومدرس التدريب، علّ أحدهم ينفعك شيئًا!

لم تكن "مريم" من ذلك النوع من الفتيات؛ فلم تعشْ قصة حب عادية، فما مرت به في صغرها جعل خوفها تجاه الجنس الآخر متغلغلاً بأعماق مشاعرها، فكانت تتجنب الحديث مع أي شاب، بل وتتحاشى مجرد النظر لهم، على عكس "نهى" التي كانت تحب كل شاب أو رجل وسيم تقابله!!

ولكن هذا لا يعني أن مشاعر الحب لم تدق قلب "مريم"، فهي فتاة كأي فتاة بسنها تمر بمرحلة المراهقة، ولكنها كانت تحب بخيالها، كانت تخترع شخصًا خياليًّا وتحبه، بل وتتشاجر معه وتضحك وتبكي بين ذراعيه، تُقبلّه في المساء والصباح، تحتفل معه بمناسباتها السعيدة، وترمي بهمومها تحت قدميه، تخرج معه وتسافر إلى كل الأماكن التي تريدها، كانت تحبه بكل تفاصيلة وكل ما فيه،

أسمته "خالد"، اعتبرته جارًا لها؛ يسكن بالمنزل المقابل لبيتها، طالب بالسنة الأخيرة بالمرحلة الثانوية التجارية، ليس لديه حلم أو طموح سوى أن يحبها!

كانت تقضي ساعات يومها بشرفة غرفتها، تنظر إليه وهو يتطلع إليها من خلف نافذته الخشبية، يتأمل ملامحها ويحاول أن يلفت نظرها إليه، ولكن دون أن يلاحظ أحدٌ من الجيران، حتى لا يتسبب لها بأي مشكلة مع أهلها، كان ينتظرها أمام باب المدرسة حين تخرج ويسير إلى جوارها حتى تصل إلى المنزل، ملقيًا على سمعها أجمل عبارات الغزل والحب، التي كانت تأسر قلبها، وتجعلها تُهيم به عشقًا.

تأتي الأعياد فتخرج مع أهلها، أما هو فيتبعها في الخفاء، يُرافقها كظلها أينما ذهبت يحميها، يأخذ بيدها إن سقطت، كان ببساطة يحبها، يهتم بها، يسأل عنها في كل وقت، يسهر ليلاً إلى جوارها إن مرضت، يلُفها بذراعيه، ويتحسس جبهتها من آن لآخر، ليطمئن عليها.

*****

لم تخلُ حياة "مريم" من الرجال، على الرُغم من أنها كانت تبتعد عنهم، ولكنها ولجمالها الأخّاذ، كانت تأسر الكثير من قلوب المُحبين، فتفننوا في استمالة قلبها الصغير؛ يحاول هذا مغازلتها، وهذا يُمعن النظر لها كلما مرّت من أمام دكانه الذي يبيع فيه العطور، فيشبهها بياسمينة، وهذا يبدأ بالصلاة على الرسول كلما لمح طرفها، فتخجل وتُسرع من خطواتها متحاشية نظراته.

على عكس "نهى" التي كانت تتلذذ بنظرات الرجال ومغازلتهم لها، وكانت على

علاقة بأكثر من شاب، فهي كانت تعتقد أن كثرة وجودهم حولها سوف يمكنها من الزواج بسرعة، فيمكنها أن تحصل على عريس أحلامها، وتتخلص من إزعاج أبيها وأمها لها..

أما "حسن" جارها الحقيقي؛ فكان حبه من نوع خاص، لم يكن مجرد مُغازل كغيره، ولم يكن حبيبًا خياليًّا كـ "خالد"، كان حقيقة ظلت مع "مريم" حتى النهاية. فهو الصديق الوحيد لـ "مريم"، أو يمكن القول بأنه هو الرجل الوحيد الذي سمحت له بالدخول إلى حيِّز حياتها بعد أخيها وأبيها، كان يسكن بالشقة الملاصقة لبيتهم، كانا يتشاطران نفس الحائط، كانا كتوأمين فصلهما الزمن، كان يشعر بها، حتى أنه كان يُشاركها أحلامها، وكان على علم بخوفها من الرجال، لذا كان يتعامل معها بكل حرص، وهي أحبت فيه حرصه، لذا اقتربت منه، وتركته يقترب منها أكثر.

كان "حسن" يعلم بأمر حبها الخيالي، وأمنياتها المدفونة داخلها، وأحلامها المتطايرة في الهواء خلف خصلات شعرها الأسود المجعد الطويل، كان على علم بخفاياها، وأسرارها، بينما لم تكن هي على علم بأنه يعلم كل هذا، كانت تعتبره صديقًا وأخًا، وكان يعتبرها حبيبة، لم يكن يتلصص عليها، وإنما هي من كانت تُخبره بكل شيئ، بكل خفاياها وأسرارها، كانت تتحدث إليه عبر الصمت، وكان لـ "حسن" موهبة فريدة تُمكنه من قراءة العيون؛ كان يقرأ كل ما يدور بعقل "مريم" وقلبها من عينيها العميقتين.

عيناها لغز كبير لم يفهمه ويفك طلاسمه سوى "حسن"، حتى أنه كان يفعل كل

obeikan.com

ما تتمناه، إن تمنت بعينها قطعة شوكولاته أحضرها، وإن رأى بها خاتمًا أو قطعة اكسسوار أهداها لها.

ظل "حسن" بجوار "مريم" حتى أنهت مرحلة الثانوية العامة، وارتادت الجامعة، حتى بدأت العلاقة القوية بينهما في الوَهَن؛ فبدت "مريم" مشغولة طوال الوقت، لذا لم تعد الطرقة الواصلة بين بابيّ شقتيهما مكانًا للقائهما، ولا حتى السلم أثناء صعودهما أو هبوطهما، لم تعُد هناك صدف كما كانت، وكأن القدر قد خبأ لكل منهما حياة جديدة.

*****

في كلية الفنون الجميلة بدأت حياة "مريم" بالاختلاف قليلاً.

-قد يبدو لك أن هذا أمر عادي ولكنك لم ترها بعد!!!

كانت هذه جملة "محمود" التي داعب بها أذن صديقه "يامن"، اللذين كانا بنفس الكلية مع "مريم"، عدا أن "محمود" كان صديقًا لها بينما "يامن" لم يكن يعرفها جيدًا ولم يسبق له أن رآها، فقد كان صديقا لـ "يمنى" و"يوسندا"، بينما "مريم" كانت صديقة لـ "مرام" و"محمود".

أصبحوا جميعًا أصدقاء بعد فترة وجيزة أمضوها معًا بالكلية، ولكن علاقة "مريم" بـ "يامن" كانت علاقة من نوع مختلف، كان يبدو لكل من يراهما أن هناك شيئًا ما بينهما، شيئًا ما على سبيل الحب. فقد علم الجميع بأمر تلك العلاقة الخاصة بينهما إلا "مريم"، والتي كانت تتعامل معهم جميعًا بنفس

الطريقة، فقد كانت تبحث بينهم جميعًا عن حبيب!! لم تكن على علم بأنها على علاقة حب بـ "يامن"، فقد ارتبط به قلبها أما عقلها فلم يكن على علم بعد بهذا الحب.

لم يترك لها "يامن" فرصة تتودد له من خلالها؛ فبمجرد أن لاحظ شوقها إلى وجود رجل بحياتها، وبمجرد أن شعر قلبه بحب قلبها له، باغتها ذات صباح عند دخولها الكلية..

-"مريم"..

-صباح الخير يا "يامن"، كيف حالك؟

-أنا بخير، الحمد لله، لماذا تغيبتي بالأمس؟؟

-أبدًا سهرت كثيرًا، واستيقظت مرهقة، ففضلت الجلوس بالمنزل.

-حسنًا! فقط قلقت عليكِ..

-قلقت عليّ أنا؟؟

-نعم! قلقت عليكِ، مالغريب بالأمر؟

-لا لا! لا شيء فقط استغربت اهتمامك.

هنا بدأ قلب "مريم" بالخفقان خاصة بعد نظرات "يامن" العميقة لعينيها، واللتين كانتا تقولان الكثير والكثير... بل والكثير!! ارتبكت قليلاً وبادرت بالانصراف والهروب من أمام عينيه، إلا أنه باغتها للمرة الثانية مناديًا عليها

obeikan.com

بصوت عالٍ:

-"مريم"!!

-نعم يا "يامن"!!

-أريد الحديث معك بأمر هام..

-خيرًا، ما الأمر؟؟

-أمر هام، هل لديك مانع بالحديث معي، فلنذهب لحديقة الكلية.

-حسنًا! ولكن عندي محاضرة الآن؛ سأحضرها ولنتقابل بعد ساعتين من الآن.

-حسنًا! سأنتظرك..

-جيد! سأذهب الآن، ستفوتني المحاضرة، سلام!

-سلام!

حضرت "مريم" محاضرتها، لكنها لم تستوعب شيئًا مما تحدثت به المهندسة "شيماء"، والتي باغتتها بسؤال حين لمحت الشرود بعينيها:

-"مريم"..

-نعم، يا بشمهندسة؟

-ما هي أهم السمات المميزة للأعمدة في العصر الفرعوني؟؟

-ها... الأعمدة الفرعونية.. آه.. هو... في... بيكون على شكل اللوتس المغلق..

obeikan.com

و... وبيكون.... على .... شكل اللوتس المفتوح.... و...

-وماذا يا "مريم"؟؟ أنتِ لست هنا، ما قلتيه يعرفه أي طالب بإعدادي ليس هذا ما نتحدث عنه طيلة المحاضرة.

-أصل.. أصل..

-إجلسي يا "مريم" وركزي في المحاضرة.

-حاضر يا بشمهندسة، أنا آسفة!!

-تفضلي.

لم تكن "مريم" من اللواتي اعتدّن الشرود بالمحاضرات، ولكن اليوم كان الأمر مختلفًا؛ كانت شاردة بقلبها وكيانها قبل عقلها، فعلى الرغم من أن "يامن" لم يفاتحها بعد بأي شيئ، لكنها كانت تشعر بما يريد أن يقوله، كانت تستطيع أن ترى كل كلمة بداخله، فقد أخبرتها عيناه كل شيئ.

كانت تنظر إلى ساعة يدها كل دقيقة، كأن الزمن توقف، أو كأنه كان يسير إلى الخلف، فمرت الساعاتان وكأنهما دهرٌ شابت خلاله.

-أخيرًا...

نطقت بها "مريم" وهي تحدث "مرام" وتبعتها بزفرة قوية، أعلنت معها ارتياحها بانتهاء المحاضرة.

-"مريم".. انتظري!

obeikan.com

-أنا ذاهبة إلى حديقة الكلية قليلاً وسأعود.

-صبرًا! لمَ العجلة! فكلنا سنذهب هناك بعد قليل، انتظرينا!

-حسنًا، سأسبقكم هناك.

-مريم، ما بكِ؟! لستِ على طبيعتك اليوم، ماذا يحدث؟

-أووووف، حين تنتهوا وتأتوا سأخبرك بكل شيء، سأذهب الآن.

انصرفت "مريم" على عَجَلٍ، وانطلقت بخطوات واثبة إلى الحديقة؛ حيث ينتظرها "يامن"، حتى أنها لم تستمع لنداء المهندسة "شيماء" التي نادت علها أثناء خروجها من قاعة المحاضرة.

وصلت أخيرًا إلى الحديقة، وجدته جالسًا على أحد المقاعد الحجرية المصفوفة جوار بعضها في صفين متقابلين وسط حديقتين صغيرتين بهما بعض الأشجار النادرة، وقد تزينت الحديقة ببعض الورود الصغيرة، أما طرقاتها فقد تزينت ببعض التماثيل التجريدية من أعمال الطلبة والطالبات بقسم النحت.

اقتربت منه في خجل لم تعتدْه؛ فهما صديقان مقربان اعتادا الجلوس معًا كثيرًا، فحين اقتربت منه وشعر هو بخطواتها تسارعت ضربات قلبه الذي كان يصدر صوتًا قويًا، جعل صدره يهتز صعودًا وهبوطًا على الرغم من نحافته؛ فـ "يامن" نحيفٌ ذو بشرة بيضاء وعينان عسليتان، بينما "مريم" ممتلئة الجسد، يصفها البعض بـ (التخينة) لكنها كانت ذات جمال يأسر القلوب؛ بعينيها البنيتين الواسعتين، وشعرها الأسود (الكيرلي) الطويل.

قفز من مكانه ونظر إليها وكأنه يراها للمرة الأولى، وكأنها لم تكن "مريم" صديقته التي كان يتحدث إليها منذ ساعتين، خفق قلبها بسرعة وارتجفت الحروف بين شفتيها وهي تحاول إخراج جملة مناسبة للموقف، فاستجمعت قُواها وأخذت نفسًا عميقًا، ورفعت غرَّة شعرها التي سقطت على وجهها، ونطقت بتردد:

-حسنًا! ما الأمر الهام الذي تريد أن تتحدث معي فيه؟

-فلتجلسي أولاً! أستتكلم وأنت واقفة بمكانك هكذا؟

جلست على مقربة منه، وقالت:

-ما الأمر؟

-اسمعيني، أنا لا أعرف كيف أبدأ، ولكن بغض النظر عن رأيك فيما سأقول، أتمنى ألا أخسر صديقة مثلك.

-حسنًا، تفضل.

-فلتعطيني الأمان؟؟

-أمان؟ هل تخاف مني؟؟

-نعم أخاف كثيرًا أن تبتعدي عني، ولا نصير أصدقاء كما نحن الآن.

-ولمَ أبتعد عنك؟؟ أستقول شيئًا سيئًا؟؟

-لا، كيف أقول شيئًا سيئًا! نحن أصدقاء قبل أي شيء!

obeikan.com

-فلتنطق وتخبرني بالأمر، مقلقٌ هو حديثك!!

-حسنًا! اسمعيني، أنتِ على علم بأني لدي الكثير من الصديقات..

-بالتأكيد أعلم ذلك جيدًا، فـ أنت شخص محبوب يا "يامن".

-ولكنك تعرفين أيضًا أنني لا أشعر بالراحة مع أحد كما أشعر بها حين أتواجد معك.

-نعم أعلم ذلك، وأعلم أنك لا تحكي أسرارك لأي أحد سواي..

-جيد! الآن أريد منكِ أن تعتبري نفسك أي شخص آخر غير "مريم"، لأني أريد إخبارك بسر كبير أريدك أن تصليه إلى "مريم"!!

-حسنًا ما هو؟ ولكن لمَ لا تُخبرها أنت بشكل مباشر؟؟

-لأنه كما أخبرتك من قبل، أخشى خسارتها، وغضبها وأنا أعرفها جيدًا إن غضبت من شخص، فسقوطه في هوة بركان أهون من وقوفه بين يديها.

-هههههههه، لهذه الدرجة مرعبة "مريم"؟؟

-أنا فقط أخشى غضبها وزعلها مني..

-حسنًا! فلتخبرنِ إذًا ذلك السر العظيم الذي تخشى غضب "مريم" إن علمت به..

-صراحةً و بدون لف و دوران، أنا أحبك وأريد الارتباط بكِ..

ذُهلت "مريم" من كلام "يامن"، ولكن ذهولها لم يكن مرعبًا كما كان يخشاه؛

obeikan.com

كان ذهولا ممزوجًا بخجل، احمرت وجنتاها وفاح منها عطر العشق.

-تحبني أنا؟؟

-نعم يا "مريم" أحبك جدًا، وأردت أن أعترف لكِ منذ فترة طويلة؛ ولكني كنت أخشى غضبك كما أخبرتك من قبل.

-ولمَ اعترفت لي بحبك الآن؟؟

-لا أعلم السبب، ولكن إحساسي قادني أن أُخبرك الآن واعترف أمام قلبك أني أحبك جدًا وجدًا.

- "يامن" أنا...

قاطعها في خوفٍ:

- زعلتِ مني؟؟

- لأ، ليه!

- بماذا تشعرين إذًا؟؟

- أنا بـ.. بـ.. بحبك..

كان لوقّع الكلمة على سمعه مفاجأة كبيرة:

- بجد؟؟ بجد يا "مريم" بتحبيني؟؟

- بجد يا "يامن"، أحبك، أحبك.

obeikan.com

- ولِمَ صمتُك إذًا طوال هذه المدة؟

- لأنه ليس من المفترض أن أبدأ أنا بالتعبير عن حبي.

- أشعر وكأني في حلم، غير مصدقٍ لما يحدث، أنا فرحان.. فرحان..

لم تدر لم اعترفت له هكذا، ولكنها لم تكن تتحكم بمشاعرها؛ فقد نطقها قلبها قبل لسانها، وباحت بها عيناها قبل شفتيها، كانت تبحث عن الاستقرار العاطفي، خاصة مع افتقادها لاهتمام أبيها وأمها وأخيها، فهي كانت دائما ما تشعر بالوحدة والغربة وقلة الاهتمام.

لم تدر القصد مما كان، ولكنها تدري الآن أنها على علاقة حب قوية بـ "يامن"، وفقط "يامن".

*****

obeikan.com

(٣)

أحضر "ياسين"؛ ابنها؛ دميته وتوجه إلى غرفة "مريم" التي غطَّت في نوم عميق، متزاحمة رأسها بالافكار والذكريات؛ الحلوة منها والمرة.

اقترب منها وبدأ مداعبة كف يدها بأصابعه الصغيرة، ممعنًا النظر في وجهها وملامحها التي تتغير ما بين ابتسامٍ وعبوس، مستغربًا ما يحدث لوالدته، ثم اقترب أكثر من وجهها وبدأ بتحسس ملامحها وقسمات وجهها.

-جميلة أنتِ يا ماما!.

نطق بها الصغير وهو يضع قُبلة رقيقة على وجنتها، فتحت على إثْرها عيناها، وابتسمت ابتسامة مُريحة، استقبلت بها اليوم.

-"ياسين"..

-ماما استيقظي، فقد تأخرنا على الذهاب للحديقة، مرت أكثر من ساعة..

- حسنًا يا صغيري، هيا بنا..

نهضت "مريم" ونظرت عبر نافذتها، فوجدت النافذة المقابلة لها؛ والتي اعتادت أن ترى وجهها بها كل صباح؛ مفتوحة !!!

-مفتوحة!! هل أجَّر أحدهم المنزل؟؟ يا للخسارة! لن نأخذ راحتنا في المنزل

بعد اليوم.

قالتها "مريم" في نفسها، فهي تعلم مدى التطفل في مجتمعها؛ خاصة حين يعلم البعض أنها امرأة تعيش بمفردها مع صغيرها..

ساعدت "مريم" صغيرها في ارتداء ملابسه، ثم ارتدت ملابسها وتوجها معًا إلى حديقة الحيوانات؛ كما وعدته، والتي ظلت كما هي، لم تتغير إلا من بعض التطورات وزيادة سعر التذكرة، ودخولها هذه المرة مع "ياسين" الصغير لا مع "يامن" حبيبها، لم تذهب "مريم" لزيارة الحديقة منذ عدة أعوام، لا تدري ما السبب ولكن ربما كان هروبا من بعض ذكرياتها المؤلمة..

تجولت مع صغيرها قليلاً، ثم جلسا في (جزيرة الشاي) والتي كانت مُطلة على (بحيرة البط)، تناولا الغذاء، وقام "ياسين" للعب مع طفلة صغيرة لمحها تلهو بمفردها، وعلى ملامحها الحزن، اقترب منها "ياسين" بابتسامة على وجهه الخمري اللون، بملامحه الهادئة وعينيه السوداوتين اللتين تحملان نفس عمق عينيّ أمه.

-أنا "ياسين"! وأنتِ؟

-أنا "ترنيم".

-اسمك جميل يا "ترنيم".

-وإسمك يا "ياسين".

-ممكن ألعب معكِ؟

-أكيد!

ابتسم الصغيران، وابتسم قلباهما النضرين، ومعهما ابتسم الكون..

جلست "مريم" في مكانها محدّقة في البط الأبيض الذي يسبح بالبحيرة، فالأبيض بالنسبة لـ "مريم" لون يبعث على الصدق والراحة والنقاء، ظلت جالسة في مكانها حتى ربّت أحدهم على كتفها.

-"مريم"!!

-"نهى"!!!

-اشتقتك يا صديقتي.

-وأنا أيضًا، كيف حالك وكيف حال الأيام معكِ؟

-أنا بخير، كيف حالك أنتِ؟

-أنا بخير حال كما ترين..

-مازلتِ جميلة، وقد خسرتِ الكثير من وزنك..

-هههههه، نعم يا صديقتي، فهكذا أجمل أليس كذلك؟

-بالطبع أجمل بكثير..

-هل رأيتِ "ياسين"؟

-"ياسين"، منّ؟

obeikan.com

-إنه صغيري ذلك الشقي الأسمر الذي يلعب هناك، مع الفتاة البيضاء.

-ما شاء اللّه! حفظه اللّه!

-سلمك اللّه من كل شر صديقتي مع من أنتِ؟ وأين صغارك؟

-أنا هنا مع أختي وزوجها وصغيرتهما "ترنيم"، تلك البيضاء التي تلعب مع "ياسين".

-وأين زوجك؟

-أنا لم أتزوج بعد، كما يقولون فاتني قطار السعادة..

-لا تقولي هكذا! فالزواج ليس قطار سعادة كما يظن البعض، ففي بعض الأحيان يكون قطار تعاسة وألم.

-ولكنه أفضل من كلمة (عانس)!!

-وكلمة (عانس) أفضل من (أرملة) وكلتاهما أفضل كثيرًا من (مطلقة)، لا تحزني يا صديقتي فكلنا بنظرهم (وباء).

جلستا تحكيان ماذا تفعلان بيومهما، وماذا فعلا طيلة السنوات التي افترقتا عن بعضهما فيهما، حتى أتى الصغار وقالت "ترنيم" لـ "نهى":

-طنط! بابا يقول هيا بنا! يجب أن نعود إلى المنزل.

-حسنًا يا "ترنيم" أخبريه أني قادمة..

ودّعت "نهى" "مريم"، وتوجهت إلى أختها وزوجها، بينما أكمل "ياسين" لعبه

مع دميته، أما "مريم" فعادت للتحديق في البط الأبيض، غير مبالية بما يدور حولها...

*****

obeikan.com

(٤)

جلست "مريم" مع "يامن" على مقعد يُطل على البحيرة الصغيرة بحديقة الحيوانات يتبادلان الكلام والضحكات، بينما تقوم "مريم" برسم "يامن" الجالس أمامها وقد امتلأت عيناه عشقًا؛ فقد اعتادا الجلوس هناك أسبوعيًا؛ لتنفيذ رسمة ما كانت تُطلب منهما كنشاط منزلي لأحد مواد الرسم بكليتهما، اعتادا معًا رسم نفس الوجه ونفس الملامح في كل مرة، لكن مع بعض التغيير في الجلسة أو نظرة العين أو الابتسامة، حتى اعتاد المدرسين والمعيدين منهما على ذلك.

يومًا بعد يوم بات "يامن" و"مريم" أشهر (كَابِل) حبيبين في الكلية، ولم يتوقف الأمر عند أصدقائهما فقط، بل وصل الأمر إلى كل من مدرسيهما ومعيديهما، فإن مررت بقاعة محاضراتهما ووجدت أحدهما يقف على بابها منتظرًا، حاملاً بيده (بوكيه) بديعٍ من الورود الحمراء تتوسطه جورية بيضاء؛ فلا تتعجب! إنه "يامن" يقف منتظرًا "مريم".

كان يُشبهها بتلك الجورية البيضاء؛ بصفاء نيتها وطيبة قلبها؛ وهي كانت عاشقة للورود الحمراء، حيث تجد فيها شغف الحب وعنفوانه، ورقّته، وجدت "مريم" روحها التائهة مع "يامن"؛ فلم يفترقا ولو مرة واحدة طوال أربعة أعوام!! ، حتى

وإن غضبت "مريم" فلا يترك "يامن" الساعة تمر إلا وقد أعاد لها بسمتها مرة أخرى.

لم يخْلُ بيت "مريم" خلال تلك الأعوام من الخُطّاب؛ فرغم بدانتها وسمار بشرتها وتجعّد شعرها، إلا أنها كان بها شيئًا يجذب كل من ينظر إليها!! فما حباها الله من عينين عميقتين، ونقاء طاغٍ، جعل كل من يراها أسيرًا لها.

لكن أكثر من تقدموا لخطبتها كانوا يتقدموا فقط لجمالها، وجاذبيتها؛ لم يحاول أحدهم أن يُخبرها بأنه معجب بعقلها، أو بروحها مثلاً!! لذا كانت تُقابلهم جميعًا بالرفض، ليس فقط لسطحيتهم، ولكن لعشقها لـ "يامن".. نعم كانت تعشقه، أليس هو من قرأ حبَّ قلبها لقلبه دُونما حروف!!

صار كل شيئ بينهما طبيعيٌّ حتى جاء منتصف مايو من عامهما الرابع، كانت اختبارات نهاية العام الدراسي على الأبواب، ولم يتبقّ لهما سوى سنة واحدة بالدراسة، وكان "يامن" قد ذهب إلى منزل "مريم" وطلبها من والدها قبل أسبوعين، واتفقا على أن تتم خطبتهما بعد انتهاء السنة الأخيرة بالكلية، على أن تكون "مريم" له، ولا يوافقوا على أحد المتقدمين لخطبتها.

كانا يحتفلان كل عام بيوم حبهما، يوم عيدهما، يوم أن اعترف كل منهما للآخر بحبه، بإحضار الهدايا الرمزية، والذهاب إلى السينما وتناول الغداء معًا، فكانا يجلسان أطول وقتهما في مواجهة النيل ليستمتعا بجماله وهو ينساب في رقة كرقة مشاعرهما البريئة، لكن كان العيد مختلفًا هذا العام؛ فبعد أن تبادلا الهدايا، وانتظرت "مريم" ذهابهما إلى السينما، فوجئت باعتذار "يامن" عن

الذهاب متعللاً بأن هناك مشوارًا هامًّا عليه قضاؤه مع والده!!

-كل عام وأنت بخير حبيبي.

-و أنتِ بخير حبيبتي.

-أربعة أعوام يا "يامن" هل تصدق ذلك؟ أنا غير مستوعبة للأمر، مرّ الكثير بالفعل ولكني بغاية السعادة.

-أدعو ربي أن نظل معًا لنهاية العمر حبيبتي، وأتوسل إليه كي يعطيني القدرة على إسعادك ورسم البهجة بحياتك.

-إن شاء اللّه حبيبي..

-............

-.............

-"يامن"..

-نعم حبيبتي! هل يمكنك أن تبتعد عني يومًا ما؟؟

-أبدًا، لا يمكنني ذلك، فـ أنتِ الهواء الذي أتنفسه..

-أدام اللّه وجودك في حياتي يا كل حياتي!.

-و أدام وجودك يا نبض حياتي!

-"يامن"..

obeikan.com

-نعم!

-أي فيلم سنشاهد اليوم في السينما؟ سمعت عن فيلم أجنبي يُقال إنه مثير ولكنه رعب، وأنت تعلم خوفي من مشاهدة أفلام الرعب.

-حبيبتي! عذرًا، أريد أن أخبرك أمرًا ما.

-ما الأمر يا "يامن".

-لن نتمكن من الذهاب للسينما اليوم، أنا آسف..

-لماذا يا حبيبي؟!

-يجب أن أذهب إلى المنزل الآن، لأني سأذهب مع والدي بمشوار مهم، ولا يمكن أن أتركه بمفرده.

-أي مشوار هذا؟؟ وهل يجب أن يكون اليوم يا "يامن"؟؟ أنت تعلم أننا سنذهب للسينما، ثم نتناول الغذاء، ثم نجلس قليلاً بأي مكان على النيل للاحتفال بعيدنا.

-آسف حبيبتي! فلنؤجلها للغد، سأعوضك عما فات، أعدك!

-حسنًا! ما رأيك بتأجيل مشوار اليوم للغد، ونذهب للسينما، أرجوك يا "يامن" لا تفسد عليّ اليوم.. أرجوك!

-آسف حبيبتي، لا أستطيع صدقًا.

-حسنًا فلتفعل ما تريد، لم يعد يفرق الأمر شيئًا.

-أرجوكِ لا تغضبي، سأعوضك بالغد صدقيني.

-انتهينا يا "يامن" لا غدًا ولا بعد غدٍ، لن يفلح الأمر فعيد حبنا اليوم وليس الغد.

-أسيتحول الأمر لخناق وشجار لمجرد أنكِ لن تذهبي اليوم؛ عاشقةٌ للنكد أنتِ!! أم أنكِ فقط تحبيني بهذا اليوم، ألم أطلب منك من قبل أن تتخلصي من تلك الرومانسية الزائدة عن الحد، وتنزلي إلى الواقع قليلاً!!

-ليس الأمر كذلك، لكن من المفترض أنك على علم بخروجنا اليوم، ومن المفترض أن تكون على استعداد لذلك، هذا إن كان هناك بعض الاهتمام بالأمر من الأساس!!

-انتهينا يا "مريم"! هيا بنا، سأوصلك للمحطة لتركبي مواصلة توصلك إلى المنزل.

-توصلني للمحطة وتتركني أذهب للمنزل لحالي؟ ولن تذهب معي ككل يوم، شكرًا "يامن"، لا أحتاجك معي! فأنا أستطيع ركوب (الميكروباص) دون مساعدتك، سلام!

*****

لم تكن "مريم" تهوى الشجار، ولا النكد كما اتهمها، ولكن لذلك اليوم مكانة خاصة بقلبها وكانت على علم بأن "يامن" يعلم ذلك جيدًا، وكونه لم يعرها اهتمامًا ف ذلك اليوم، فهناك أمر أهم قد شغل حياته وقلبه؛ وخاصة بعد وجود "يمنى" و"ياسمين" و"يوسندا" بحياته، واقترانه بهم بشكل دائم، أولاء الثلاثة

اللائي أصبحن لا يفارقنه طوال فترة تواجده بالكلية، وأصبح بوجودهن ينشغل عن "مريم" تمامًا، لاحظت "مريم" هذا الأمر كثيرا، ولكنه في كل مرة كان يدافع عن نفسه متعللاً بأنهن معه بنفس القسم والدراسة والمشروعات العملية هي من تفرض عليه تواجده معهن بشكل دائم !!

تركته وذهبت، كانت على يقين بأنه سيُهرول خلفها، ويجذبها من ذراعها متأسفًا لها، وطالبًا منها أن تبتسم حتى تبتسم له الدنيا مرة أخرى، كما كان يفعل في كل مرة قبل ذلك، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا؛ تركها "يامن" تذهب بتلك البساطة، لم يحاول أن ينادي عليها، أو يجري ليلحق بها، أو حتى حاول الإتصال بها للاطمئنان عليها إن كانت عادت إلى منزلها أم لا!!

ذهبت "مريم" إلى منزلها، مُحاطة بنظرات الجميع، فقد كانت ترتدي أجمل ثيابها وتضع القليل من المكياج، حتى تبدو أجمل بعيون "يامن"، بعد دخول الثلاث فتيات؛ واللائي كن يتمتعن بجمال صارخ؛ إلى حياته، لم تكن تعلم أن رقتها أجمل بكثير من بهرجتهن، لم تكن تعلم أن كحل عينيها بألف لون من ألوان المكياج اللائي يضعْنه، لم تكن تعلم أن ابتسامتها أجمل من أحمر شفاههن، وكاد كل من رآها أن يأكلها بعينيه، وأن يفترسها بنظراته؛ مما جعلها تكره اليوم ونفسها أكثر وأكثر.

دخلت منزلها، وألقت هديته أرضًا، وارتمت بجسدها على السرير، وظلت تبكي لساعات، لم تدر كم من الوقت مر عليها وهي تبكي، ولكنها استفاقت من نومها على رنين هاتفها بعد ما رن كثيرًا.

obeikan.com

-ألو!..

-"مريم"! كيف حالك؟

-بخير يا "محمود"! كيف حالك أنت؟

-الحمد للّه!

-لم نرك اليوم بالكلية لمَ لمْ تأت؟

-أعلم أنكِ ستحتفلين مع "يامن" اليوم، فقررت البقاء بالمنزل بكرامتي حتى لا أفسد عليكما عيدَكما.

-هههه، خيرًا فعلت يا صديقي!

-مريم، ممكن تعطي الهاتف لـ "يامن"؟ أحاول الاتصال به منذ فترة، ولكن الاتصال انقطع، يبدو أن بطارية هاتفه قد فرغت.

-لا أعلم أن كانت بطارية هاتفه فرغت أم لا!!

-هل مازلتم بالسينما؟؟

-سينما؟!

-نعم! أخبرني "يامن" أنكما بالسينما حين كنت أحادثه قبل أن ينقطع الخط..

-أنا بالمنزل منذ عدة ساعات يا "محمود"، ولا أعلم شيئًا عن "يامن"، ولكني عرفت الآن...

-يبدو أنني تسببت في مشكلة، أليس كذلك؟

-مشكلة لـ "يامن" نعم، ولكن النسبة لي فقد فتحت عيني على أشياء كنت أشعر بها ولكني أتغاضى عنها، أو بالأحرى أكذّب إحساسي بها.

-..........

-..........

-"مريم"..

-أنا بخير يا "محمود" لا تقلق، فقط إذا سمحت لا تخبر "يامن" بأمر معرفتي بذهابه للسينما.

-حسنًا يا "مريم"، لكن أرجوكِ كوني بخير..

-أنا حقًا بخير! لا تقلق، فقط افعل كما طلبت منك.

-حسنًا يا "مريم"! أنا آسف.

-لا تتأسف على شيء لم ترتكبه، أنا بخير.

*****

لم تكن تتصور يومًا أن يتركها "يامن" لأجل الثلاث فتيات؛ هل تعود الآن إلى "خالد" حبيبها الخيالي الذي كانت قد تخلصت منه منذ أربع سنوات؟ أم تجلس وحيدة تبكي؟؟ أم تذهب لترتمي بأحضان "حسن"، الرجل الوحيد التي تعلم أنه لن يسيء فهمها إذا ما طلبت منه أن يضمها إليه!! ولكن "حسن" ليس هنا! فقد

obeikan.com

سافر للدراسة بإحدى الدول الأوروبية..

-يا إلهي ماذا أفعل؟! أشعر وكأنني أموت.

-أنا هنا، تعاليّ ابْكِ في حضني.

تلفتت يمينًا ويسارًا، لم تجد أحدًا بالغرفة؛ فهي على يقين بأنها بمفردها.

-مجرد هلوسات..

قالت ذلك في نفسها، وأمسكت بهاتفها وأغلقته تمامًا، ثم ذهبت لتغتسل، وعادت لغرفتها، وأغلقت بابها وألقت بجسدها على السرير لتغط في نوم عميق.

-"مريم"! لماذا لم تأتِ لحضني، لتبكِ فيه؟؟

-"خالد"!!

-نعم حبيبتي، "خالد" الذي اشتاقك كثيرًا ونسيتيه أربع سنوات.

-ولكنك وهمٌ صنعتك في خيالي، كيف تتحدث إليّ الآن؟؟

-ربما كنت وهمًا وخيالاً، لكني بداخلك حقيقة، الحقيقة التي تلجئين إليها حين تغلق الدنيا أبوابها بوجهك..

-أأصبت بالجنون!! أم أنني أحلم؟؟

-لا يا حبيبتي! لم يصبْك الجنون، أنا حلمٌ، وأنا حقيقة، أنتِ من سيقرر ذلك.

أمسكت رأسها وشعرت أن كل شيئ يدور من حولها ثم نطقت.

obeikan.com

-لا أفهم شيئًا مما يحدث، من أنت؟؟

-سأذهب الآن..

-انتظر..

-انتبهي لنفسك يا "مريم"، وحين تحتاجينني ستجدي حضني مفتوحًا.

*****

مع أول ضوء صباحٍ؛ وبعد أن تسللت خيوط الشمس وألقت بنورها فوق وجه "مريم" التي نسيت أن تغلق النافذة ليلاً، فتحت عينيها ونظرت إلى باب غرفتها حيث كان يقف "خالد" متحدثًا إليها قبل أن يخرج من الغرفة ويتركها.

ظلّت مُحدِّقة في الباب علّها تجد تفسيرًا لما حدث بالأمس، ولكنها لم تجد سوى الباب يُفتح من الخارج، حيث أدار أحدهم مقبضه النحاسي برفق، فأغمضت عينيها مرة أخرى.

لم تمر دقيقة، إلّا وقد أُظلمت الغرفة بالكامل، حيث حجب أحدهم أشعة الشمس التي تسللت وأدفأَتْ وجهها، فتحت عينيها مرة أخرى بعد أن سمعت صوت انغلاق الباب، ولكنها لم تر سوى الظلام، فقد أغلقت والدتها النافذة.

اعتدلت في جلستها، وتحسست (الكومود) الصغير الموجود بجوار سريرها حتى وصلت إلى هاتفها الذي أعادت تشغيله، لترى ما إذا كان "يامن" قد حاول الاتصال بها أثناء نومها أم لا.

وجدت منه اتصالين ورساله يعتذر فيها عن عدم ذهابه معها للسينما لانشغاله

في مشوار أبيه!!

-ما زلتَ مصرًّا على الكذب!!، حسنًا!!...

تحدثت مع نفسها، وشردت قليلاً في لقائهما بالأمس إلى أن قاطعها صوت هاتفها الذي أضاءت شاشته بإسم "مرام":

-ألو، نعم يا "مرام"!

-أين أنتِ، لماذا تأخرتِ اليوم؟؟

-لا شيئ، فقط تأخرت في النوم.

-إنتِ بخير؟!

-نعم أنا بخير!

-حسنًا! فلتسرعي بالنهوض حتى تتمكني من حضور محاضرة دكتورة "شيماء".

-حسنًا سآتي بسرعة.

-بانتظارك! مع السلامة.

-"مرام"!

-نعم يا "مريم"؟

-هل أتى "يامن" الكلية؟

-نعم منذ ساعات، ويجلس مع صديقاته الثلاث، في حالة من المزاح والضحك،

حتى أن صوتهم يكاد يصل لغرفة العميد الموجودة بآخر الكلية.

- حسنًا، أنا سآتي على الفور، لن أتأخر.

-"مريم"! هل تشاجرتما؟؟

-لا أبدًا، سأخبرك بما حدث لاحقًا، سأقوم الآن لأتمكن من الحضور بسرعة.

-حسنًا! مع السلامة!

*****

هل ملَّ منها ومن رومانسيتها الحالمة الزائدة عن الحد (من وجهة نظره)؛ فقد طالبها أكثر من مرة بتغيير أسلوبها حتى لا يتسبب في بُعده عنها بشكل أو بآخر ولكنها كانت ترفض وتُخبره بأنه أحبها هكذا، وإن تغيرت سيتغير هو دون أن يشعر.

-هل أستسلم له، وأُغير من شخصيتي، وأفكاري ومبادئي؟ أم أظل على حالي وأخسره!!؟

هكذا تحدثت لنفسها، لكنها لم تستسلم إنما بدأت بالتغيير قليلاً علَّ هذا التغيير يكون مفيدًا لهما ولعلاقتهما.

قامت بتغيير ملابسها وتوجهت إلى الكلية، وبمجرد أن لمحها "يامن" انتفض من مكانه؛ رأى "مريم" جديدة غير التي يعهدها، ترتدي ثيابًا ضيقة على غير المعتاد، تترك شعرها حرًا ينسدل خلف ظهرها، وتضع القليل من المكياج والتي

obeikan.com

اعتادت أن تضعه بيوم عيدهما فقط، تضحك في وجه كل من يراها، تبتسم لنظرات الإعجاب التي تُلاحقها.

ترك من يجلس معهم وذهب مباشرة إليها، وتحدث إليها باستنكار:

-ما هذا الذي فعلته بنفسك؟

-ومابي، أقبيحة؟؟

-لا! لستِ قبيحة، ولكن ملفته للأنظار بشكل كبير، وجميع الحاضرين ينظروا إليكِ.

-فلينظروا كما يشاؤون، فأنت تنظر على غيري، إذًا متعادلين.

-مالكِ تتحدثين هكذا، أجُننتِ؟

-اعتبرني جُنِنّت! وما بالُ ملابسي وشكلي؟ فهو يشبه الدمى الملونة اللاتي تجلس معهن، ألا يرتدين مثل هذه الملابس؟ ألا يتركن شعّرهن هكذا؟ ألا يتزينَّ بالمكياج هكذا؟؟ أنا مثلهُن لا أكثر.

فطِن "يامن" لنبرتها، فبادرها برصاصات غادرة:

-نعم يرتدِين مثل هذه الملابس، ولكن أجسادهن ليست ممتلئة ومكتنزة مثلك، ويضعْن المكياج هكذا لأنهن صاحبات بشرة بيضاء، ولسْن سمراوات مثلك، فلترتدي ما يليق بجسدك وشكلك ولون بشرتك، لا تقلدي لمجرد التقليد.

-ألم تكن أنت من طلب مني التغيير؟؟ حسنًا تغيرت مثلما طلبتَ مني، أم أن الآن

وفجأة قد اكتشفت أني قبيحة وسمراء وممتلئة الجسد!! على العموم أشكرك بشدة، لقد كنت كريم الأخلاق جدًا معي...

-عفوًا..

تركها ومضى لحاله، ووقفت هي مكانها تتطلع نحو اللا شيئ، حتى لمحتها "مرام" والتي لاحظت الحزن يُغلف وجهها، فهرولت إليها على عجل، واقتربت.

-"مريم" ما بكِ؟

-لا شيء...

-لا شيء؟؟، لا! هناك شيء وكبير جدًا، ألا تشعري بنفسك؟ ماذا قال لكِ "يامن"؟ وماذا حدث بينكما، وما هذا الجمال؟؟ هناك تغيير كبير بشكلك اليوم..

ردت "مريم" باستياء شديد، وقد كتمت بداخلها صرخات مدوية.

-بَلا جمال بَلا (نيلة)، لا هذا يعجبه ولا ذاك، لقد تغير "يامن" كثيرًا، لم يعد يحبني.

-حسنًا! فقط اهدئي قليلاً، ولنذهب للجلوس بحديقة الكلية وأحكِ لي ما حدث.

*****

في حديقة الكلية، حيث يقضي معظم الطلاب أوقاتهم التي تتخلل محاضراتهم، بدأت "مريم" في سرد كل ما حدث منذ الأمس وحتى الآن، ثم فجأة صمتت..

obeikan.com

رأتْه يقف أمامها للمرة الثانية، هذه المرة لم يكن خيالاً، لم يكن وهمًا إنه هو..

-خالد؟؟!!

نعم هو "خالد" كما كانت تتخيلة وتحلم به، إنه هو كما رأته بالأمس وهي نائمة؛ كان ينظر إليها وكأنه لا يرى سواها، نظرت إليه ورأته يقترب باتجاهها، جلس إلى جوارها، و"مرام" تتابع حديثها دون توقف، مُمسكةً بيديها، لكنها لا تستمع لها.

-كيف حالك يا "مريم"؟

-كيف جئت هنا؟

-جئت لأنك بحاجة إليّ، ولا يمكن أن أغيب حين تحتاجينني جانبك.

-"خالد" أنا لست بحاجة لوهمٍ أو خيال.

-من قال إني وهم.

-أنا صنعتك في خيالي.

-لكني عشت بداخلك، وأصبحت حقيقة بدليل أنك تتحدثين معي الآن.

-ماذا تريد؟

-أنتِ التي تريدينني وتحتاجين وجودي.

-أنا لا أريدك، أنا أريد "يامن" حبيبي.

-ولكن "يامن" لا يحبك يا مريم.

-بلى يحبني، هو فقط تغير قليلاً تجاهي، بسبب تلك الفتيات اللائي دخلن حياته، ولكنه يحبني بدليل غيرته عليّ.

-من يخاف عليكِ يخاف على (زعلك)، لا يجرحك ويتحدث إليكِ بتلك الطريقة التي حدثكِ بها!!

-وكيف عرفتَ أنت بما قال؟

-أنا منكِ يا مريم، بداخلك! أعرف كل شيء عنك.

-لالالالا، أنا جُننت بالفعل.

لم تكد "مريم" تنطق بتلك الجملة حتى سمعتها "مرام" قبل أن تغيب عن الوعي.

*****

obeikan.com

(٥)

الأبيض هو لونها المفضل، هو حلمها المفضل، هو زِيُّها المفضل، فقد كانت تختار الأبيض في كل شيء، حتى هاتفها كان باللون الأبيض والذي كاد يسقط أرضًا من كثرة الرنين والاهتزاز..

انتبهت "مريم" لرنين هاتفها حين اقترب منها "ياسين" وأمسك به وخبط على رجلها به قائلاً:

-ماما.. ماما.. تليفونك يرن.

-ها! حاضر حبيبي، أشكرك.

كان المتصل المهندس مختار؛ والذي كان مديرًا وصاحبًا للشركة التي تعمل بها.

-ألو..

-"مريم"! كيف حالك.

-بخير حالٍ، أشكرك.

-أين أنتِ الآن؟

-في حديقة الحيوان مع "ياسين" ابني، هل هناك شيء؟

obeikan.com

-لا! أنا فقط أطمئن عليكِ..

-أشكر اهتمام حضرتك، هل هناك شيء آخر؟

-لماذا تتحدثين إليّ بهذه الطريقة؟؟

-لا شيء، ولكني أرى أن اليوم هو الجمعة؛ وهو أجازة رسمية من العمل، ولا أجد مغزى من مكالمة حضرتك لي الآن!!

- يمكنك اعتبارها على سبيل الصداقة يا سيدتي.

-حسنًا! أشكرك! ولكن أرجو أن تتفهم أنني لست بحاجة إلى أصدقاء جدد فلديَّ ما يكفي منهم.

-ألا ترين أنكِ حادة بعض الشيء، سأغلق الآن! ولكن اعلمي أننا سنصبح أصدقاءً، مع السلامة يا جميلة.

أغلقت الخط، وقد بدت عليها علامات الضيق والتوتر والقلق، ماذا ستفعل الآن، أليس من حقها العيش بسلام، ألا يمكن معاملتها على أنها إنسان، ألا يمكن ترك مساحة من الحرية الشخصية لها!!

دارت هذه التساؤلات برأسها، وشعرت بدوار شديد، فنادت على "ياسين" الذي انتبه فورًا لصوتها المُرهق..

-ماما إنتي بخير؟

-نعم حبيبي بخير، ولكن يجب أن نذهب الآن.

-حسناً!!

انطلقت "مريم" مع "ياسين" بالسيارة، ولكنها شعرت بأنها ليست بخير، وتحتاج إلى القليل من الراحة، ولكنها لم ترد أن تقلق صغيرها، فابتسمت له في مرآة السيارة الداخلية قائلة:

-ياسين..

-نعم يا ماما؟

-ألا تشعر بالجوع؟

-نعم يا ماما، جدًّا.

-سنذهب لتناول الغذاء في مطعمك المفضل، ما رأيك؟

صاح "ياسين" مهللاً للتعبير عن فرحته، وبالفعل ذهبا إلى مطعمه المفضل، تناولت "مريم" بعض حبوب الدواء التي اعتادت عليها كما أوصاها الطبيب، وبعد الطعام ذهب "ياسين" للعب قليلاً، بينما جلست هي وحيدة تتأمل صغيرها، وهو يلعب بسعادة، وقد بدأ إحساس التعب يزول عنها.

وبينما هي شاردة النظر مع صغيرها لمحت إحداهن، كانت بصحبة رجل وطفلين، كان وجهها مألوفًا بالنسبة لها، فهي تعرفها جيدًا...

"ندى!!!"

"ندى أخت "حسن!!"

نعم هي "ندى" بشحمها ولحمها، ونظرة البراءة التي تعلو وجهها منذ طفولتها، يبدو أنها أنجبت من زوجها الثاني.

حدثت "مريم" نفسها بهذه العبارات، وهي تحدق في "ندى" ومن معها.

لأول وهلة لم تتلاقى روح "مريم" مع زوج "ندى"؛ لم تشعر بأي مودة بينه وبين "ندى"؛ مجرد كتلتين صامتتين تجلسان مقابل بعضهما على أحد طاولات المطعم، حتى أطفالهما يبدو عليهم التعاسة، وكأن أعمارهم تتخطى العشرات من السنين، لا مجرد أطفال أكبرهم لا يتعدى السابعة!!

ظلت "مريم" تراقب طاولتهم من بعيد؛ محاولة اخفاء نفسها عنهم، حتى لا تراها "ندى"، فهي ليست في حالة تسمح بمقابلة مثل هذا الرجل السمج حتى مع زوجته وأطفاله..

إلا أن أمنيتها لم تحظ بقبول، فمع تحديقها المستمر لهم لاحظ زوج "ندى" نظراتها إليهم، فبدأ بمبادلتها النظرات خلسة دون أن تدري "ندى"!!

- يبدو أنه ظن أني معجبة به، وأنظر إليه، عجبًا لهؤلاء الرجال!!

"ندى" الشقراء الجميلة لا تلفت نظره، بينما أنا ألفت نظره! أم أنها مجرد (عين فارغة) كما يقولون!!

ارتبكت مريم، لم تعد تعلم ماذا تفعل، ففكرت بالخروج من المكان كله ، ونادت على "ياسين" الذي كان منهمكًا باللعب:

-"ياسين".. "ياسين"!

obeikan.com

-نعم يا ماما.

-كفى لعبًا، هيا نذهب..

طأطأ "ياسين" رأسه حزنًا، وأمسك حقيبته الصغيرة و(أرنوبه)، وسار بجوار "مريم" حتى مرًّا بجوار "ندى"، والتي تعرفت على "مريم" رغم التغيرات الكثيرة التي طرأت على شكلها، ولكن يبدو أن النظرة العميقة بعينيها مازالت تشكل علامة مميزة لها.

نادت "ندى" على "مريم" التي كانت تهرب من نظرات زوجها وهي تعبر بجانبه

-"مريم".. "مريم"!

-ها، "ندى"!!

تصنعت "مريم" المفاجأة، فلم ترد أن تعلم "ندى" أنها شاهدتهم عن بُعد، وكانت ستمر ودون حديث.

-كيف حالك؟!

-بخير حال يا "ندى"!، كيفك حالك أنتِ؟

-بخير الحمد لله.

-هذا حازم "زوجي"، وهذه "ميرنا" ابنتي الكبرى، وهذا "كريم".

-أهلا وسهلاً أستاذ "حازم"، تشرفنا.

كادت نظرات "حازم" تفتك بـ "مريم" وتخترق جسدها، وكادت تُفطر قلب

obeikan.com

"ندى" التي لاحظت نظرته لـ "مريم"، ولكنها لم تستطع فعل شيء سوى الصمت.

-أهلا بكِ يا مريومة..

-عفوًا!!!!

-آسف، "مريم".

-حسنًا، سأذهب الآن يا "ندى" وسأتصل بكِ لاحقًا.

ردت "ندى" وهي تكاد تنفجر غيظًا من زوجها، وتشفق على "مريم" من نظراته المزعجة:

-حسنًا "مريم" سأنتظر اتصالك، فهاتف منزل أمي لايزال كما هو، لم يتغير.

ثم صممت قليلاً وقالت في نفسها:

-ليت كل شيء بمنزل أمي لم يتغير، ليت حياتي لم تتغير، ليتني بقيت هناك.

انصرفت "مريم" بصحبة "ياسين" الذي استندت بيدها على كتفه الصغير، في محاولة منها لاستجماع قوتها، أو ربما كانت تحاول أن تستمد منه قوتها، وصلت إلى سيارتها، ولم تشعر أنها على ما يرام، فلم تعد أعصابها تتحمل مثل تلك المواقف المحرجة والمخزية في نفس الوقت، تحاملت على نفسها، طلبت من "ياسين" أن يمسك بهاتفها ويكون جاهزًا لطلب المساعدة من أي أحد في حال حدوث أي مكروه لها، وأجلسته بالمقعد الخلفي للسيارة، وأحكمت

obeikan.com

ربط حزام الأمان على جسده.

-ماما، فيه إيه؟

-لا شيء يا صغيري، فقط إن حدث لي مكروه، اطلب المساعدة.

-ماما! أنتِ بخير؟ أرجوكِ لا تقودي السيارة وأنتِ بهذه الحالة، فلنتركها هنا ونذهب للمنزل بتاكسي.

-الوقت متأخر يا "ياسين"، والمنزل بعيد، ولن آمن لسائق تاكسي أن يأخذنا إلى المنزل في مثل هذا الوقت وأنا بمثل هذه الحالة.

-حسنًا! فلتتصلي بـ "فارس"، أرجوكِ يا ماما..

-حسنًا !حبيبي ساتصل به.

أخذت منه الهاتف، واتصلت بـ "فارس" صديقها وأقرب الأشخاص إليها في هذه الفترة من حياتها...

-ألو، مساء الخير.

-ألو.. مساء النور، "مريم"!!

-كيف حالك يا "فارس"؟

-أنا بخير يا "مريم"، ماذا عنكِ؟ ماذا بصوتك؟..

-أنا بالخارج مع "ياسين"، وشعرت بقليل من التعب، وأخاف أن أقود السيارة

obeikan.com

وأنا بهذه الحالة، فاقترح عليّ "ياسين" أن أتصل بك لتبقى معي على الهاتف حتى نصل للمنزل.

-لن تقودي السيارة يا "مريم"، سآتي إليكِ حالاً، أين أنتِ الآن؟

-أنا بمنطقة المهندسين أمام مطعم ماك، أنت تعرفه؟

-نعم أعرفه بالطبع، عشر دقائق وأكون أمامك، لا تتحركي أنا بالقرب منكِ.

-حسنًا يا "فارس" سأنتظرك.

-لن أتأخر، مع السلامة.

لم تمر العشر دقائق إلا وكان "فارس" أمامها، قابلته بابتسامة مُجهدة، وعينان لامعتان يظهر عليهما التعب والارهاق النفسي، والكثير الكثير من الدموع المحبوسة، اقترب منها "فارس" في لهفة وسلم عليها، وطلب منها أن تظل بالمقعد الخلفي بجوار ياسين، ولكنها أصرت على الجلوس بجانبه في المقعد الأمامي، فوافق على أن يقوم بإرجاع ظهر المقعد للخلف حتى تتمكن من نيل بعض الراحة حتى يصلوا للمنزل.

قاد "فارس" السيارة حتى وصل بهما إلى المنزل، وحاول إيقاظ "مريم" التي يبدو أنها قد استسلمت للنوم، ولكن دون جدوى فلم تكن "مريم" نائمة !

*****

(٦)

في غرفة العناية الطبية بالكلية، وعلى سرير الكشف القديم، تمددت "مريم" في ثباتٍ، لم تعُد تُميز بين الواقع والخيال، ظلّت صامتة، حتى بدأت دموعها الساخنة بالتدفق من عينيها، حين دقَّ قلبها بشدة بمجرد أن سمعت صوت "يامن" بالغرفة، يسأل عنها ويطمئن عما حدث لها من "مرام" ومن الطبيبة المعالجة لها، أزاح بيده الستار الأبيض الخفيف المشدود على ذلك (البرافان) المعدني الذي كان يستر "مريم"، نظر لها "يامن" نظرة واحدة وقال:

-أنا آسف يا "مريم".

لم يُقدّم أسفه لها سوى الوجع!!

ألم يحسب كلماته وانتقاها قبل أن يُمطرني بها؟

ألم يُجربها على نفسه أولاً؟

أكان ولابد أن يوجعني؟؟

نهضت "مريم" من مكانها، بعد أن تأكدت من خروج "يامن" من الغرفة، وبعد أن اقتربت منها مرام، والطبيبة:

-كيف حال جميلتنا الآن؟

obeikan.com

-بخير يا دكتورة الحمد للّه، أشكرك جدًا.

-عَلامَ الشكر يا ابنتي؟ هذا عملي، فقط يجب أن تهتمي بصحتك أكثر من ذلك، فجسدك ضعيف للغاية.

-حاضر يا دكتورة، سأعمل بنصيحتك ان شاء اللّه.

-شفاكِ اللّه وعافاكِ على خير، كتبت لكِ بعض الفيتامينات، وبعض التحاليل، أحضريها إليَّ في أي وقت بعد إجرائها بأي معمل.

-حسنًا يا دكتورة، أشكرك جدًا.

انصرفت "مريم" مع مرام التي أوصلتها إلى منزلها، بعد أن رفضت أن يوصلها "يامن"، ورفضت أي كلام معه.

*****

-"يامن"!!!

-حمدًا للّه على سلامتك.

-لماذا أتيت هنا؟

-جئت كي أطمئن عليكِ واعتذر لكِ..

-ولكني لا أريد منك أي إعتذارات.

قاطعها والدها الذي تدخل لإنهاء الحوار القاسي بينهما، وطلب منها أن تدخل غرفتها لترتاح قليلاً، بعد أن علم بأمر فقدانها للوعي في الكلية، وبعد مرور

obeikan.com

حوالي ساعة، تناقش فيها والد "مريم" مع "يامن" طرق باب غرفتها:

-تفضل يا أبي..

-ممكن نتكلم قليلاً يا مريومة؟

-طبعًا تفضل.

-حسنًا! فلتقومي أولا بارتداء شيء، لأن "يامن" سيشاركنا بالحديث..

-ولكني لا أريد الكلام معه ولا حتى السماع منه.

-قومي يا "مريم" ونفذي ما طلبته منكِ، أنتِ أحضرتيه وقلتِ تحبيه، الآن تقولي أنكِ لا تريدينه!! أنا لا أحب كلام الأطفال وعبثهم، إن لم تفعلي ما طلبت منكِ لن تريه ولا تعرفيه من الأصل بعد الآن..

-حسنًا حسنًا يا أبي أتركه يأتي.

دخل "يامن" إلى غرفتها وهو ينظر إليها بعينين يملؤهما الخجل، جلس على المقعد المجاور لسريرها، وجلس والدها على طرف السرير القريب منه، بينما جلست "مريم" محتضنة ركبتيها بمنتصف السرير.

أمسكت دموعها التي كادت تسقط رُغمًا عنها، رافعة رأسها إلى سقف الغرفة والتي كانت تُزينه بضعة قلوب ونجوم تُضيء ليلاً..

بدأ "يامن" بالحديث، ولكنها لم تسمع منه شيئًا في البداية، فقد كان "خالد" يقف بجوار الباب ينظر إليها في حنان، كادت تنطق باسمه لولا انتبهت وتذكرت

obeikan.com

وجود والدها و"يامن"، فطردت صورته من عينيها، وبدأت بالإنصات إلى "يامن" الذي كان مستمرًا في كذبته..

-آسف يا "مريم" لم يكن الأمر بيدي، صدقيني.

-نعم.. صحيح.. لقد قامو بربطك وتكتيفك بالحبال، ثم أخذوك عنوة إلى السينما !!

-أي سينما!! قلت لكِ إنني كنت مع أبي.

-"يامن".. أرجوك.. كفاك كذبًا.. كفى.. كفى.

قالت جملتها الأخيرة وانفجرت في بكاء هيستيري، لم يتمكن والدها وكلماته المتوسلة إليها من إيقاف بكائها، ولا حتى كلمات "يامن"، الذي قام من مكانه متوجهًا ناحية الباب وكاد يخبط بأحدهم!!

ولكن جذب انتباهه شهقات "مريم" المتقطعة، ثم صوت والدها الذي نطق بصوت ملهوف:

-مريم !!!

*****

ظلامٌ تام، غرفةٌ ضيقة خالية من أي نفس أو همسة.. فقط سكون، وكأنه قبر، أو غرفة ضيقة بأحد الفنادق العتيقة بأحد أزقة مدينة قديمة تهاوت أسوارها تحت وطأة الزمن..

obeikan.com

فتحت "مريم" عينيها محاولة أن ترى أي شيء ولكنها لم تلمح سوى الظلام، لم يمر الكثير حتى سمعت صوت "خالد" يرن بأذنيها، مُناديًا عليها، تسارعت دقات قلبها وكاد يُغشى عليها من الخوف..

ولكن مهلاً كيف ستفقد وعيها؟؟ وهي بالأصل فاقدة إياه!!

أمرٌ عجيب!!

هل يمكن لأحد أن يفقد وعيه، بينما هو بالفعل فاقدٌ لوعيه؟؟ وما هذا المكان؟ هل عندما يفقد المرء وعيه يذهب إلى مكان مظلم كهذا؟ ولكن عندما فقدت وعيها في الكلية لم تسمع تلك الأصوات ولم تر ذلك الظلام!!

ولكن هذه المرة الأمر مختلف! الصوت ليس بغريب، و لكنه يأتي مع صدى صوت! وكأنها بمكان مفتوح، ولكن هذا المكان ضيق للغاية حتى أنها تكاد تختنق، تلفتت حولها مرة أخرى علّها تجد مصدر هذا الصوت، ولكنها لم تجد سوى الظلام الحالك مجددًا، ولكن صوت ما ناداها...

-مريم !!! مريم!!! مريم!!!

شعرت بهزّة قوية في بدنها، شعرت معها وكأن أحدهم يمسك بها محاولاً ضمَّها، فتحّت عيناها، فوجدت أباها و"يامن"، إلى جانب أمها التي تبكي خوفًا على ما أصابها!

-أبي، ماذا حدث؟ و أين أنا؟؟

- هل أنتِ بخير يا "مريم"؟

obeikan.com

-أنا بخير الآن ولكن أين كنت؟ لقد شعرت وكأني في مكان ضيق، ومظلم كالقبر، أنا خائفة للغاية..

-لا تخافي، أنا هنا.

انصرف "يامن" وخرج والدها ووالدتها من غرفتها وبقيت بمفردها، أو كما كانت تعتقد هي ـ فخالد لم يغادر الغرفة وظل هناك بجوار الباب، ينظر إليها بحنان منتظرًا منها فقط لحظة تفكير واحدة به، ليأخذها مرة أخرى إلى عالمه الذي أفاقها منه والدها.

*****

obeikan.com

(٧)

كرر "فارس" محاولته لإفاقة "مريم"، ومعه "ياسين" الذي أمسك بيد أمه محاولاً التوسل إليها لتنهض:

-"مريم".. "مريم"!!

-ماما.. ماما!!

ولكن "مريم" لم تفق.. قاد "فارس" السيارة مرة أخرى حتى وصل بها إلى المستشفى القريب من المنزل، والذي اعتادت الذهاب إليه مؤخرًا، فهي تتابع حالتها الصحية مع الدكتور شريف طبيب المخ والأعصاب بالمستشفى.

دخل بها إلى غرفة الطوارئ، محاولاً إسعافها ومعرفة ماحدث لها..

-ماذا حدث لها يا دكتور؟

-هي بخير الآن، مجرد تعب بسيط بالأعصاب، أدى إلى هروب عقلها الباطن من الواقع، كما تعلم يا "فارس" فحالتها هذه الأيام غير مستقرة تمامًا، والتوتر العصبي قد وصل بها إلى مراحل سيئة.

-أعلم يا دكتور، ولكني لا أعلم ماذا حدث اليوم لتُصاب بذلك، لقد كانت مع "ياسين" بأحد المطاعم، واتصلت بي حين بدأت تشعر بالتعب.

obeikan.com

-لا بأس! دقائق وستكون بخير، لقد أعطيتها علاجًا مهدئًا وستفيق بعد قليل.

-الحمد للّه، أشكرك جدًا يا دكتور، وإعتذر إن تسببنا بإزعاجك.

-لا تقل ذلك يا بشمهندس "فارس"، المهندسة "مريم" شخصية جميلة وأصبحت صديقة عزيزة، وأنت أيضًا صديق عزيز ولن أتأخر عنكما..

-أدام اللّه المعروف بيننا يا صديقي.

في الغرفة التي انتقلت إليها المستشفى، نظر "فارس" إلى "ياسين" الذي جلس فوق السرير بجوار أمه، وألقى رأسه في حضنها، وظل يبكي بصوتٍ مختنق، فاقترب منه وربت على كتفه وأمسك بيده التي تشبَّثت بكتف أمه ويدها:

-"ياسين" حبيبي، لا تبكِ يا صغيري.

-ماما يا "فارس"!!

-ستكون بخير يا بطلي، لا تقلق!

-لماذا يحدث ذلك لأمي يا "فارس"؟ ولماذا هي دونًا عن غيرها التي تشعر بهذا الكم من الألم؟؟

-لقد كبرت يا "ياسين" وبتّ تعرف معنى الألم...

-أتعلم يا "فارس"!

-ماذا؟

-أنا أسمع أمي دائما وهي تبكي ليلاً فوق وسادتها، ولكني لا أشعرها بشيء،

obeikan.com

فقط أذهب إلى النافذة وأفتحها وأتحدث إلى السماء، أتحدث إلى الله وأطلب منه أن يجعلها تتوقف عن البكاء، أمي طيبة للغاية يا "فارس" ولا تستحق كل هذا الحزن.

-أعلم يا "ياسين" أنها طيبة، ولا تستحق سوى الفرحة، وأنت أيضًا يا صغيري لا تستحق سوى أمًا طيبة مثلها.

-أتعتقد بأن أمي ستفرح يومًا؟

-نعم يا "ياسين" أعتقد ذلك وأؤمن به، أتعلم لماذا أؤمن به؟

-لماذا؟

-لأنها تؤمن به، هي تؤمن بأنها ستفرح يومًا ما، وأنا مؤمن بها.

-"فارس"..

-نعم..

-أنت تحبها، أليس كذلك؟

صمت "فارس"، فقط نظر إلى "مريم" المتمددة على فراشها، وقد غطى شعرها جبهتها، ولمح قطرة ماء تعبر بعض التجاعيد الدقيقة بجوار عينيها لتنزلق برقة عبر وجهها لتسقط فوق الوسادة، وتفتح بعدها "مريم" عينيها وتبتسم لهما.

فرح ياسين، وقفز إلى حضنها مرة أخرى، ولكن هذه المرة عانقها بكلتا يديه

obeikan.com

وقبَّلها في وجهها الذي أصبح مبللاً من دموعه.

اقترب "فارس" منهما وضم "ياسين" إلى صدره وهمس لها:

-حمدًا للّه على سلامتك يا مريم..

وقال في نفسه..

-يا حبيبتي.

ابتسمت "مريم" مرة أخرى، وقد مسحت وجهها المبتل من دموع "ياسين" وقالت برقة:

-اللّه يسلمك يا "فارس"، ماذا حدث لي؟

-لا شيء أنتِ بخير لا تقلقي.

-الحمد للّه، أشكرك يا "فارس".

غضب "فارس" من شكرها له، وقال بصوت غاضب:

-حمقاء أنتِ!! تشكريني على ماذا؟

-على وقوفك جانبي يا "فارس"، واهتمامك بي وبـ "ياسين".

-"مريم".

-نعم!!

-اصمتي يا "مريم" أرجوكِ.. لا داعي لمثل هذا الكلام، أما زلتِ تعتبريني

غريبًا؟

-ليس الأمر كذلك صدقني.

-حسنًا فلتصمتي أرجوكِ، أنتِ مازلت متعبة لا داعي لزيادة الأمر على أعصابك.

-حسنًا يا "فارس".

التفت إليها "ياسين" واقترب من أذنها وهمس لها بخبث:

-مرهقٌ هو الحب يا ماما، مرهق جدًا.

-ولد!! (باندهاش)...

-ماذا؟ أنا أحبك يا ماما، وقد أتعبتِ لي أعصابي من خوفي عليكِ.

-فتًى شقيّ أنت!!

-فتًى يحب أمه أنا!!

ثم قبَّلها قبْلة على وجنتها وأخرى على يدها، ثم قام إلى "فارس" الذي خرج إلى الشرفة، وظل واقفًا ينظر للسماء.

-تحدث إليها.

-أتحدث إلى من؟

-إلى السماء، تحدث إليها، فالله يسمعك أينما كنت.

-أتعلم يا "ياسين"؟

obeikan.com

-ماذا؟

-أنت تبدو للجميع أنك مجرد طفل صغير، ولكن تفكيرك أكبر من سنك بكثير.

-ماما تقول لي أني أشبهها، وأني أسبق سني مثلما كانت هي تسبق سنها.

-أنت فتًى رائع.

-وكذلك ماما، رائعة، ولكنها بحاجة لرجل رائع.

-أتذكر والدك يا "ياسين"؟

-نعم، أذكر القليل عنه، ولكن ما أذكره ليس بأشياء جيدة.

-هل تفتقده؟

-أحيانًا، حين يتحدث أصدقائي عن آبائهم، أتمنى لو كان معي.

-هل تتمنى عودته مرة أخرى؟

-لا! لأن أمي لا تتمنى ذلك، ولكني أتمنى أن يكون لي أبٌ يومًا ما، كما أتمنى أن يكون لي أخٌ صغيرٌ، ولكن أمي تريد فتاة.

-أتحب "مريم" الفتيات؟

-نعم وجدًا، كثيرًا ما أسمعها تقول إنها كانت تتمنى أن أكون فتاة، ولكني خيَّبت أملها وصرت فتًى.

-ولكنها تحبك.

obeikan.com

-بالطبع تحبني، وهل فتًى مثلي لا يُحَب؟

-هههههه، مغرورٌ مثل أمك.

-تزوجها.

-نعم؟

-لو أنك تحبها، تزوجها.

-أتزوجها؟

-نعم، تزوجها، أو على الأقل ابق بجانبها، لا تتركها، فهي أضعف مما تبدو عليه.

-فيلسوف أنت.

-فيلسوف بلا أب، ويبحث عن زوج لأمه ليكون أبًا له.

خيَّم الصمت عليهما، ونظر كلاهما إلى السماء.

كلمات "ياسين" موجعة للغاية، ولكنه لم يدر ما كان تأثيرها على قلب "فارس"، لقد أوجعته حقًا؛ فهو يحب "مريم"، ويريد أن يُكمل معها بقية حياته، وكذلك يحب "ياسين" ويتمنى أن يكون له ابنًا مثله، ولكن هل ستستجيب السماء؟؟!!

*****

obeikan.com

(٨)

أصوات عالية، زغاريد، غناء وموسيقى، البعض يتمايل ويتراقص، والبعض الآخر يُصفق بسعادة، عروس وعريس في إحدى الغرف بمنزل "آية".

كان هذا هو يوم خطوبة "محمد" الأخ الأكبر لـ "مريم" على "آية"؛ الفتاة المختلفة عن عائلة "مريم" تمامًا؛ أخلاقًا وطباعًا وكل شيء، والتي لم تعرف "مريم" كيف أحبها "محمد" وقرر الارتباط بها..

كانت "آية" فتاة بنفس عمر "محمد"، أو تكبره ببضعة أشهر، تقطن بنفس الحي الذي عاشت به "مريم" وأسرتها، خطفت قلب "محمد" من أول نظرة، حين شاهدها مصادفة وهي تشتري بعض الأشياء من مكتبة الأصدقاء، والتي كان يملكها صديق "محمد".

نظرة واحدة استطاعت أن تأسر بها "محمد" على الرغم من جمالها المتواضع جدًا، ولكن يبدو أنها كانت محترفة في إصطياد العرسان، كما كان شباب المنطقة يطلقون عليها، فلم يكن "محمد" أول خطيب لها، ولكنه كان آخرهم، حيث تمت خطبتهم خلال أسبوعين، كما تم زواجهم خلال ثلاثة أشهر فقط.

وقفت "مريم" ترقص وتتمايل أمام الجميع في يوم الخطوبة، فرحة بفستانها الجديد وتسريحة شعرها المرفوعة، و(المكياج) الذي وضعته بشكل كامل لأول

obeikan.com

مرة في حياتها، وإن كانت والدتها طلبت منها أن تقوم بتخفيفه نظرًا لكثرته والذي جعل من شكلها أكبر سنًا من سنها الحقيقي، وأعطاها ملامح إمرأة وغطى بالكامل على ملامحها الطفولية.

يقف بجوار باب الغرفة يتطلع إليها بعيون ذئب، مرتديًا بنطالاً من الجينز وقميصًا أسود، ويحيط ياقته برابطة عنق فضية اللون، لم تكن تدري وقتها معنى نظراته؛ كان يجيد التمثيل وحاول إظهار نظراته على أنها نظرات عاشق مُحب.

بعد ان انتهت الأغنية التي تراقصت عليها "مريم" وبعد أن شعرت بتعب شديد من الرقص توجهت خارج الغرفة علها تُهدئ ضربات قلبها، وما أن اقترب منها "عادل" الأخ الأصغر لـ "آية" والذي كان بمثل عُمر "مريم" حتى ارتجف جسمها مع لمس عادل لوجهها بمنديل ورقي محاولاً تجفيف عرقها.

-ما هذا؟؟!! ماذا تفعل؟؟ !!

-أسف!! كنت أحاول أن أساعدك بتجفيف عرقك.

-تساعدني؟؟ شكرًا، هات المنديل وأنا سأقوم بمسحه، ولا تحاول مساعدتي بهذا الشكل مرة أخرى، إذا سمحت!!

-أسف، تفضلي.

مد لها يده بالمنديل الورقي، ولكنها لم تستطع الامساك به، فقد حاول عادل مداعبتها قليلاً بأن يمد يده بالمنديل ثم يسحبها مرة أخرى.

-ماذا تفعل، توقف عن ذلك، أو دعني أمر، إذا سمحت.

-حسنًا حسنًا، خذي المنديل، ولكن لا تغضبي هكذا.

-أسلوبك مستفز.

-لا تحدثيني عن الاستفزاز، فأنا أريد خنقك..

-نعم !!

-نعم، أريد خنقك..

ردت باستفزاز وبرود على ملامحها وإن كانت تستشيط غضبًا من الداخل:

-تخنقني!! ماذا تقول؟؟.

-حتى تتوقفي عن الرقص.

-ومالك ومال رقصي!! أهو أمر يخصك؟؟

-ألا ترين الرجال وهم يكادون أن ياكلوا كل قطعة منك بأعينهم؟..

-على ما اعتقد أنه زفاف أخي ويحق لي الرقص به، أما عن نظراتهم فهي لا تتوقف سواء كنت أرقص أم كنت أجلس، أو حتى كنت مجرد عابرة في الطريق، إن أعينهم لاتتوقف ولا تنام.

زاد من نظراته الحانية، واقترب منها أكثر دون أن يلمسها، فقط اقترب ليشعر بدفئها، وليجعلها تشعر بدفئه هي الأخرى.

-هل يمكن أن لا ترقصي مرة أخرى؟..

-وهل رقصي سيء لهذا الحد؟

-لا، فقط أنا أشعر بالغيرة.

-تشعر بالغيرة؟

-نعم، أشعر بالغيرة عليكِ..

-تغار عليّ؟؟ أنا!!!

-نعم عليكِ، أوَليس من حقي الغيرة على حبيبتي؟

-حبيبتك!!؟؟

-نعم يا "مريم" حبيبتي، فأنا معجب بكِ من أول يوم وقعت عيناي عليك حين جئتم لطلب "آية" للزواج من "محمد".

-"عادل"! أنا..

-أنتِ مرتبطة؟؟ أليس كذلك؟؟

وقعت كلمة "عادل" على أذن "مريم" كالصاعقة، فقد كانت "مريم" بالفعل مرتبطة؛ مرتبطة بالوهم، مرتبطة بالكذب، مرتبطة أمام الناس، أما في الحقيقة فقد انفصلت هي و"يامن" قبل شهر، وقد ارتبط "يامن" بـ "يوسندا"، أما هي فتعيش قصة حب خيالية مع "خالد"؛ الذي عادت لتتحدث معه كل يوم قبل أن تتوسَّد ذراعه وتنام على صدره كل ليلة.

لذلك قررت الرد على "عادل" بأنها غير مرتبطة، ربما تجد فيه حبيبًا ونيسًا لوحدتها، ربما عانقها بالواقع لا بالخيال كما تفعل مع "خالد"، والذي لم تعد

تفرق بين واقعها وخيالها معه.

قررت أن تعيش قصة حب واقعي أمام الجميع، ليس في خيالها فقط، بعد أن هجرها "يامن" لأجل "يوسندا" بعد انتهاء العام الدراسي.

*****

طردت "مريم" "خالد" هذه الليلة من خيالها؛ نامت هذه الليلة على صوت "عادل"، والذي ظلّت تتحدث معه تليفونيًا حتى الفجر، لم تفكر خلال تلك المكالمة بـ "يامن" ولم يخطر ببالها "خالد"، كانت فقط مع "عادل" تتحدث وتتحدث، وتضحك وتبكي وكأنها تعرفه منذ زمن، وكأنها تحبه منذ أعوام، وكأنه خُلق لها.

استمرت علاقتها بـ "عادل"، وقد اقتربا من بعض أكثر حتى انها كانت تزورهم بالبيت كثيرًا فيختلسا لحظات من العشق والعناق قبل أن تلحظهما "آية" التي كانت مشغولة بتجهيز ما تحتاجه بمنزل الزوجية، كان يُعانقها كلما أتاحت لهما الفرصة، كانت ترى بعناقه لها راحة وأمان، كانت تجد فيه ما تبحث عنه طيلة أعوام، ولم تجده حتى من والدها أو والدتها أو حتى من "يامن"، كانت كل ما تبحث عنه وتحتاجه هو عناق...

ولكن "عادل" كان يريد أكثر من العناق، فبدأت يده تتحسس بعض أجزاء جسدها؛ بدأ بزرع إحساس جديد من اللذة بمشاعرها، وإن كانت لذة بطعم الشهوة، أيقظت معها صراع الطهر والإثم بداخلها.

obeikan.com

انتهت الأجـازة، وعـادت "مريم" إلـى الكلية؛ عـادت لترى "يامن" برفقة "يوسندا"، ولكن هذه المرة عادت بشكل مختلف، عادت بخاتم خطوبة، عادت بصورة "عادل" داخل حقيبتها، عادت بلبس مختلف، بهيئة مختلفة، وأيضًا بقلب مختلف.

حين رآها "يامن" للمرة الأولى بعد ما حدث لها من تغيير، كان يريد أن يصفع نفسه على تركه لها، فكانت "مريم" تشع جاذبية وجمالاً، عكس شحوب وجهه، والذي لم يعلم أحد سره، ولكنهم علموا بسر جمال مريم، إنها الخطوبة، ربما لاهتمامها بمظهرها أو لاهتمام أحد آخر بها.

الحب يُضفي على الأنثى جمالاً وجاذبية أكثر

ولكن لم يكن أحد يعلم أن جمال "مريم" المفاجيء هو جمال مزيف، كان لمعان وجهها ما هو إلا قليل من المكياج، كانت ضحكتها العالية ما هي إلا ضحكة كاذبة تضحك بها على الجميع، كما كانت تضحك بها على نفسها بارتدائها خاتم خطوبة ابتاعته لنفسها لتوهم الجميع بأنه قد تمت خطبتها وأن هناك من يحبها.

لم يعلم الجميع أن علاقتها بعادل انتهت قبل بداية العام الدراسي بأسبوعين حين طلب منها أكثر من عناق ولمس لجسدها، حين طلب منها ما لا يمكن أن يستوعبه الجزء الباقي من برائتها،

*****

كانت "مريم" بمفردها في غرفتها تتطلع إلى صورها مع "يامن"؛ تضحك

obeikan.com

قليلاً وتبكي قليلاً وتذهب بخيالها إلى عالمهما الخاص؛ حيث الجزيرة البعيدة والبحر، والرمال، وأصوات النوارس، وطوق الورود الذي صنعه لها "يامن" ووضعه فوق رأسها ليُزين جبينها بعد قُبْلة رقيقة عليه.

حينها رن هاتفها..

-ألو!!

-مريم!! كيف حالك؟.

-أنا بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟

كادت تقول له أشتاقك، احتاجك، تفارقني روحي بالبعد عنك، لما تأخرت بإتصالك، كنت انتظره منذ عدة أيام..

-أنا بخير! الحمد لله يا مريم، وكنت أود لقائك اليوم؛ أيمكنني ذلك؟

-بالطبع! ومنذ متى لم يكن ممكنًا يا "يامن"؟

-حسنًا! سأقابلك بالمول الذي اعتدنا المقابلة فيه في تمام الرابعة، أيناسبك الميعاد؟

-يناسبني! أين ستنتظرني؟

-في نفس المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه.

-حسنًا! اتفقنا..

كانت تعتقد أنها ستحصل على اعتذار، فارتدت فستانًا أبيض طويلاً فوقه جاكت قصير من الجينز، وتزينت بإيشارب بألوان زاهيه ربطته حول رقبتها، وارتدت حذائها الرياضي الخفيف، وحملت حقيبتها المصنوعة من قماش الجينز، ووضعت القليل من الكحل، وملمع الشفاه، ورفعت شعرها من الأمـام بتوكة صغيرة على شكل وردة حمراء.

وصلت المول، ذهبت وكلها شوق له ولكلماته ولسحره، ذهبت وقد نفضت عنها كل أحزانها، وتناست كل أفعاله، ذهبت وقد حملت له هدية صغيرة من الكريستال، ميدالية محفور عليها أول حرف من اسمه باللغة الإنجليزية.

اقتربت منه، شعرت بضربات قلبها تزداد قوة، تمامًا كتلك المرة التي اقتربت منه حين اعترف لها بحبه أول مرة؛ اقتربت منه وعيناها تبحث عن بقايا حبها، اقتربت منه تبحث عن روحها، ولكنها لم تجد هناك سوى دخان سيجارته وبعض الوجع، جلست على المقعد المجاور له دون أن يلحظ وصولها؛ فقد كان مشغولاً بهاتفه، وقبل أن يغلق الخط سمعت..

-مع السلامة حبيبتي!.

لم تُظهر على ملامحها أي مشاعر؛ خاصة حين التفت لها، ولم تر أي شوق بعينيه، نظر إليها طويلاً؛ كان يتحدث معها، ولكنها لم تسمع شيئًا مما قال؛ كانت تشتاق ملامحه، ونظراته - وإن كانت قاسية - كانت تشتاق تعبيرات وجهه، كانت تشتاق كل شيئ فيه، كانت مشغولة عنه بالحديث مع عينيه.

opeikan.com

أخيرًا بدأت بالانتباه له، حين لمس وجهها ماسحًا دمعة سقطت منها سهوًا.

-ولماذا تبكِ الآن؟..

-اشتقتك..

-"مريم"! أريدكِ أن تسمعينني جيدًا..

-وأنا أريدكَ أن تنصت لقلبي، اشتقتك يا "يامن"..

-أريد الحديث معكِ في أمر هام، يجب أن تنصتي جيدًا، ويجب أن تكوني على قدر كبير من الوعي والاستيعاب، أريدكِ أن تكوني قوية.

-ولماذا تريدني قوية يا "يامن"؟ ما الموضوع الهام الذي يستدعي كوني قوية؟!

-أنتِ تعلمين جيدًا أنني كنت أحبكِ أكثر من أي شيء بالدنيا.

-كنت!!

-"مريم"! اسمعي كلامي للنهاية، ولا تقاطعينني، أرجوكِ!!

-حسنًا يا "يامن"!! أسمعك جيدًا، أكمل.

-في الفترة الأخيرة لم نتفق أنا وأنتِ نهائيًا؛ كثرت مشاكلنا، وكثر النكد بيننا، وأنتِ يا "مريم" قد تغيرتِ كثيرًا، ولا أعلم سبب تغيُّرك هذا!! ولن أنكر أني قد تغيرت مثلكِ، ولكن ليس بارادتي، لقد تعبت يا مريم، مللت من المشاكل، مللت غيرتك.

-آسفة لو كنت السبب في الزعل، وآسفة لأني أغار عليك، أرجوكَ لا تغضب مني،

obeikan.com

أنا آسفة..

-لا تعتذري! أنا فقط أريد أن أقول شيئًا واحدًا.

-؟؟؟؟؟؟

-أريد أن نعود أصدقاء كما كنا، كنا صديقين جدًّا، ولكننا فشلنا في أن نصير حبيبين.

-"يامن" !! أنت تمزح، أليس كذلك؟

-لا!! لا أمزح..

بدأت بالبكاء وتلعثمت كلماتها وزادت سرعة ضربات قلبها وقالت :

-لا لا تمزح! أنا أعرف، وأنا سأبكي الآن وانت ستجذبني إلى حضنك وتعانقني أمام الجميع، ثم تمسح دموعي بيدك وتقول: لا تبكِ يا صغيرتي! أنا أمزح، ثم سيظهر جميع أصدقائنا ويقوموا بالتصفيق فرحًا، وستخرج أنت خاتم الزواج من جيبك وتقول لي: أحبك يا مريم، تزوجيني؟؟!!..

-أفيقي يا "مريم"، لقد قلت ما عندي، كفاكٍ أحلامًا، لم لا تنزلي لأرض الواقع قليلاً، إن ملائكيتك وأحلامك الوردية هي ما أبعدني عنك..

-"يامن".....

-"مريم".. الأحلام الورديه والحياة الأفلاطونية موجودة في خيالك فقط، الدنيا ليست كما تريها، لقد انتهيت منكِ يا "مريم"...

obeikan.com

-لا تقل ذلك! أنت لست سيئًا يا "يامن"..

- "مريم" أنا أحب "يوسندا"، وسأقوم بخطبتها آخر العام..

-إن ما تقوله هو الجنون بعينه، أنت لست سيئًا، ولن تخطب "يوسندا"، أنت تحبني أنا، هل تسمعني، أنت تحب "مريم"، أنت سامع، تحب "مريم".

-مريم.. مريم.. مريم!!

فقدت "مريم" الاحساس بمن حولها، وارتمت بين ذراعي "يامن" محاولة عناقه وتقبيله أمام الجميع..

-أليس هذا ماكنتَ تطلبه مني وكنتُ أرفضه؟؟!! أليس رفضي لهذا هو ما أبعدك عني؟؟!! لاتتركني يا "يامن"، لا تتركني أرجوك!!

-مريم إهدئِي، فوقي يا "مريم" فوقي!!!

دفعها "يامن" بعيدًا عنه وسط نظرات كل من حولهم وذهولهم، دفعها محدقًا إليها بنظرة تحمل الكثير من القسوة، دفعها وكأنه يطردها من حياته.

صمتت مريم..

وصمت الجميع..

وكأن دورة الحياة قد توقفت، وقامت القيامة..

بدأتّ بالتحرك نحو "يامن"؛ الذي كان ينظر إليها في ذعر، وقفت بالقرب منه، مدت يدها لتمسح دموعها السوداء المتساقطة على وجهها، اقتربت منه.

obeikan.com

-ستندم يا "يامن"، صدقني ستندم، ولن ترى يومًا سعيدًا بعد الآن، لن تعرف معنى الفرح ثانيًا، لن أغفر لك.

لم ينطق يامن، ولم يتحرك؛ فقط شعر بخوفٍ شديد، أيُعقل أن تخترقه كلماتها كما يخترق الرصاص الأجساد!!! أيُعقل أن يُصاب بهذا الكم من الخوف!! أأصابها بالجنون؟؟!!

انصرفت "مريم" وسط نظرات الجميع، دون أن تُعر أحد انتباهها، انصرفت وقد امتلأت قوة لم تعرف كيف وصلت إليها.

هبطت "مريم" السلم الكهربائي في ذهول تام، لا تنطق، لاتحرك جفنًا ولا شفةً، تقف منتشية وتتحرك بخطوات شبه عسكرية، وان كانت ترتدي فستانًا رقيقًا.

توقفت أمام السور المعدني لكورنيش النيل، وفي نفس المكان الذي اعتادت الوقوف به مع "يامن".. استندت بكامل جسدها على السور، وركنت كفيها عليه، ووقفت تُحملق بمياه النيل المنسابة برقةٍ كانت تُشبهها يومًا ما.

انسابت دموعها كمياه النيل، لا تستطيع أن تُميز دموعها؛ هل ضعف، هل قوة، ورغم أن عينيها ليس بها انكسار، لا تدري أتبكي منه أم عليه؟! هي فقط تبكي، ولكن حتى بكائها كان بنكهة القوة.

مالت برأسها جهة اليمين قليلاً ناحية كتفها، وكأنها تستند على كف أحدهم ويقوم بمداعبة وجنتيها برقة.

-انا لاأعلم لمَ فعل كل هذا بي؟

-هل انتهيتِ من بكائك..

-نعم!!.

-هل تشعرين بالراحة الآن؟؟

-لا!!..

-هل تريدين البكاء مرة أخرى؟

-لا، لا أريد، يا "خالد".

-متأكدة؟

-نعم! متأكدة.

-حسنًا هيا بنا..

-إلى أين؟

-تعالي معي ولا تخافي، سنذهب لمكان يمكنك أن تريحي فيه أعصابك.

-لا يا خالد! أنا خائفة!..

-خائفة مني يا "مريم" !! أنا جزء منك..

-أنا لم أعد أفهم شيئًا!! لا اعلم لمَ أنصت إليك وأنفذ ما تخبرني به؟

-لأنك تريدين فعل ذلك من نفسك ولكنك تترددين، ربما خوف منك أو ضعف،

أنا أمدك بالقوة التي تتطلبيها لاتخاذ قراراتك.

-لقد جعلت مني شخص آخر..

-لقد جعلتك أنتِ.. نفسك..

-أتركني لحالي يا "خالد" الآن، أتركني.

-سأرحل وأتركك الآن يا مريم، ولكن تذكري أن "يامن" أيضًا سترحل عنه روحه.

-ماذا تقول؟

-................

*****

تذكرت "مريم" هذه الكلمات وهي تتابع "يامن" وشحوبه، حاولت طرد فكرة أن تكون هي السبب في ذلك، أو أن يكون خالد نفذ تهديده لها قبل أن يرحل في آخر يوم رأت فيه "يامن"..

-يا الله ما هذا الجنون!! خالد مجرد وهم وخيال، وأي تهديد يصدر من خيال ووهم!! يا إلهي هل أصبت بالجنون حقًا!!

حاولت "مريم" تهدئة نفسها ولكن دون جدوى، ظلت كلمات "خالد" تعصف بها وظل شبح شحوب "يامن" يُلاحقها، أثناء نومها.

لم يكن لـ "عادل" تأثيرة القويّ على حياة مريم، ولكن ترك بعض الأثر في

obeikan.com

نفسها، فكيف سمحت لنفسها بعناقه، كيف سمحت له بتحسس جسدها، ألهذا الحد أصبح جسدها رخيص عليها!!

ظل "خالد" يزورها من وقت لآخر، فتبكي على صدره حتى تنام، لم يكن هناك من يحنو أو يهبها عناقًا غيره.

ماذا لو كان عناقًا يهبها الحياة!!

*****

obeikan.com

(٩)

يوم جديد من الشقاء، ويوم آخر من المضايقات؛ يوم جديد في العمل، انتهت الأجـازة، وعـادت "مريم" إلـى عملها كمهندسة بشركة المهندس مختار؛ المهندس المعماري الأربعيني، الوسيم، والجذاب، ذو البشرة البيضاء المائلة للحمرة، والشعر الكستنائي الناعم والذي يشبه ممثلي هوليوود!

متزوج من سيدة مجتمع راقية وله ثلاثة أطفال، وطفل رابع يكبر معه؛ وهو شغفه بالنساء، وخاصة "مريم".

"لعوب هذا الرجل، كم أتمنى لو أستيقظ يومًا على خبر نعيه في الجريدة الرسمية!"

قالتها "مريم" بعد أن صادفته في جراج سيارات الشركة؛ وقف أمامها يتأمل ملامحها المنفعلة، متخيلاً تلك الملامح في مكان آخر غير السيارة، وما أن ترجلت "مريم" من سيارتها حتى بادرها بكلماته:

-صباح الخير يا مريومة.

-صباح الخير يا بشمهندس.

-جميلة أنتِ اليوم، جميلة جدًا.

-أشكر ذوق حضرتك، أتسمح لي؟

قالتها محاولة المرور من جانبة للوصول إلى مكان أوسع تستطيع الفرار منه، ولكنه لم يسمح لها بالمرور، واضعًا يده على العمود الإسمنتي الكبير على يسار السيارة.

ازدادت ضربات قلبها، وبدأت تشعر بالاختناق، وطلبت منه أن تمر، ولكن هذه المرة كانت لهجتها أقرب إلى العنف.

-من فضلك يا بشمهندس، أنا أريد المرور.

-حسنًا! فلتمري إن أردتي، وهل أمسكت بيدك أو خصرك مثلاً؟!

-بشمهندس!! أرجوك!!.

رفع يده سامحًا لها بمجال للمرور، ثم أصدر ضحكة عالية وقال:

-أتعلمين! أنتِ خسارة كبيرة بهذا العالم؛ إن مثلك تُفرَش لهن الطرقات بالورود، يسكنَّ الفيلات والقصور، يركبْنَ السيارات الفارهة، لا تلك القديمة الصدئة.

-أنا أحب سيارتي، وأخاف المنازل الواسعة.

-إن كنتِ تخافين، فلتحتمي بأحضان أحدهم.

-شكرًا لك على النصيحة.

-"مريم"!!..

-نعم..

obeikan.com

-أنتِ امرأة بنكهة الخمر، وأنا رجل سكيّر.

انصرفت"مريم" دون أن تتفوَّه بكلمة؛ نظرت له نظرة استحقار ممتزجة بالخوف، شعرت معها برعشة أصدرت صدًى مدويًا في أركان صدرها.

*****

في غرفة دُهنت جدرانها باللون الأبيض مع بعض الخطوط المائلة من لون الأوركيد؛ جلست "مريم" خلف مكتبها الصغير تنظر إلى شاشة حاسوبها المحمول ممسكة بيدها كوبًا من القهوة وباليد الأخرى تعمل على اللوحة الصغيرة للحاسوب، وقد بدا عليها الانهماك بالعمل والتركيز.

اقترب من الباب، وأدار مقبضه برفق، ودلف إلى الغرفة في سكون، لم تلحظ وجوده أو تشعر به، حتى أنها لم تسمع صوت إغلاق الباب خلفه، فقط سمعته يهمس بأذنها :

-كيف حالك يا "مريم"؟

- "فارس"!! لقد أرعبتني.

-آسف لم أقصد ذلك، ولكني دخلت، وانتظرت مطولاً، ولكن يبدو أن هناك أمرًا هامًّا يشغل بالك.

-آسفة يا "فارس"! لم ألحظ وجودك، فكثير من الأفكار تعصف برأسي.

-لعله خيرٌ يا "مريم"؟

-خيرٌ إن شاء اللّه، لا تقلق!.

-كيف صحتك اليوم؟

-أنا بخير الحمد للّه!! أفضل كثيرًا من أمس.

-الحمد للّه! سأتركك الآن فلدي بعض التصميمات عليّ الانتهاء منها اليوم، فقط جئت أطمئن عليكِ.

-حسنًا! تفضل يا "فارس".

انصرف "فارس" ناحية الباب، و ما إن أمسك بمقبضه، وأداره حتى نادته "مريم":

-"فارس"!!

-نعم!!

-أنا أشكر اللّه على وجودك بحياتي، أدامك اللّه بها.

انصرف "فارس"، ومازال الحاسوب مفتوحًا، ومازال كوب القهوة بيدها، ومازالت الأفكار تعبث رأسها، و لكن هناك شيئٌ جديد طرأ عليها؛ نبضةٌ جديدة أصابت قلبها، نبضةٌ لم تعهدّها منذ سنوات..

بعد أن شعرت للحظات ببعض السكينة، وبعد أن ابتسم قلبها ابتسامة صغيرة، ارتبك النبض مرة أخرى؛ لكن هذه المرة كانت النبضة سيئة؛ كالمهندس مختار، الذي دخل عليها غرفة المكتب دون استئذان، أو طرق على الباب، تمثل أمامها

obeikan.com

كشيطانٍ رجيمٍ يضحك ضحكة الانتصار، زادت حدة ضربات قلبها، وتعرق جبينها، ودبت الرعشة بأوصالها؛ كان يتمنى فقط أن تنظر له نظرة واحدة دون قسوة، لكنه شاهد نظراتها المرتعدة منه.

بارعة هي في تمثيل القوة، وادعاء الثبات أمام الذئاب الجائعة.

انتفضت من مكانها، ووضعت كوب القهوة من يدها، سحبت حقيبتها من على الطاولة المجاورة لمكتبها، وأخذت مفاتيح سيارتها ونظارتها الشمسية، وتوجهت صوّب الباب.

أغلق الباب من الداخل؛ ابتعدت عنه، فاقترب، تراجعت بخطوات بطيئة، ومازال هو يقترب، ظلت في تراجعها حتى اصطدمت بالمكتب، وكادت تسقط، ولكنها قد جلست فوق سطح المكتب؛ اقترب منها أكثر، وبحركة بطيئة بدأ باستنشاقها؛ بدأ يمرر وجهه بالقرب من جسدها، مُغمضًا عيناه، حاول الاقتراب أكثر، ولكنها استغلت اغلاقه لعينيه ودفعته أرضًا.

جرت ناحية الباب وفتحته وخرجت إلى الردهة، كان الجميع في تركيز موجهين كامل تركيزهم لحاسوباتهم، الكل منهمكٌ إلا "نسرين"؛ موظفة العلاقات العامة، كانت "نسرين" تحب التلصص على الآخرين، تُفضّل الانشغال بأحوال الناس عن الانشغال بأحوالها الخاصة؛ تنتقد الآخرين وتلوكُ عيوبهم، نهضت "نسرين" من مكانها فور أن لمحت "مريم" تخرج من مكتبها مسرعة، بعد أن دخل المهندس "مختار" بدقائق قليلة، وتحمل حقيبتها بيدها، جرت ناحيتها ونادت عليها:

-مريم!!.. مريم!!.

-نعم!!؟

-إلى أين تذهبين؟

-وهل هذا أمر يخصك؟

-لا أنا فقط أسأل، فقد رأيتك تخرجين مسرعة من مكتبك وتبدو على وجهك ملامح الغضب والقلق.

-أنا بخير!! فقط تذكرت أمرًا هامًّا.

-وأين المهندس "مختار"؟ ألم يدخل إلى مكتبك منذ دقائق؟ إنه لم يخـ.....

لم تكمل جملتها حتى فتح "مختار" باب المكتب، وخرج منه مندفعًا، وقد طغت على وجهه ملامح الغضب، وتملكته نظرات الشر، حتى تحولت عيناه إلى لون الدم، نطرتا له، ووجه هو نظره صوب "مريم" التي أشاحت بوجهها ناحية "نسرين" قائلة:

-بلِّغيهم أني في أجازة من الآن.

رَمَقَها "مختار" بنظرات حادة، ونادى عليها بصوت عالٍ، فالتفت الجميع إليهم:

-إلى أين يا بشمهندسة؟

-أنا في أجازة مفتوحة.

صمت مطبق كصمت القبور؛ الكل يترقب ردة الفعل على كلام "مريم"، الكل

obeikan.com

يعلم دنائة "مختار" وألاعيبه، ولكن لا أحد يستطيع التفوُّه بكلمة.

-ولكني لم أوافق على الأجازة، يا "مريم".

-وأنا مُصِرَّة عليها.

قالت جملتها وانصرفت، اصطدمت بالسيدة "ليندا" زوجة "مختار" وشريكته.

-كيف حالك يا "مريم"!!

-بخير سيدة "ليندا".

-هل لديك عمل بالخارج اليوم؟

-لا، أنا ذاهبة إلى المنزل.

-هل أنتِ بخير؟

-لا، أنا لست بخير، ولا أظن أنني سأكون بخير طالما أنا هنا.

-ماذا تقصدين؟

-فلتسألي المهندس "مختار"؛ أكيد عنده إجابة.

تهامس الجميع فيما بينهم، وبدأ كل شخص في القاعة يتحدث مع من بجواره:

-لابد أنها فتحت له مجالاً، فلتتحمل نتيجة أخطائها.

-لديك كل الحق؛ فلن يتجرأ على فعل ذلك إلا إذا رأى منها ما يشجعه.

-كلهنَّ كذلك، بارعاتٌ في خطف الأزواج.

-أكيد أنها تبحث عن زوج جديد، ولمّا رفض الزواج منها فضلت الابتعاد حتى لا يُفضح أمرها.

كانت جميع الأصوات تقّتات على سيرتها، إلا صوتًا واحدًا قاطعهم:

-كفاكم افتراء، كفاكم، أليس منكم رجل رشيد!!!

كان الصوت لـ "فارس" الذي خرج من مكتبة مصادفة، ولم يكن يعلم أن التهامس كله على "مريم" إلى أن قالت "نسرين":

-هل علمت ما حدث يا بشمهندس "فارس"؟

-وماذا حدث؟

-إنها "مريم".

-"مريم"؟؟! ماذا حدث لها؟ (بلهفة)

أخبرته كل شيء، وبكل كلمة كانت تقولها، يزداد حبه لـ "مريم" وكرهه لـ "مختار"، ولكل شيء يحول بينه وبين "مريم".

صاح "مختار" فعاد كل منهم إلى عمله؛ إلا "فارس" دخل إلى مكتبه ثم خرج مسرعًا،، وتوجه "مختار" إلى مكتبه مع "ليندا"، الغاضبة للغاية من كلمات "مريم"، فهي على علم بخيانة زوجها مع النساء؛ ولكن لم تكن تتوقع أن يصل به الأمر لمديرة إدارة التصميمات بالشركة؛ والتي يشهد لها الجميع بحسنها ورقتها واجتهادها في العمل.

لم يكن غضبها من مضايقة "مختار" لها خوفًا على مشاعرها، ولكن خوفًا على تركها العمل بالشركة؛ فلن تجد مديرة تصميمات بكفائتها واجتهادها، وقدرتها على إدارة المشروعات ببراعة واتقان.

-ألم تجد سوى "مريم"؟!

-"ليندا"! أرجوكِ! لا أريد الحديث عن هذا الأمر؟

-وعن ماذا تريد أن نتحدث إذا؟ عن "نسرين" مثلاً؟

-"نسرين"!!

-نعم!! "نسرين"!!، أتعتقد أني لست على علم بكل ما يجري هنا؟ أتعتقد بأني لا أعلم بعلاقتك بها؟

-"ليندا".. أنا..

-(قاطعته) لا تقل شيئًا؛ فقط أترك "مريم" وشأنها، فلن نجد مهندسة بكفائتها في العمل.

*****

في جراج الشركة، جلست "مريم" خلف مقود سيارتها، تبكي.. وتحتضن نفسها بذراعيها، كانت تشعر بخوف شديد، رهبة من كل شيء.

مرعبةٌ هي الوحدة، مرعبةٌ حد الوجع.

وقف بالقرب من السيارة ينظر إليها، ويتمزق داخله حزنًا عليها، يتمنى لو

obeikan.com

باستطاعته ضمها، لو كان فقط يستطيع عناقها!! يُريد أن يُشعرها بالآمان، وهل من مكان آمنٍ كحضن حبيب؟ لكنها لا تعتبره حبيبًا، هو لها صديق.

سقطت من عيني "فارس" دمعة رغمًا عنه، اقترب أكثر من سيارة "مريم"، ثم خبط على الزجاج برفق، حتى لا يُفزع "مريم" التي مازالت مُغمضة عينيها ودموعه تغرق وجهها وملابسها، وكأن احتضانها لنفسها يزيدها ألمًا ووجعًا.

فتحت عينيها ونظرت له برقة وفتحت الباب بسرعة، وترجلت من السيارة، واقتربت منه بشغف، وكادت ترتمي بحضنه، ولكنها تذكرت أنه "فارس" صديقها لا حبيبها، تذكرت ان لا أحد يسمح لها بأن تحب!!

اقتربت منه وهمست باسمه، وفقدت وعيها.

*****

obeikan.com

(١٠)

في مكتبها، الذي التحقت للعمل به كمهندسة بعد التخرج بأسابيع، رن هاتفها برقم غريب، لم ترد في المرة الأولى، ولكن في الثانية ردت:

-ألو!!

-كيف حالك يا "مريم"؟..

استطاعت تمييز صوته، لم تنسهُ ولن تنساه، وكيف تنسى صوت روحها!!

-"يامن"؟!!

-أجل يا "مريم"، كيف حالك، أريد الاطمئنان عليكِ!

-أنا بخير الحمد لله وأنت؟

-أنا مازلت على قيد الحياة..

-أدامك الله على قيدها، وكيف هي "يوسندا"؟

-أنا و"يوسندا" انفصلنا منذ فترة؟

-لماذا؟ ألم تكن تحبها وتحبك، ماذا حدث؟

قالتها "مريم" بنبرة تهكُّم مَشُوبة بقليل من السعادة.

obeikan.com

-حدث الكثير يا "مريم"، أنا فقط كنت أتصل الآن كي أطلب منك أمرًا هامًا.

-تفضل!.

-أريد منكِ أن تسامحيني..

-أسامحك؟!!

-نعم! سامحيني، لقد أخطأت بحقك وظلمتك.

-ظلمتني.. فقط!! أنت دمرتني، قتلت كل شيء جميل بداخلي.

-أنا آسف! أرجوكِ.. سامحيني..

-أسامحك؟!!

-أنتِ الآن تكرهيني، أليس كذلك؟

-من يحب لا يعرف للكره معنى..

-لا أعلم ماذا يمكنني أن أقول، أشعر كأني فقدت معاني الكلمات، والإحساس..

تمالكت "مريم" دموعها، حتى لا يلحظ أحد بكاءها، حاولت لملمة شتات قلبها، وبعثرة روحها.

-لا تقل شيئًا، فقبل كل شيء كنا أصدقاء، والآن أخبرني أتعمل أم مازلت تبحث عن عمل؟

-نعم أعمل بمكتب إخراج هندسي للطلبة، بالقرب من الكلية؛ كنت أستخدمه

لمساعدتي في مشروع التخرج، وأعمل به الآن.. وأنتِ؟

-أنا أعمل بشركة للديكور، بدأت العمل بها منذ أيام قليلة.

-جيد، وفقكِ الله يا "مريم" لكل الخير.

-آمين يارب، ولك مثله..

أنهيا المكالمة؛ وشعرت "مريم" بشعور غريب، لم تعتدْه، فهي لم تعد تشتاق "يامن"؛ بلى! لم تعد تشتاقه، أصبح حديثه معها حديث عابر مع زميل سابق بالدراسة، أيُعقل أن ينتهي حبه من قلبها بهذه السرعة!! أم أن الوجع الذي تسبب لها به قد جعل قلبها قويًا باردًا لا يشعر بشيء!!

تحدثت إلى نفسها قليلاً، ثم انتبهت إلى نظرات زملائها؛ فطردت كل شيء من رأسها وتابعت عملها. بضع أيام مرت، وبدأ بعض زملائها من الذكور ملاحظة خفة ظلها، ورقتها، وبراءتها، فأُعجِبَ بها بعضهم؛ فمنهم من أُعجب بشخصيتها، ومنهم من كان جسدها شغلهم الشاغل!!

حاول أحدهم الحديث إليها، ولكن الألم بقلبها المجروح من "يامن" وبعده "عادل" لم يشفى بعد، فقررت عدم خوض أي تجارب عاطفية في ذلك الوقت، أما والدها فقد كان مهتم جدًا بأمر زواجها؛ فتمر الأيام وهي لم تُخطب بعد أن انتهت قصتها مع "يامن"، ولأنها كبرت في السن من وجهة نظر والدها فكان يأتي لها كل أسبوع بخاطب..

كانت ترفض كل من يتقدم لخطبتها؛ ليس حبًا في "يامن"، ولا وفاءً لذكراه، إنما

obeikan.com

حدادًا على قلبها، وخوفًا عليه، واحترامًا لمن سيأتي بعده، كانت تريد أن تُحب بقلب مُعافى من الحب القديم..

ظلّت على موقفها، حتى تمت خطبتها لـ "عمر".. مخرج برامج في التليفزيون، كان يكبرها بأربعة عشر عامًا، لم تكن تعلم سنه الحقيقي حين قابلته، ووافقت على الخطبة..

في يوم شتوي بارد، دبَّر لها أهلها أول مقابلة بينهما في أحد النوادي الاجتماعية، حيث اعتادوا الذهاب أيام العطلات، لم تكن هي على علم بوجوده، كان أخًا لصديق والدها بالعمل؛ شاب أسمر وسيمٌ إلى حد ما، حين تراه تشعر وكأنك أمام شاب في منتصف العشرينات؛ بينما عمره الحقيقي أكبر من ذلك بكثير!!

جلست "مريم" وأسرتها مع صديق والدها وزوجته وابنهما الصغير، وأخيه عمر.. تجاذبا أطراف الحديث سويًّا؛ انبهرت به "مريم" وبكلماته المعسولة، وعقله الناضج المتفتّح، لم يكن رجعيًّا ولا يميل للمظاهر، شخصية رصينة عاقلة هادئة.

وفي المقابلة الثانية، نظر مباشرة إلى عينيها العميقتين، حينها شعرت وكأن زلزالاً ضرب كيانها حد الأعماق، فاستسلمت لنظراته، وسلّمت يدها له، وتمت الخطبة، فرحت "مريم" بها كثيرًا، ونفضت عنها كل أحزانها وأوجاعها، نفضت عنها كل ما يؤرقها، حتى أنها نفضت عنها "خالد"، لكن وكالعادة لم تستمر فرحتها كثيرًا، فبعد أن تمت الخطبة بدأت تتكشف لها بعض عيوب "عمر"، عيوب لا يمكن أن تتلاشاها أو تتغاضى عنها؛ فعمر كان ذو شخصية تميل كثيرًا

إلى البرود، لا يهتم، لا يسأل، لا يعتذر عن أخطائه، لا يغار عليها نهائيًا؛ فكان وعلى الرغم من جمالها الملفت لا ينتبه إلى معاكسات البعض لها، ويرى في غضبها من تلك المعاكسات أمرًا شاذًّا.

-أترى كيف ينظر إليّ!؟

قالتها "مريم" لـ "عمر" خلال حضورهما أحد الحفلات بدار الأوبرا المصرية.

-اتركيه ينظر، وهل بالنظرة شيء؟ أم أن نظرته هذه ستلتصق بجسدك!..

-ما هذا الهراء؟ هل هذا ما قدرت على فعله؟

-لا أعلم سر تضخيمك للأمور بهذا الشكل!! رجل ينظر لامرأة معجب بشكلها، ما المشكلة؟

-أنت لا ترى أي مشكلة بالأمر؟

-بالطبع! وأين المشكلة؟!!

-حسنًا!! هيا بنا، أريد الذهاب للمنزل، أشعر بتعب شديد..

-ولكننا لم نكمل نصف ساعة..

-عذرًا! رأسي تؤلمني جدًا، وأشعر بصداع رهيب، إن كنت تفضل البقاء فلتبقى.

-حسنًا كما تحبي، فلتذهبي..

-جيد! أنا ذاهبة الآن، مع السلامة..

obeikan.com

-تفضلي! وحين تصلي للمنزل ابعثي لي برسالة كي أطمئن عليكِ..

لم تنطق مريم، ولم تدرِ ماذا تفعل، نظرت له نظرة استحقار واشمئزاز، فكيف يكون هكذا؟!! كيف ستأمن على نفسها معه؟!!

عادت إلى المنزل ولم تتصل به، ولم يحاول هو الاتصال بها طوال عشرة أيام، كانت قد اتخذت قرارًا بإنهاء الخطوبة، ولكن مع ضغط والدها ووالدتها واعتذاره لها وإلحاح عائلته عليها بإتمام الزواج، وافقت أن تعطيه فرصة أخيرة يثبت فيها أنه جدير بها.. طلب منها مقابلته في أحد الأيام للذهاب لإحدى الحفلات، طلب منها انتظاره بأحد الميادين في السابعة والنصف مساءً، أنهت عملها وذهبت في الموعد، وانتظرت، ولكنه لم يأت، انتظرت وحاولت الاتصال به، ولكن هاتفه كان مغلقًا، اتصلت مرارًا وانتظرت أكثر من ساعة، وأخيرًا فاض بها وانطلقت إلى البيت غاضبة، انتظرت أسبوع حتى هاتفها، كانت تعتقد أنه سيعتذر، ولكن حدث ما لم تكن تتوقعه.

-أنا لم أحضر، وكان هاتفي مغلقًا، أما كان يجب أن تتصلي بي باليوم التالي لتطمئني عليّ؟ فلنفترض أنني كنت مريضًا أو حدث لي مكروهٌ!!

-والمفترض من يقوم بالاتصال؛ أنا!!، أنت من حددت الموعد والمكان، وأنا من وقفت بالشارع منتظرة أكثر من ساعة، وهاتفك كان مغلقًا، ولم تكلف خاطرًا بالاتصال للاعتذار، والآن تلومني!! عجيب أمرك!

-كان من المفترض أن تتصلي يا آنسة، لتطمئني عليّ، أنا لم أتصل وتركتك

لأرى رد فعلك على غيابي، كنت أظن أنك ستتلهَّفي عليّ، ولكن بعض الظن إثم.

-وهل أفهم من ذلك، أن كل ماحدث كان مجرد اختبار؟

-ولكنكِ فشلتِ فيه للأسف..

-نعم!! ماذا تقول؟؟

-أنا كنت انتظر ردة فعلك على الأمر، وكنت متوقعًا ردة فعل عكس ما بدر منكِ.

-وماذا كنت تتوقع؟

-كنت متوقع حضورك إلى منزلي لتطمئني عليّ، أو على الأقل اتصال منك باليوم التالي للاطمئنان.

-أنت معتوه؟؟ أي منزل هذا الذي كنت تتوقع حضوري إليه؟ وكيف؟

-منزلي.. كأي فتاة تحب خطيبها.

-أنت مجنون، أتدري؟؟

-ما الأمر؟

-أنا وأنت حكاية لن تكتمل، أنا لا أستطيع إكمال حياتي مع شخص معتوه، مجنون، أنا أعصابي لا تحتمل كل هذا الهراء..

قالت جملتها، وأغلقت الهاتف بوجهه، عازمة على إنهاء كل شيء..

باليوم التالي وبينما كانت بالعمل، جاءها أحد عمال النظافة بالشركة بهدية

obeikan.com

ملفوفة وباقة من الورد، تعجبت منه وسألته عمّن أرسلها..

-ما هذا؟؟

-هذه الهدية أحضرها رجل ما، وقال إنها لحضرتك يا بشمهندسة.

-أي رجل؟

-رجل يقول إنه خطيبك.

-وكيف هو شكله؟

-هو أسمر اللون، وبنفس طولك تقريبًا

-"عمر"!!

أخذت منه الهدية والباقة، وقرأت البطاقة الموجودة بداخل باقة الورد، فوجدت أنها بالفعل من "عمر" وقد كتب على البطاقة:

-حبيبتي وخطيبتي وزوجتي المستقبلية "مريم"...

أعتذر بشدة عما بدر مني، وأرجوا أن تغفري لي خطئي بحقك، وتسامحيني على هذا الاختبار الغبي الذي قمت به، فقط فرصة واحدة هي ما أريدها منكِ..

عمر...

أغلقت البطاقة، وفتحت الهدية، فوجدت دمية على شكل دب وردي اللون يحمل بيده قلبًا صغيرًا مكتوب عليه باللون الذهبي "إلى مريمتي"، ووجدت معه بعض قوالب الشيكولاتة..

obeikan.com

استطاع "عمر" أن يحوذ على عفوها، بهذه الهدية البسيطة، استطاع بحكمة أن يفهم ما يمكن أن يخطف لُب فتاة مثل "مريم".

قبلت بالهدية، واتصلت به لتشكره، فطلب منها الحضور إلى منزل أخيه لتناول طعام العشاء معهم بعد العمل، وأخبرها بأنه قد استأذن من والدها بخصوص هذا الأمر، فوافقت على الذهاب بعد أن تتأكد من موافقة والدها.

هاتفت والدها وتأكدت من موافقته، فأنهت عملها وتوجهت حيث منزل أخيه، الذي كان يسكن بنفس المنطقة الموجود بها شقة الزوجية الخاصة بهما، والتي كانت قيد التجهيز، وبها بعض الأثاث القليل الذي كانا قد اشتروه قبل أسابيع، فقد اقترب موعد زفافهما.

بعد أن وصلت، اتصلت به ليقابلها ليدلها على المنزل؛ فهي لم تذهب هناك سوى مرة واحدة، ولا تتذكر الطريق جيدًا، فقابلها وأخبرها بأنهما سيتوجها إلى منزل الزوجية الخاص بهما، حيث أن الجميع هناك يقومون بتوصيل بعض الأشياء التي كان يحتفظ بها بمنزل أخيه، وسيعودوا جميعًا إلى منزل الأخير لتناول العشاء بعد أن ينتهوا من كل شيء.

ذهبت معه.. وما أن وصلا حتى وجدت الصمت يلف المكان، لم يكن أحد هناك، سوى هي وهو و شهوته!!..

-أين الجميع؟

-يبدو أنهم قد ذهبوا، فقد تأخرنا عليهم.

-حسنًا! هيا بنا إلى منزل أخيك، فلننزل الآن.

-حسنًا! ولكن ليس قبل أن أصالحك، وأطلب منك العفو!

-وكيف تريد أن تصالحني؟

-فلتدخلي فقط، وسأفهمك كل شيء.

وما أن دلفت قدماها الشقة، حتى انقض عليها كذئب يحاول أن يلتهم فريسته، لم يحاول حتى تقبيلها قبلة رومانسية، ولا أن يعانقها عناقًا خفيفًا، فقد كان من الغباء أن سيطرت عليه شهوته، وهي كانت من الذكاء أن استطاعت السيطرة عليه!! وحين وجدت انقضاضه عليها سيفلح لا محالة، وأنها لن تستطيع مقاومته، بادرت بإظهار عدم المقاومة، وهمست له بصوت متهدج:

وهل مثل هذه الأشياء تحدث هكذا بلا مقدمات؟؟!!

-معكِ كل الحق حبيبتي..

ابتسمت له، ونفضت من داخلها الرعب، فليس هناك ما تفعله سوى ذلك الأمر.

-مُطيعة أنتِ، و أنا أحب السمراوات حين يكنَّ مُطيعات.

شبَّك أصابع يده بيدها، وبادر بتقبيلها، وتحسس بعض أجزاء جسدها، شعرت معها بغُصة في قلبها وحلقها، ولكنها حاولت السيطرة على الأمر خوفًا من أن يتمادى أكثر من ذلك، فطلبت منه الذهاب إلى دورة المياه للإغتسال، على أن يخلع هو ملابسه حتى تأتي إليه.

وافق على الفور، وتركها تذهب، وما أن خرجت من الغرفة، حتى أخذت حقيبتها وفتحت الباب، وهربت، ظلت تجري في الشارع، حتى استقلت "تاكسي" وعادت إلى بيتها.

لم تفعل شيئًا سوى الصمت، لم تسقط دمعة واحدة ولكنها كانت تبكي داخل قلبها، كانت مذعورة، مرتبكة، لم تعرف كيف جائتها تلك الفكرة للهرب منه، حمدت اللّه عليها، وأكملت بكائها في صمت.

وصلت منزلها وظلت تبكي، خافت أن تخبر والديها بما حدث؛ فلن يصدقاها، ظلت صامتة لعدة أيام، حتى وجدته يطرق الباب ذات يوم، مرتديًا زيًا رسميًا، ويحمل باقة من الورود، وصندوق حلويات، نظر لها وابتسم.

رحب به والدها، وأدخله المنزل، وحاول "عمر" الكلام مع "مريم" ولكنها رفضت، لم تخف منه كما كانت متوقعه، ولكنها كانت قوية، واجهته بكل حزم وقوة، كتلك القوة التي واجهت بها "يامن" من قبل.

وكأن "خالد" قد جاء ليساعدها مرة أخرى، طلب منها تغيير ملابسها، وارتداء زيٍّ يليق بحفل مسائي في الأوبرا، فرفضت، وطلبت منه المغادرة.

نظر لها والدها ذاهلاً:

-هل جننتِ؟

-كما ترى يا أبي، أنا أطرده، وألقي له بهداياه.

-لقد جننتِ..

-سأجن بالفعل أن بقيت مخطوبة لحيوان مثل هذا يومًا آخر.

ثم توجهت بحديثها الغاضب، ونظراتها المشتعلة إلى "عمر":

-وأنت لماذا تجلس هكذا؟ ولماذا جئت من الأصل، تفضل اخرج من منزلنا، لا أريد أن أراك مرة أخرى.

فرد والدها في ذهولٍ أكبر وغضب شديدٍ:

-"مريم"!!

-أرجوك يا أبي! أنت لا تفهم شيئًا، فقط أطلب منه أن يخرج من المنزل، إنه حيوان لا أكثر.

وجّهت الحديث إلى "عمر" مرة أخرى، ولكن هذه المرة بصرامة أكبر؛ صرامة جعلت "عمر" ينتفض من مكانه، ويتوجه مباشرة إلى باب المنزل حاملاً حذاءه الذي كان قد خلعه قبل دخوله، ونزل مهرولاً على السلم يرتدي حذاءه على عجل.

لم تتحدث إلى والدها، ولكنها توجهت مباشرة إلى غرفتها وأغلقت بابها بقوة، صُدم والداها، فلم تكن هذه "مريم" التي يعرفانها، ولم تكتشف هي نفسها تلك الأنثى بداخلها سوى مرة واحدة من قبل!!

*****

(١١)

في منزل قديم من طابقين؛ بكل طابق شقة صغيرة من غرفتين وصالة، يغلب عليه الطابع الشعبي البسيط، جلست "نهى" في شقة والدتها بالطابق الأول من المنزل تحضر طعام الغداء لأختها نهال وزوجها اللذان يسكنان الشقة الموجودة بالطابق الثاني مع ابنتهما "ترنيم"، بعد أن عاد زوجها من الخارج واستقر بمنزلهم، اللذي قررا البقاء فيه بعد سفر أخيها مع زوجته للخارج وبقاء "نهى" بمفردها.

في الصالة الكبيرة المغطاة حوائطها بصور العائلة القديمة، وبعض الآيات القرآنية، التي تخفي خلفها الصدوع الناتجة من الألم الكبير الذي حلَّ بهذا المنزل، جلست متربعة على مقعد شبه متهالك تظهر عليه تجاعيد الزمن، وأمامها وعاء الخضروات، وبينما هي منهمكة في تقطيع الخضروات جرحت السكين إصبعها فسال منه الدم، تركت السكين من يدها ورفعت يُسراها وظلت ناظرة إلى قطرات الدم المتساقطة مكونة بقعة صغيرة فوق مفرش المنضدة ذي النسيج المنقوش بمربعات صغيرة، والتي كانت تشبه تلك المنقوشة فوق غطاء السرير الصغير الموجود بغرفتها منذ نعومة اظافرها، والذي شاهد بقعة دم مشابهة لتلك البقعة.

obeikan.com

نزفت منها تلك البقعة منذ خمسة عشر عامًا؛ بعد حصولها على الشهادة الثانوية بعام واحد، وبعد التحاقها بالعام الأول بمعهد الخدمة الاجتماعية، لم تكن بقعة الدم القديمة نتيجة جرح بإصبعها؛ بل كانت نتيجة جرح ببرائتها، حين ذبحها "مصطفى"؛ بسكين تلمة تحت مسمى الحب!!

"نهى"؛ أيقونة الحب؛ تلكم الفتاة المنطلقة، المحبة لنفسها وشكلها، منذ أن باتت تتلمس تضاريسها الضاربة في الأنوثة والتي جعلت منها محط إعجاب جميع الشباب والرجال، نعم أيقونة فقد كانت "نهى" تحب كل من تقع عليه عيناها، وكأنها كانت تبحث عن مكمل لروحها و لذاتها، حصلت "نهى" على الشهادة الثانوية بمجموع قليل كاد أن يجعلها تتنحى عن فكرة التعليم والشهادة، ولكن حبها للحب جعلها تصر وتكمل تعليمها بمعهد الخدمة الاجتماعية علّها تجد هناك حبيبَ وزوج المستقبل.

كان هو الصائد الماهر، والأوسم والأغنى، كانت تعتقد بأنها أوقعته في شباكها، ولم تكن تدري أنها كانت هي السمكة وهو الصياد، جذب انتباهه روحها الخفيفة وجمالها الصارخ، والبارز إلى حد ملفت! كان زميلاً لها بالمعهد، ولكنه كان يكبرها بثلاثة أعوام على الرغم من كونه بالسنة الثانية فقط، لم يشغل كل هذا تفكيرها فقط انشغلت بملابسه وساعة يده، ورائحة عطره الفواحة، وسيارته الجديدة.

لم يكد يمر يومان على معرفتهما حتى صارا عشيقين، وأصبح كل شيء بينهما مباح؛ كزوجٍ صار بالنسبة لها، وكعاهرة كانت بالنسبة له، كانت سيارته حجرة

obeikan.com

نومهما، والمقعد الأمامي؛ والذي كان مسرحًا للمسات والهمسات والتأوهات؛ سريرهما، أما هو فكان غطاؤها، ، حتى بات يكررها كل ليلة.

وذات يوم، اشتهى مصطفى أكثر من مجرد تأوهاتها ودفئها، اشتهى ذلك اليوم حرارتها كاملة، كانا بالسيارة كعادتهما ولكن أصابهما الوله فقررا أن يحصلا على متعة أكبر، اقترح عليها الذهاب إلى منزل أحد أصدقائه، ولكنها خافت ورفضت، فغضب منها، وأظهر استيائه منها، وارتدى قناع العاشق المكسور من حبيبةٍ لا تثق به :

-تبًا لشهيتك تلك! ألا تهدأ أبدًا؟

-وكف تهدأ شهية عاشق يستمتع بدفء محبوبته؟

-انسيت أننا بالشارع، صحيح إنه مظلم، ولكن لا يمكنك فعل ذلك هنا..

-فلنذهب إلى منزل "مازن"، فأبويه مسافرين، ولن يرفض لي طلب.

-لا! لن أذهب إلى منزل أحد.

-أنتِ لا تثقي بي إذًا!!

-لا أثق بك؟ كل ما يحدث بيننا ولا أثق؟

-لقد قلتيها كل ما يحدث، وهل بعد ما يحدث بيننا شيئًا؟ فقط أريد الاستمتاع بك دون خوف من أي عابر، أريد أن أُذيقك العشق كاملاً دون إزعاج.

-ولكن..

obeikan.com

-أتثقي بي أم لا؟

-أثق طبعًا.

-حسنًا فلتثبتي ذلك، فلنذهب إلى منزل "مازن"، انا أريدك هذه الليلة كاملة لي.

-حسنًا !ما رأيك بأن نذهب إلى منزلنا؟

-منزلكم؟

-نعم! فأمي مسافرة مع أبي لحضور زفاف ابنة عمي ببلدتنا، وأختي بمنزلها مع زوجها، وانا سأنام وحدي هذه الليلة.

-وماذا عن أخيك الصغير؟

-سافر معهما.

-ملعونة أنتِ، هيا بنا.

*****

جفت بقعة الدم فوق غطاء السرير، وكذلك تلك البقعة الجديدة فوق مفرش المنضدة، أما عن روحها فأصبحت أيضًا جافة، خاوية، و هشة تمامًا.

ملوثة هي؛ أبالعشق، أم هو من لوثها ولوث العشق، لم تعد تذكر، كل ما تذكره الآن وفاة أمها من صدمتها، حين علمت بأمر حملها دون أن تتزوج، وإصابة أبيها بالجلطة الدماغية على إثر ماحدث لأمها ثم لحاقه بها بعد أقل من شهر.

obeikan.com

لم يبق لها حينها سوى بقعة الدم الجافة، والحسرة، والندم، وطفلة صغيرة تسبح برحِمَها، وبعض فُتات من أنوثتها المهترئة.

*****

obeikan.com

(١٢)

بوجهٍ عابسٍ قابل "ياسين" مديرة المدرسة التي عنفّته، وطلبت منه الجلوس بغرفتها لحين حضور ولي أمره، بعد أن قام بضرب زميل له بالفصل وحطم له نظارته الطبية.

لم تتمكن "مريم" من الحضور، فهي مُمددة على سريرها الطبي في المستشفى والتي دخلتها بعدما أصيبت بالانهيار؛ فقد أصبح جبل حياتها على وشك السقوط، ولكن مازال هناك يدان تسندانه، يد "ياسين" و يد "فارس" ويد ثالثة تحاول المساعدة ولكن "مريم" ترفضها، فهي لا تريد مساعدتها مرة أخرى!!

ذهب "فارس" إلى مدرسة "ياسين" بطلب من "مريم"، وما أن رآه "ياسين" حتى جرى ناحيته وارتمى بين ذراعيه، وأخذ يبكي ويهمهم بكلام غير مفهوم، احتضنه "فارس" بحنان، ثم مال ناحيته، وتحدث إليه كأب يتحدث إلى صغيره :

-ما بك؟، لماذا تبكي، وماذا حدث؟

-لقد أهانني يا "فارس"، لم أتمالك نفسي حين سبَّ أمي..

-اهدأ يا صغيري، سأحاول أن أفهم من المديرة.

أمسك "فارس" بيد "ياسين" المبللة بالدموع، وقدم نفسه إلى مديرة المدرسة:

obeikan.com

-"فارس أبو المجد"، مهندس مدني.

-أهلاً بحضرتك، وهل أنت والد "ياسين"؟

-أنا صديق للعائلة، ووالدته هي ولي أمره، ولكنها مريضة بالمستشفى، ولا يمكنها الحضور، أنا هنا بالنيابة عنها.

-تفضل بالجلوس.

-أشكرك.

جلس "فارس" على المقعد المقابل لمكتب المديرة وأجلس "ياسين" على طرف ركبته اليمنى وأحاطه بذراعه، ووجه نظره إلى المديرة قائلاً:

-ماذا حدث يا سيدتي؟ "ياسين" ولد مطيع ومؤدب.

-ماحدث لا يمكن السكوت عنه يا سيدي، فقد ضرب "ياسين" زميل له بالفصل، وحطم له نظارته الطبية، لقد أظهر عنفًا شديدًا تجاه الآخرين، أعتقد أنه بحاجة إلى طبيب نفسي؟

-طبيب نفسي؟ وكيف يمكنك قول ذلك أمام طفل صغير؟

قالها "فارس" بغضب شديد، وانتفض من مكانه، وطلب من "ياسين" انتظاره بالسيارة، لحين الانتهاء من الحديث من المديرة، فحمل "ياسين" حقيبته الصغيرة، وتوجه إلى سيارة "فارس" وفتحها وجلس بداخلها وأغلق من الداخل كما عودته أمه.

أكمل "فارس" حديثه الغاضب مع مديرة المدرسة التي شعرت بالاحراج الشديد حين صاح بها "فارس":

-الآن يمكننا الحديث سيدتي، ولكن بالبداية يجب أن تفرقي بين الأحاديث التي يمكن تناولها أمام الأطفال وغيرها، ألا تعلمي أن مجرد مثل هذه الجملة يكون لها تأثيرٌ كبيرٌ على نفسيته وسلوكه؟؟

-أعتذر منك سيد "فارس"، ولكن تصرفه كان أحمقًا وعدائيًّا إلى حد كبير، ولم أصادف مثله في المدرسة منذ زمن.

-هذا لأنكِ لم تتعاملي مع طفل كـ "ياسين" من قبل، لم تتعاملي مع كتلة من المشاعر الراقية.

-مشاعر راقية!! أي مشاعر راقية تلك التي تدفعه إلى ضرب زميله، وتحطيم نظارته الطبية؟

-مشاعره تجاه أمه وولي أمره وكل حياته، ألم تسألي عن الفعل الذي أدى إلى ذلك الرد من الفعل؟؟

-سألته ولكنه لم يجِب، فقط التزم الصمت.

-هل كررتِ عليه السؤال؟

-لا..

-إذا سآتي به، ونسأله مرة أخرى في حضوري، وحضور زميله الذي اعتدى عليه.

-حسنًا! فلتأت به ريثما أستدعي زميله.

توجه "فارس" إلى السيارة وأحضر "ياسين" الذي احمرَّت عيناه كالجمر، ووجه المنتفخ أضحى كوجه كهلٍ تخطى السبعين.

دخلا إلى غرفة المديرة، وما أن لمح الصغير وجه زميله حتى اشتاط غضبًا مرة أخرى، وأمسك يد "فارس" بقوة، وكأنه يستمد منه الصبر والقوة.

وجهت المديرة كلامها إلى الطفل الآخر وسألته:

-أخبرني يا "ياسر" ماذا حدث من "ياسين"؟

-لقد صفعني على وجهي وحطم لي نظارتي الطبية.

ربَّت "فارس" على رأس "ياسين"، ووجه كلامه إلى الطفل مرة أخرى:

-وماذا فعلت أنت له كي يصفعك أيها الصغير؟

-لم أفعل له شيئًا، لقد كنا نلعب سويًا ونتحدث حول الأشياء التي أحضرها لي أبي ثم صفعني دون أن أفعل له شيئًا..

هنا صرخ "ياسين" بغضب:

-كاذب..

طلب "فارس" منه الهدوء، وسرد ما حدث من "ياسر".

تمالك "ياسين" نفسه، وشرع في الحديث كرجل بالغ يدافع بكل قوته عن نفسه وعن أمه:

obeikan.com

-كنا نلعب، ونتحدث عن ألعابه التي يحضرها له أباه، ثم سألني عما يحضره لي أبي، فأخبرته أنني ليس لديّ أب، وأنني أعيش مع أمي، وهي من تحضر لي كل شيئ، وهي من تلهو وتلعب معي، فضحك قائلاً وكيف تكون أمًا دون زوج؟

لقد سمعت أمي تتحدث إلى أبي عن جارة لنا لديها طفل، وهي غير متزوجة وقالت عنها عاهرة، وقد شاهدت ذلك المسلسل أيضًا والذي كانت فيه إحدى السيدات أُمًا دون زوج، وحين سألت أبي عن الأمر قال لي إن العاهرات فقط هنَّ من يُنجبّن دون أن يكون لهن أزواج، فقلت له ولكن لدي أب.

فقال وهل تعرف أين هو؟ فقلت إنه يعيش بعيدًا عنّا، فرد قائلاً إني أكذب وأن لابد وأن أمي مثل جارتهم العاهرة.

فلم أتمالك نفسي إلا وأنا أصفعه دفاعًا عن أمي، فسقطت نظاراته أرضًا فحطمتها بقدمي، بدلاً من أن أحطم له رأسه.

ساد الصمت الغرفة، وطأطأ "ياسر" رأسه خجلاً بعد أن رمقته المديرة بنظرة عنيفة، أما "ياسين" فقد تساقطت دموعه مرة أخرى وهو يقول:

- أنا أحب أمي، وهي لا تستحق ذلك.

اعتذرت المديرة لـ "فارس" وقبَّلت رأس "ياسين" وطلبت منه ألا يفعل ذلك مرة أخرى، وأن يخبرها بأي شيء يحدث معه، وأن يعتبرها جدته، فأمه؛ تلك العظيمة التي استطاعت أن تجعل من طفل صغير مثله رجلاً يحميها ويدافع عنها في غيابها.

هنا لم يتمالك "فارس" نفسه، وقد وجد نفسه يجلس على ركبتيه، ويحتضن "ياسين" بقوة، قوة جعلت "ياسين" يشعر بالدفء الأبوي لأول مرة منذ سنوات عانى خلالها بصقيع اليتم.

obeikan.com

(١٣)

بعد شهرين من إنهاء خطبتها لـ "عمر"، طاردها خلالهما كثيرًا ولم ييأس، رنَّ هاتفها، وكانت تتوقع أنه هو "عمر"، ولكن هذه المرة لم يكن المتصل "عمر"، كان المتصل "يامن"!!

نعم "يامن" قد عاود الاتصال بها، بعد مدة قاربت العام دون اتصال، ولكن لمَ يتصل "يامن" هذه الأيام، وماذا يريد منها!!

لم تعلم السبب، ولكنهما اتفقا على أن يتقابلا يوم الخميس السابعة مساءً بنادي المهندسين على كورنيش النيل، و"مريم" تحب يوم الخميس، وقد كان الجو ربيعيًّا خلابًا على الرغم من الليل الذي انتشر بالأفق، إلا أن سحرًا غريبًا طغى على هذه الليلة، لم يُدركه أحد..

انتهت من عملها وقد ارتدت بنطالاً بلون البنفسج، معه قميصًا من اللون الأصفر الهاديء، وقد رفعت غُرتها الطويلة بتوكة صغيرة على شكل (فيونكة)، كانت تشع بهجة وجمالاً، وكأن شيئًا ضائعًا رُد لها!

دقت الساعة السابعة، ورن معها هاتفها :

-ألو!

-"مريم"! مساء الخير!

obeikan.com

-مساء النور يا "يامن".

-وصلتِ؟.

-أنا عند باب النادي، دقائق وسأكون أمامك.

-حسنًا، ستجديني على الطاولة الأخيرة إلى اليمين، والمطلة على النيل مباشرة.

-حسنًا، أنا أراك الآن..

اقتربت منه بخطى واثقة، والابتسامة تعلو وجهها، وشعرها الأسود يتطاير خلفها مع نسمات الهواء الرقيقة، كما هي..

قام من مكانه، ونظر لها باستغراب، فلم تكن هي "مريم" التي اعتاد رؤيتها، ولم تكن هي التي رآها آخر مرة بالكلية؛ فقدت جزءًا من وزنها، وأصبحت أجمل!!

أما هي وخلال تلك الخطوات البسيطة، دار أمامها شريطٌ سينمائي عن المقابلة التي كانت في المول التجاري؛ حينما لم يشعر بها حتى وصلت إليه وجلست بجواره، شتان ما بين هذه النظرة التي يرمُقها بها الآن، وبين تجاهله لها في المرة السابقة!!

مد يده ليصافحها، فمدت يدها وكأنها المرة الأولى التي يتصافحان فيها، وكأنما لم يلمس يدها من قبل!!

جلست "مريم" على المقعد المقابل له، وقد نظر كلاهما ناحية النيل، وكأنما يتحاشيان النظر إلى بعضهما، بدءًا في اختلاس بعض نظرات الحنين لبعضهما

obeikan.com

البعض، وتحاشيَا أن تتلاقى عيناهما صدفةً..

بضع دقائق مرت من الصمت والنظرات غير المتبادلة، حتى بادر "يامن" بالحديث:

-كيف حالك يا "مريم"؟؟

- أنا بخير الحمد لله، وأنت كيف حالك؟

-على قيد الحياة.. وكيف هو عملك؟

-بخير حال! كل شيء على ما يرام، وأنت كيف عملك؟ أما زلت تعمل بنفس المكتب؟

-نعم! وتستطيعين القول أنني أصبحت شريكًا به..

-أمر جيد! وفقك الله!

حل صمت آخر، وكأن الكلام انتهى، وكأنهما أنهيا كل الأحاديث المقدرة لهما من الله، ولم يكن هناك سوى ذلك الحديث القصير هو كل المتبقي لهما!! وكان شيءٌ يُلح على مريم بأنه لابد من وجود خطْب ما وراء هذه المقابلة، ولم يخطر على بالها السبب الحقيقي..

بدأت بالحديث علّها تتخلص من التوتر المسيطر عليها، حتى يهدأ خفقان قلبها قليلاً:

-فلتخبرني إذًا يا "يامن"، لمَ طلبت لقائي؟

obeikan.com

بابتسامة يغمرها الحنين، وبوجه غريقٍ عثر للتوّ على جذع شجرة داخل بحر هائج رد عليها:

-ها.. أنا.. نعم، لقد نسيت الأمر بعد أن رأيتك، أتصدقي ذلك؟

ضحكت ضحكة عالية، وكأنها كانت تكتمها منذ زمن، وردت عليه بعين شبه مغلقة من كثرة الضحك:

-ومن يأسر عقلك يا عزيزي!!

-أتعلمي يا "مريم"! اشتقتُ جدًا لأن نعود أصدقاء كما كنا؛ كنتِ كاتمة أسراري، لم أكن أقتنع برأي أحد غيرك، ولم أعطِ الأمان لأحد غيرك، لقد اشتقت تلك الأيام يا "مريم".

-ونحن مازلنا أصدقاء يا "يامن"، فلتخبرني بما يزعجك، أنا أسمعك.

فرحت "مريم" قليلاً لكلام "يامن"، واعتبرته بداية لعودة ماكان بينهما من عشق، ولكنها لم تكن تدري أن كلامه مجرد عودة لما قبل أن يعترف لها بأي شيء من الحب..

-حسنًا سيدتي، أنا تقريبًا وعلى ما يبدو أحب..

-تحب!!

وقعت هذه الكلمة على سمعها كدويٍّ رعدٍ، اخترق ما بقي من قلبها، فها هو "يامن" يحب مرة أخرى، وهي التي لازالت على العهد، لا تستطيع أن تحب!

obeikan.com

-نعم أحب، فتاة تُشبهك كثيرًا.

-تشبهني أنا؟

-نعم تُشبهك جدًا، إسمها "شيماء"..

-جميل، وأين قابلتها؟؟ وتعرفت عليها؟؟

-هي طالبة بالسنة النهائية بقسم الزخرفة هذا العام، تأتي إليّ في المكتب لمساعدتها في مشروع التخرج.

تمالكت دموعها..

لا تذرفي..

عودي يا لآلئي

لا تسقطي..

فالصمتُ أقوى من دموع تسقط

لا تضعفي..

لا تحزني..

لا تيأسي..

فكم من قلبٍ هواكِ وكان بكِ متيم

لن تقف الدنيا عند أعتاب هواه

obeikan.com

عودي يا لآلئي

-حسنًا، وما المشكلة؟..

-المشكلة أني خائف أن يكون حبي لها ليس حبًا، وإنما لكونها تشبهك، بالطبع أقصد تشبهك قبل أن تصبحي بهذا الجمال؛ تشبه "مريم" القديمة.

-حسنًا وهل أتيت بي اليوم لترى إن كانت فعلاً تُشبهني أم لا، مازلت لا أفهم سبب لقائنا اليوم!!

-ولا أنا، صدقيني يا "مريم" أنا لم أعد أفهم شيئًا مما يحدث.

-"يامن"..

-نعم!!!

-فلتُنه هذا السخف، ولتخبرني ماذا تريد مني بالضبط؟

-لا أعلم، ربما كنت أشتاقك، وربما كنت أريد التأكد من أني أحبها لأني أحبها هي و ليس لأنها تشبهك، أفهمتِ؟؟

-بالطبع فهمت، أنت جئت بي إلى هنا لتختبر مشاعرك لا أكثر، أليس كذلك!!

أإلى هذه الدرجة من اللا إنسانية وصلت؟؟!!

-.........

obeikan.com

-ولمَ الصمت !! أمازال لديك بعض الشعور.. أتعلم يا "يامن"؟ طوال عمري لم أندم على شيء فعلته مثل اليوم؛ أنا فعلاً نادمة، نادمة أني جئت اليوم ولبَّيت دعوتك، نادمة أكثر أني تخيلت أنك عدت رجلاَ يشعر بالآخرين، ولا يجرح مشاعرهم، نادمة أني تمنيت أن تكون "يامن" الذي أحببته منذ سنوات، يا للخسارة!! تبًا لخيالي وألف تبٍّ لإحساسي.

أمسكت بحقيبتها وتركته، وهنا انتهى "يامن" تمامًا من حياة "مريم"، شفيت منه ومن حبه، ومن البقايا القليلة التي كانت مازالت عالقة بذاكرتها عنه، نفضت غباره عنها وتبسّمت...

لم يزد حداد قلبها على "يامن" عن يومين، نعم أعلن قلبها الحداد، فلابد له من وقفة صغيرة، ليتخلص منه نهائيًا، وليقتنع تمامًا بأن زمانه قد ولّى، وبأنه أبدًا لن تعود دقاته تنبض بحروف اسمه مرة أخرى.. لعلّ الحداد لم يكن على "يامن" كشخص، بل كان عليه كحب، على أيام ضاعت هباءً ودموع ذُرفت لأجل من لا يستحق.

كل شخصٍ يمر بحياتك هو فصل جديد من فصول رواية أنت بطلها.

*****

(١٣)

بعد ليلتين قضتهما بالمستشفى تحت الرعاية الطبية والنفسية، عادت إلى منزلها، بزيها المنزلي ذي اللون الوردي، رفعت شعرها وثبتته بإحدى فرش التلوين المتناثرة بمنزلها، دلفت إلى غرفتها الدافئة، وبالقرب من نافذتها المطلة على الحديقة، جلست على مقعدها المفضل ذي الظهر العالي والمساند الضخمة، فهو بالنسبة لها الحضن الذي تأوي إليه بعد عناء يومها.

جلست "مريم" تراقب النجوم التي بدأت في نسج قبة متلألئة في السماء بعد نهار رمادي أخفاها عن الأعين المتلهفة لها، جلست وقد أمسكت بين يديها مفكرة قديمة؛ كانت تدوِّن فيها بعض الأحداث الهامة، جلست تحتسي فنجان الشوكولاتة الساخنة، والذي أعدته لنفسها بعد أن دثَّرت "ياسين" بسريرة جيدًا، فالليلة باردة برودة تلفح الوجوه.

شعرت بحنين للماضي فبدأت بتقليب الصفحات القديمة بمفكرتها، مع كل صفحة كانت تبتسم، ومع كل صفحة تليها كانت الابتسامة تعدو انكسارًا، وكأن كل صفحة قطعة من الزجاج المكسور كلما مرت على إحداها جرحت جزءًا من قدمها، حتى وصلت إلى الصفحة المعنونة بتاريخ السابع عشر من فبراير ٢٠٠١.

كان اليوم الذي سافر فيه "حسن" للخارج، وانقطعت أخباره، شعرت بالحنين

إليه ولكنه الآن قد ذهب لعالم آخر غير عالمها، ذهب إلى عالم أنقى وأطهر، خالٍ من الأحقاد والأعين المتربصة والقلوب السوداء؛ فقد ارتقى "حسن" إلى السماء، ذهب وبقيت روحه تعانق المتبقي من روحها بعده، صفعها الحنين صفعة أقوى، فتذكرت "ندى" علها تجد عندها ما يشفيها من تلك الصفعة، أو ربما زادت الصفعة إلى طعنة وانتهت، استخرجت رقم منزل والدتها واتصلت بها:

-ألو!!..

-ألو!! السلام عليكم!!

-وعليكم السلام، من معي؟

-أنا مريم، هل يمكنني التحدث إلى "ندى"؟

- "مريم" مين؟

- أنا صديقتها وجارتها مذ كنا صغارًا.

-ااه، أنتِ من قابلناها بالمطعم؟؟

-نعم، أنا هي أستاذ "حازم".

-كيف حالك مريومة؟

-إسمي "مريم"، ولستُ مريومة، هل يمكن أن تنادي "ندى" من فضلك؟

-ولمَ العجلة؟ فلنتحدث قليلاً ريثما تنتهي من تنظيف المطبخ.

obeikan.com

-حسنًا، إن كانت مشغولة سأعاود الاتصال بها بعد قليل.

لم يعد في حياة "ندى" سوى المنزل والأطفال، والشجار مع زوجها، والبكاء على ما وصلت إليه حياتها، أو بالأحرى مالم تصل إليه.

-مهلاً مهلاً! سأنادي عليها.

-حسنًا..

-عصبية أنتِ!! ولكن جميلة...

صمتت "مريم"، أما هو فنادى على "ندى" التي أتت مهرولة، بجلبابها الأحمر المنزلي ذي الورود الخضراء، وربطة شعرها التي تخفي ما اعتاد التهدّل برقة خلف خصرها، بينما اليوم هو مجرد كعكة دائرية مغطاة بقطعة من القماش الباهت. أمسكت "ندى" الهاتف بعد أن مسحت يديها المبللة في جانب الجلباب بحركة عفوية تقليدية كانت تقوم بها أمها رحمها الله.

-ألو!!..

-كيف حالك "ندى"؟

-أنا بخير يا "مريم"، وأنتِ كيف حالك؟

-أنا بخير الحمد لله، كيف أولادك؟

-جميعهم بخير الحمد لله.

استطردتا بالكلام؛ بينما جلس "حازم" على الأريكة المجاورة يشاهد التلفاز

obeikan.com

ويسترق السمع على المكالمة علّه يجد منها ريحًا من خمر "مريم" فيذوب به ويسكر على تموجات صوتها. بعد انتهاء المكالمة ذهبت "ندى" لتكمل ما كانت تفعله بالمطبخ، بينما تركت "حازم" شارد الذهن يتخيل كيف هي تلك الـ "مريم" وماذا تفعل في ذلك الوقت من الليل..

واسع الأفق هو حين يتعلق الأمر بالنساء، يُحب أن يسكر بخمرهن، حتى وإن كان الخمر من النوع المغشوش، يُحب التهامَهُنَّ حتى وإن كنَّ لحم طيرٍ مخنوق. أما "مريم" فقد أكملت التقليب في مفكرتها، وتتوارد على رأسها الأفكار، حتى لمعت نجمة في الفضاء البعيد، بشكل ملفت، خطفت انتباهها، الذي لم يستمر طويلاً، فلم يمر القليل من الوقت حتى أضاء أحدهم ضوءًا خلف النافذة المقابلة لمنزلها.

-يا إلهي! كدت أنسى أن هناك سكان جدد بالمنزل، وأني لن أكون على حريتي كما اعتدت.

أسدلت ستائر نافذتها، بعد أن رأت أحدهم يفتح ستارة نافذته هناك محاولاً استراق النظر إليها!!!

"إنهم مزعجون حقًا.."

حدثت بها نفسها، وهي تغلق الضوء الخافت بالمصباح الصغير المجاور لها فأظلمت الغرفة إلا من ضوء شاشة هاتفها التي أضاءتها لاستعراض بعض الصور لها مع "ياسين" و"فارس".

"تبدو عليك السعادة يا صغيري، وأيضًا "فارس" سعيدٌ للغاية"

نظرت لهما كأب وإبنه، فترقرقت دمعة حبيسة داخل عينيها، منع سقوطها رنين هاتفها الذي أيقظها من حلمها:

-ألو..

-مساء الخير!، كيف حالك يا "مريم"؟

-مهندس "مختار"؟

-نعم يا حلوة، "مختار" الذي يهيم بكِ، أتدفعينني يا "مريم" بهذا الشكل؟ ولكن لا بأس سأصل لكِ مهما كلفني الأمر..

شعرت "مريم" بالذعر، وأغلقت الهاتف بوجهه، ارتعدت أوصالها، وبدأ الدوار يضرب برأسها من شدة الخوف.

"هل وصل الأمر به إلى التهديد؟ يا الله ماذا أفعل؟!!"

مفتقدةٌ هي للأمان، لكنها وحيدة كيف ستجده، وأين ستجده؟ وهل من رجل يُؤتمن بعد ما حدث لها من كل من دخل بحياتها!!! لملمت شتات نفسها، وما تبقى من قوتها وتوجهت إلى فراشها، تدثَّرت وأمسكت بالهاتف وبحثت عن رقمه ثم همَّت بالضغط على زر الاتصال؛ لكنها تراجعت عن الفكرة؛ كيف تتصل به في مثل هذا التوقيت!! ولكنها بحاجة إليه، إلى صوته، إلى دفء أنفاسه التي شعرت بها حين قبَّل جبهتها وهي مستلقية على فراشها في المستشفى حين ظنَّها نائمة.

obeikan.com

"لا! لن أتصل به الآن"

أغلقت الهاتف وغاصت في سريرها...

*****

obeikan.com

(١٤)

بعد يوم طويل ومرهق، وبينما كانت تنزل درجات سلم عملها مع صديقة لها انزلقت قدمها، فعانق ظهرها درجات السلم، والتوت قدمها.

صرخت من شدة الألم، فساعدها أصدقاؤها على النهوض، وعرض زميلها "أحمد" عليها أن يقوم بتوصيلها للمنزل بسيارته، فوافقت على أن تقوم بالاتصال بوالدها أولاً لينتظرها على ناصية الشارع فيدخل معهما. ساعدتها إحدى صديقاتها على الصعود إلى السيارة، وثبَّتت لها حزام الأمان، وفي الطريق استغل "أحمد" فرصة تواجدها معه بمفردهما للمرة الأولى، وصارحها بحبه لها، وبرغبته في الارتباط بها، لكنها طلبت منه تأجيل الحديث لوقت لاحق، فقلبها غير مستعد لارتباط وحب جديدين.

تفهم "أحمد" شعورها، والتزم الصمت حتى وصل بها إلى ناصية شارعها، والذي كان والدها في انتظارهما على ناصيته، أخذاها إلى الطبيب وتبيَّنت إصابتها بجَذْع شديدٍ بالقدم اليمنى، مما يحتاج لتجبيرها لمدة أسبوع. التزمت "مريم" المنزل طوال أسبوع لم يتوقف فيه هاتفها عن الرنين من أصدقائها وصديقاتها وخاصة "أحمد" الذي كان يتصل بها أكثر من مرة باليوم.

شعرت "مريم" بحب "أحمد" لها، كادت تبادله الشعور، لكنها استفاقت على

ذكرياتها مع "يامن"، فكيف ستحب مرة أخرى! مازال قلبها ينزف ولم يلتئم جرحه بعد، فسيطرت على مشاعرها وأوقفتها عند الحد الذي يسمح بالصداقة.

انتهى الأسبوع وعادت "مريم" إلى العمل، مر يومان ولم ييأس أحمد من محاولاته معها، ولكنها ظلت صامدة على موقفها، حتى جاء اليوم الذي خارت فيه قواها أمام كلماته المعسولة فقررت أن تبادله الشعور، فقد اشتاقت تلك المشاعر، اشتاقت تلك الكلمات، اشتاقت تلك اللمسات الحانية التي تُربِّت على قلبها. وذات انغماسٍ في العمل؛ رن هاتفها، وكان المتصل هو والدها، فور رؤيتها رقم والدها دارت برأسها العديد من التوقعات، وردت:

-ألو!!

-مريم! كيف حالك ابنتي.

-بخير يا بابا ما الأمر؟ أحدث مكروه لأحد؟؟

-لا! كل شيئ على ما يرام..

-إذًا ما الأمر؟

-لقد أتاكِ عريس..

ذهلت "مريم" من كلمات والدها!!! أي عريس هذا الذي يستدعي عدم الانتظار لحين عودتها للمنزل، أسُوبر مان هو؟؟ أم وكيل وزارة، أو مَن؟؟!!

قصت "مريم" الخبر على صديقاتها وأصدقائها، فقابل الجميع الأمر

obeikan.com

بالضحكات والنكات إلا "أحمد"..

عادت "مريم" إلى منزلها، فقابلها والدها بابتسامة خفيفة، كان الأمر بالنسبة لها مجرد دعابة، ستجرب الأمر ولمَ لا؟ ولكن مهلاً:

-هل المقابلة اليوم؟؟

-نعم اليوم بعد ساعتين..

-أمي، ألم يكن في مقدوركم إخباري بالأمر أولاً؟؟

-لقد حددنا الميعاد، ويجب أن تريه، سيأتي مع صديقه، وأنتِ جهزي نفسك..

-يا الله!! ولم العجلة؟ لن يخطفني جني، ولن أتوه منكم، لماذا اليوم؟

-هو اليوم واتفقنا، لا مزيد من النقاش..

انقباضة مؤلمة دبَّت بصدر مريم، لم تعلم مصدرها أو سببها، لكن فجأة رن هاتفها.

"أوووف، إتصال الآن، ليس وقت اتصالات نهائيًّا!!"

قالتها "مريم" بتأفف وهي أمام مرآتها تجهز نفسها لمقابلة العريس، وكأن الهاتف قد زادها همًّا فوق همها، " يا ترى من المتصل؟ لن أرد، فلنرى أولاً ما سيحدث مع هذا المدعو (عريس). لم يقتنع الهاتف بكلامها، فكأنه انضم إلى جميعهم في اتفاق أن يعكروا مزاجها ويؤرقوها!! فاستمر في الرنين، ومع كل رنة كانت تفقد جزءًا من أعصابها، متوترة جدًا هي... ردَّت بعصبية.

obeikan.com

-ألو!!

كادت تفتك بالهاتف حين سمعت صوته على الطرف الآخر :

-"مريم".

-"أحمد" ماذا تريد الآن؟ من فضلك أنا مشغولة جدًا.

-آسف إن قاطعتك عن شيءٍ هام، ولكني أردت فقط الاطمئنان عليكِ.

-أنا بخير، طالما لا أتحدث في الهاتف.

-آسف مرة أخرى، مع السلامة.

أغلق الهاتف بكسرة، صمتت هي قليلاً بعدها.

"سيئة جدًا أنا.."

حدثت بها نفسها، وهي تلقي بالهاتف على السرير، وتكمل ما بدأت به أمام المرآة، بدأت برسم ذلك الخط الأسود الرفيع فوق جفنها؛ فوضعتها في إطار مُنمَّق ثم ألبست رموشها زيًّا أسود فأصبحت العين شبه مثالية لم ينتقص من مثاليتها سوى ذلك الحزن القابع في أعماقها، والتي لم تعد تعرف سببه.

رن جرس الباب، فازدادت معه ضربات قلبها، فما هي سوى بضع دقائق مرّت كساعات، فعلى الرغم من استيائها من تلك الطريقة إلا أنها كانت متشوقة لرؤية ذلك السوبر مان الذي فتح له أبيها الباب لتراه بنفس يوم مكالمته وطلبه مقابلتها.

obeikan.com

خرجت عليهم مرتدية تنورة بلون الفراولة، وقميصًا باللون الأبيض، يتوسطه حزامًا رفيعًا ذهبي اللون، أما شعرها فكان مرفوعا لأعلى كذيل الحصان، بدا على طلتها القوة والحسن.

ابتسمت للجلوس، وسلمت عليهم، ثم جلست على المقعد القريب من باب غرفة الصالون؛ حيث جلس الجميع يتحدثون عن مباراة كرة قدم!! إلا هو ظل صامتًا لا يتحدث معهم، لم تكن قد دققت بملامحه جيدًا، كان طويلاً إلى الحد الذي شعرت معه بقصرها على الرغم من طولها الملحوظ، شعره ليس كثيفًا، قمحيّ اللون ويرتدي نظارة طبية.

-"مراد عوني أبو اليزيد"، محامي.

-أهلاً بحضرتك، تشرفنا!!

كانت تلك جملته التي بدأ بها الكلام معها، ثم استكملا الحديث معًا، لم تجد فيه ما يجذبها سوى أمر واحد؛ شبهه من "يامن".. نعم كان يشبهه إلى حد ما، خاصة بتلك النظارة الطبية والشعر الخفيف، والمظهر الطفولي، لكن على العكس من "يامن" كان واثقًا بنفسه، أو إن شئتَ فقل كان مغرورًا؛ نعم فالغرور كان صفته الأميز بين صفاته جميعًا.

انتهت الجلسة، طلب منها والدها رأيها فيه، فكان ردها.

-لا شيء..

-ماذا تعنين بلا شيء؟

-لم أُكوِّن فكرة عنه، لم أستطع فهمه، لم أشعر معه بالأُلفة.

-ماذا تريدين أن تعرفي أكثر من أنه يعمل محاميًا بأحد الشركات، وأن لديه مسكنًا خاصًّا بعيدًا عن مسكن والدته.

-وهل سأتزوج وظيفته أم مسكنه؟

-ستتزوجيه هو ووظيفته ومسكنه.

-ولكنني لاأرى فيه فتى أحلامي، لا يوجد بيننا شيء مشترك يا أبي.

-إنها المقابلة الأولى، أثق أنك ستغيري رأيك بعد المقابلة الثانية.

-وهل هناك مقابلة ثانية؟

-نعم يوم أجازتك أي بعد يومين.

-ولكنني لم أشعر بأي راحة خلال حديثي الأول معه.

-ستجديها في الثانية.

كان والدها قد وافق عليه بالفعل، وستضطر أن تقبل به، فجلست في غرفتها تفكر وكان هو هناك في ركن الغرفة يجلس معها مفكرًا يحاول الوصول معها إلى حل يرضيها ويرضي أبيها.

-سيكون الرفض صعبًا.

-ولكنه ليس أصعب من وجودك مع رجل لا تطيقينه في بيت واحد.

-الأمر لا يتعلق بأني أطيقه أو لا، هو لم يُحدث أي فارق معي، أتفهمني!!.

obeikan.com

-نعم أفهمك.

-لالا! أنت لا تفهم، حين رأيته لم يجذبنِ فيه شيئ سوى شكله وقربه من شكل "يامن"، أما عن أي انجذاب آخر فلم يحدث.

-وماذا ستفعلي إذاً؟

-لا أعلم، ربما سأنتظر حتى المقابلة الثانية علّني أجد فيه ما يجذبني.

-وماذا عن "أحمد"؟

-مممممم، أتعرف أنه حل جيد.

-كيف؟

-"أحمد" يحبني كما تعلم، وحين علم بأمر العريس جُن جنونة.

-رائع! فلتخبريه بأنك ستوافقي على العريس إن لم يتقدم لخطبتك.

-"خالد"..

-نعم..

-أصمت، أنت غبي؟

-لماذا؟

-الأمر لا يتعلق بموافقة وخطوبة وزواج، أنا لا أفكر في الموضوع بهذا الشكل، أنا فقط لا أشعر بالرغبة في الارتباط والزواج الآن، هل تفهم الآن؟ هل تستطيع

رؤية الأمر من ناحيتي؟

-قليلاً..

-قليلاً؟؟ فقط تخبرني بأنك مني، وأنت بالأصل لا تفهمني، أرجوك إذهب الآن واتركني، أريد أن أبقى بمفردي.

-حسنًا يا "مريم" سأذهب الآن، وسأكون بالقرب أن احتجتيني ستجديني أمامك.

بدلّت ملابسها، وارتدت زي النوم، وألقت بنفسها فوق السرير علّها تحصل على بضع ساعات من النوم، فقد أوشك نور الفجر أن يُطل عليها.

obeikan.com

(١٧)

فتحت "مريم" عينيها في هدوء، ثم وضعت يدها أمام وجهها لتخفف من حدة الضوء المنعكس إليها عبر المرآة بسبب أشعة الشمس الذهبية التي تسللت خيوط رفيعة منها من خلف الستائر، أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى حيث هاتفها على الكُومُود، مدت يدها والتقطته فوجدت الساعة لم تتجاوز السادسة صباحًا.

"نسيت أن أحكم إغلاق الستائر بالأمس، لا بأس سأقوم الآن لأُوقظ "ياسين" للمدرسة"

قاطع أفكارها رنين جرس الباب الذي رنَّ مبكرًا على غير عادته، فهي معتادة على رنة الساعة السادسة والنصف حين يدقه حارس العقار حين يأتي لها بالجرائد اليومية، ولكن تُرى من سبقه اليوم، يبدو أن هذا اليوم سيكون يومًا مميزًا مليء بالمفاجآت.

ارتدت رداءً واسعًا فوق زيها المنزلي، وأحكمت غلق رباطه، فهي ليست بحاجة لمزيد من النظرات المتسللة، يكفيها نظرة الشمس التي أيقظتها من نومها.

لم يكن الزائر متوقعًا، ولكنه كان مُنتظرًا، خاصة بعد معاملة "ياسين" الغريبة لها بالأمس بعد أن عاد من المدرسة، والتي مازالت تجهل سببها، وقف خلف

الباب بزيه الرياضي ممسكًا بيده حقيبة صغيرة بها بعض الحلويات.

فتحت له الباب فوجدته مبتسمًا رقيقًا، تُطل من عينيه نظرات الحب العميقة، التي كلما حاول إخفائها ظهرت جليَّة لها ولغيرها.

-"فارس"..

-صباح الخير يا "مريم".

-صباح النور، تفضل بالدخول.

-آسف إن كان حضوري مبكرًا ودون موعد؛ ولكنه كان ضروريًا.

-لا عليك يا "فارس"، تفضل، أنت تعلم أن بيني وبينك لا توجد مثل هذه المقدمات والاعتذارات، أنت غير الجميع، أنت...

صمتت "مريم"، وأكملت جملتها بإيمائة تحثُّ بها "فارس" على الدخول، وتبعتها بنظرة من عينيها تشير بها إلى أحد المقاعد الموجودة بصالة الاستقبال بالمنزل والتي تقع أمام المدخل المؤدي لحجرة نوم "ياسين"، وكأنها كانت تريد أن يكون "فارس" هو أول من تقع عليه عين "ياسين" حين يخرج من غرفته.

لم تستغرب "مريم" حضور "فارس" بهذا الوقت وكأنها كانت تنتظره !!

"يا إلهي!! أسَمِع ندائي بالحلم؟؟!!"

حدثت بها نفسها ثم قالت:

-أتريد تناول كوبًا من القهوة معي أم شايً؟

obeikan.com

-القهوة يا عزيزتي، أحب نكهتها صباحًا..

-حسنًا، ومعها شطيرة جبن صغيرة، ما رأيك؟

-أوافقك طبعًا، وربما خيار وطماطم.

-(تضحك بصوت مسموع) تمامًا مثلما أحبها، حسنًا لك ما تتمنى..

ما أتمنى؟ لا تعلمين ما أتمنى يا صغيرتي، فأنتِ كل التمني وأنت كل الأشياء، لم أكن أحلم يومًا بأكثر من هذا، أنا وأنت وكوبين من القهوة في الصباح الباكر، دون ضوضاء، دون إزعاج، دون زحام، فقط أنا وأنتِ ونسيم الهواء وأشعة الشمس الذهبية التي تجعل من عينيك قَدَحَانِ من العسل؛ يقطُران لذتهما على وجنتيكِ فيلمعان ويشعَّان جمالاً.

-متى يستيقظ "ياسين"؟

-بعد ساعة من الآن.

-حسنًا، ما رأيك بتناول هذا الإفطار بالشُّرفة، والتمتُّع بهواء الصباح العليل؟

-فكرة جيدة.

نسيت تمامًا أمر الجيران الجُدد؛ حمل "فارس" الصينية وتوجها إلى هناك، تبادلا الحديث بشأن "ياسين"، وقص عليها "فارس" ما حدث معه بالمدرسة في اليوم السابق، وخوفه من تأثير ذلك على حالته النفسية، وعلاقاته بالآخرين.

-الآن فهمت لمَ كان يُعاملني بهذا الشكل؟

-كيف عاملك؟

-كان يتلاشى الحديث معي، وكلما اقتربت منه كان يشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى، وكأنه يهرب من عيني.

-يبدو أنكِ ستواجهين صعوبة في التعامل معه هذه الأيام؟

-لقد حدث الأمر مبكرًا، كنت أتوقعه، ولكن ليس الآن.

قالتها بخيبة أمل؛ جعلت عينيها تترقرق دمعًا، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها وأكملت حديثها إلى "فارس" الذي لم يخف عليه ما بها.

-أتعلم يا "فارس"، يظن الجميع أني قوية إلى الحد الذي جعل البعض يطلق عليّ المرأة الحديدية، لن أنكر أنني أشعر بالسعادة والقوة أكثر أمامهم، ولكن حين أنظر إلى "ياسين" وأراه يكبر أمامي، وأشعر باقتراب موعد الأسئلة والمواجهة، أشعر بضعفٍ شديد.

-"ياسين" لديه عقلٌ كبيرٌ، وليس كما تتخيلين، إنه يعلم كل شيء، ولن ينتظر منكِ أية إجابات، فهو على علم بها بالفعل، قد يمتلك هو نفسه بعض الإجابات التي ستحتاجينها أنتِ.

-ماذا تقصد؟

-لا تشغلي بالك بهذا الأمر الآن، فقط عليكِ محاولة الاقتراب منه ليشعر بالأمان، فهو الآن خائف.

-يشعر بأنه ينقصه بعض الأشياء عن غيره، أليس كذلك؟

-بلى! لهذا أنا هنا اليوم، وفي هذا الوقت.

-لا أفهم ما تقصده؟

-سأحاول أن أعوضه عن حاجته لإحساس الأب الذي يهتم به، إذا سمحتِ لي بالطبع!

-ولكن !!

-"مريم"! الأمر لا يتعلق بنا الآن، إنه يتعلق بـ "ياسين"، وأنا أعلم جيدًا ما يعنيه "ياسين" لكِ، وأعلم أنكِ لن تفوتي فرصة كهذه لترِي السعادة تلمع بعينيه مرة أخرى ولو بشكل مؤقت، وإن كنت أتمنى أن أكون مصدرها بشكل دائم.

صمتت مريم، ولكن عقلها لم يصمت؛ فقد تزاحمت الأفكار برأسها، كيف ستواجه المجتمع بوجود رجل بحياتها، كل ما يربطها به أمامهم علاقة صداقة وزمالة في العمل، وكيف سيكون رد فعل القريبين منها، وجيرانها، وحتى "مختار" الذي يتربص بها!

كيف سيكون رد فعل "ياسين" حين يكبر، وهل سيتقبل "فارس" في دور الأب، وهو يعلم أنه صديق لأمه؟ كيف سيراها من وجهة نظره؟ وهل سيصدق أنه لا شيء بينها وبين "فارس" سوى علاقة الصداقة القوية؟

خلال تلك المشاحنات والحرب الدائرة برأسها، كان "فارس" يُسهم في الصمت، وفجأة ارتسمت على وجهه ابتسامة انتقلت بدورها إلى عينيه، ثم لوَّح بيده وأشار لأحدهم.

نظرت "مريم" خلفها لتجد "ياسين" يقف خلف الستارة مبتسمًا، لم تكن تعلم أنه يقف هناك من فترة، وسمع كل ما دار بينها وبين "فارس".

ابتسم "ياسين" وجرى ناحية "فارس" ووثب فجلس على إحدى ركبتيه، وقام بعناقه، ثم قبَّله من خده، ووضع رأسه على صدره، وأغمض كلتا عينيه بقوة، وكأنه يستمد منه القوة!! نظرت له "مريم" بتعجب، ولكن تعجبها تحول إلى ابتسامة وفتح للزراعين حين التفت لها "ياسين"، وقام من على ركبة "فارس"، واتجه ناحيتها وجلس فوق ركبتيها واحتضنها بقوة.

كان هو من ضمها بكلتا يديه الصغيرتين، ضمها بقوة، وكأنه يجيب عن كل الأسئلة التي دارت برأسها، وصنعت صراعًا بداخلها، فقبَّلت مقدمة رأسه وشعره وأغمضت عينيها وهي تستنشق رائحته وتستمتع بإحساس الأمان الذي افتقدته منذ أعوام. ترقرت دمعة في عين "فارس" الذي قام من مكانه قائلاً في سعادة:

-هيا بنا يابطل، أمامنا العديد من الأشياء لنفعلها قبل الذهاب للمدرسة.

-حسنًا يا "فارس"! هيا بنا، بعد إذنك يا ماما، سأذهب مع "فارس".

ضحكت "مريم"، وردت:

-أها.. الآن لم يعُد لي دور!!

-لا طبعًا يا ماما، ولكني من الأفضل لكِ أن ترتاحي قليلاً.

-أنا أمزح، فلتذهبا الآن، ودعاني أستمتع بهذا الصباح.

ذهبا لتجهيز "ياسين" للنزول للمدرسة، بينما جلست "مريم" تتطلع إلى خيوط الشمس الرفيعة المتسللة خلف الأشجار في صباح شتوي صافٍ خالي من الغيوم.

و على الجهة الأخرى من الشارع كان هو يقف خلف نافذته مزيحًا طرف الستار الخاص به يراقبها بتمعُّن..

*****

في غرفتها الباردة، تمددت "نهى" على سريرها الصغير الموجود بمنتصف الغرفة، على يمينه دولابها الصغير، ويساره مرآتها ودولاب تجميلها الذي لم تعد تستخدمه سوى في تعديل ربطة رأسها وهندامها حين يطرق أحدهم الباب، فلم تعد تخرج كثيرًا بمفردها، خاصة وأنها لا تعمل. جالت بعينيها في سقف الغرفة وجدرانها، التي اكتست بملامحها أو هي من اكتست بشقوقها وغبارها، فكلاهما أصبح كهلاً.

مؤلمٌ حقًّا حين تُصبح رُوحك طاعنةً في السن، مُجعَّدة المشاعر، فاقدة الإحساس بلذة الأشياء وجمالها.

تجاوزت الساعة التاسعة، وقد انطلقت أختها وزوجها إلى عملهما، وأوصلا "ترنيم" إلى مدرستها، وقد حان موعد نهوضها للقيام بأعمال المنزل والذهاب للتسوق، واحضار "ترنيم" بعد الانتهاء من كل ذلك، والاعتناء بها إلى حين عودة أبيها وأمها من أعمالهم، وتناول الغذاء ثم يصعدوا جميعًا إلى شقتهم بالطابق الأعلى، بينما تبقى هي وحيدة، تُراودُ بعض أحلامها وتطلب منها العودة إليها،

obeikan.com

فربما وجدت فيها بعض متع الحياة.

بعد الانتهاء من أعمالها المنزلية، ارتدت عباءتها السوداء، وغطت شعرها بطرحة من نفس اللون، وضعت بعض الكحل بعينيها، فمازالت تحتفظ بجمالهما رغم ذبولهما الواضح، وخلال وقت الظهيرة خرجت من باب شقتها، وخطت بثبات في الشارع المزدحم، مرّت على بعض الجارات الجالسات أمام أحد المنازل يتسامرن ويتمتعن بحرارة الشمس الدافئة، فألقت عليهنَّ السلام، وأكملت طريقها نحو السوق، بينما أكملن حديثهن عن مشيتها، ودلالها، وكان هو يقف متطلعًا إليها في شوق هناك على الناحية الأخرى من الشارع، لم يقترب منها فقط كان يراقبها من بعيد.

-صباح الخير يا عم "إبراهيم"!

-صباح الخير يا ست البنات!

-كم ثمن الطماطم اليوم؟

-لكِ مجانًا..

-شكرا لك، ناولني طبقًا.

-تفضلي.

انتهت من شراء احتياجاتها، ولكن هو لم ينته من مراقبتها، وتتبعها حتى وصلت منزلها، فدخلت في صمت، وخلعت عباءتها، وبدأت في تجهيز الخضروات وتقطيعها ثم طرق أحدهم الباب!!

-ومن سيأتي الآن يا ترى؟ لازال الوقت مبكرًا على عودة "نهال" من العمل.

فتحت الباب فوجدت ابن جارتها بالمنزل المقابل :

-"محمد" ازيك؟

-الحمد للّه، طنط نهى، ماما أرسلتني لك.

-خيرًا يا "محمد"؟

-جاء إلى الشارع رجل غريب منذ عدة أيام، وسأل عنكِ إن كنتِ ما زلتِ تسكنين هنا أم لا؟

-ومن هذا الرجل؟

-لا نعرف.

-ولمَ تخبرني بالأمر الآن؟

-لأنه كان هنا اليوم، وقد رأيته يتتبعك حتى عودتك من السوق.

-يتتبعني أنا!!!

-نعم وهرب فور نداء أمي عليه.

-حسنًا أشكرك يا "محمد".

-عفوًا آنسة "نهى".

ذهب "محمد"، ودارت برأس "نهى" آلآف الأسئلة.

obeikan.com

من هذا الرجل؟ ولماذا يتتبعها؟ ولماذا هرب حين نادت عليه "أم محمد"؟

ظلت الأسئلة تعبثُ برأسها، وتزيد من خفقان قلبها، فماذا يُخبئ لها القدر؟!

*****

obeikan.com

(١٦)

مر اليومان بسرعة، وقد جاء يوم الأجازة الذي ستقابل فيه "مريم"، "مراد" (العريس الخارق) -كما كانت تطلق عليه- فغموضه، وعدم ارتياحها له، واهتمام عائلتها به جعل الأمر أكثر تعقيدا.

كان اللقاء هذه المرة خارج المنزل، بأحد النوادي المطلة على النيل، توجهت "مريم" مع عائلتها إلى هناك، وقد نالت قسطًا لا بأس به من النصائح التي تحثّها على الموافقة عليه من أمها وأبيها وأخيها وزوجة أخيها، حتى الخالات والعمات والأعمام، الكل متفق على أن هذا العريس الخارق هو من سيمنحها السعادة، وهو من سيُنسيها كل ما حدث لها في الفترة السابقة، كان الكل مقتنعًا به إلا هي وقلبها.

تم اللقاء ولم يُحدث جديدٌ بمشاعرها ورأيها تجاهه، نفس الشعور السابق باللاشيء، وكذلك نفس رأي الجميع بالموافقة، وكيف يمكنها رفض عريس جاهز بالشقة والشبكة والوظيفة!! كان هذا مبدأهم، أو بالأحرى هو مبدأ معظم الأهل حين يتعلق الأمر بزواج إحدى الفتيات، كلهن يقعن تحت ضغط الشقة والشبكة والوظيفة التي تجعل من فاسد الأخلاق أفضلهم لمجرد أنه يمتلك شهادة حُسْن سير وسلوك من إحدى المصالح الحكومية.

obeikan.com

هذه المرة قابلت "مريم" والدة "مراد" السيدة "فاطمة"؛ سيدة في الخمسينات من عمرها، تتمتع ببدانة ملحوظة، ليست مرضًا أو تعبًا كما كانت تظن "مريم" في بداية الأمر، كسولة جدًا هذه المرأة، كانت بنفس عمر والدة "مريم" تقريبًا إلا أنها كانت تكبرها عقودًا وعقودًا من الكسل، فلم تشعر "مريم" بالراحة في وجودها، فكانت تلاحظ خلف نظراتها المتوارية، وخلف جفونها المجعدة شرًا عميقًا، شرًا لم تعهده من قبل، شرًا جعل قلبها ينقبض بشدة.

كل ما حدث باللقاء يدعوها للرفض، إلا أن والدها أصر على إعطائها مهلة لمدة أسبوع لتتخذ قرارها بالإيجاب، معتمدًا على حديث الجميع لها، كانت تتمنى لو أنها تصبح على مكالمة هاتفية تفيدها بعودة الغائب الذي كانت تشعر بالراحة في وجوده ولكنها فاقت على مكالمة من نوع آخر، كانت المكالمة من صديق "مراد"!!

هاتف الصديق والدها وأخبره بعدة أشياء مهمة كان أولها و أهمها أن الزواج لن يتم قبل عامين ريثما ينتهي "مراد" من تجهيز شقته، وثانيهما أن تذهب "مريم" لرؤية شقة الزوجية قبل الشروع بأي خطوة رسمية في الارتباط، وإن لم تعجبها فإنهم يعتذرون عن ذلك الارتباط..

كانت هذه هي رسالة السيدة "فاطمة" والدة "مراد" والتي كانت تريد التخلص من "مريم" وزيجتها لتتمكن من تزويج "مراد" لابنة خالته. فرحت "مريم" بالأمر، وطلبت الذهاب لرؤية الشقة في نفس اليوم بعد عودتها من العمل، فقد أتت الفرصة على طبق من ذهب كي تتخلص من هذا الخارق، ستقول إن الشقة

لم تعجبْها على أية حال، وفي هذه الحال سيكون الرفض من جانب العريس وأمه وليس من طرفها، وهكذا لن يحدث أي صراعات بينها وبين أهلها، وستكون قد تخلصت منه نهائيًّا.

ولكن ما حدث كان عكس ما تمنت هي، فبعد عودتها من شقة "مراد" ورفضها لها، وإصرارها على أن تكون شقتها أكبر و أوسع من تلك، وكذلك رفضها لمبدأ الخطوبة لمدة عامين، كان رد "مراد" في اليوم التالي، بأن الشقة تبدو ضيقة لعدم انتهاء أعمال الدهانات بها، كما أنها يمكنها تغيير ما تشاء بها لما تريد.

أما بالنسبة للخطوبة التي ستستمر عامين؛ فأكد أنها لن تستمر أكثر من عام متعهدًا بأن الزواج سيتم بعد عام في نفس شهر الخطوبة التي ستتم في شهر سبتمبر إن وافقت "مريم".

-ولكن والدتك لم تقل ذلك !!

-ليس لكِ علاقة بها، أنا من سيتزوج، هي تفعل كل ذلك لتزوجني من ابنة أختها ،أنا لا أحبها على أي حال..

-ولكن ما الذي ميَّزني عنها، وأرجوك لا تقل إنك تحبني!!

-بلى! أنا أشعر وكأني أحبك منذ ولادتي، وكأنكِ أنتِ الفتاة الكاملة التي كنت أبحث عنها.

-أنا!!!

-نعم أنتِ، أتعلمين أن عينيك جميلة وبها من العمق ما يُخبئ أسرار الكون

بأكمله..

اندهشت "مريم" من كلماته، وتأثيرها على ضربات قلبها ونبضها الذي زاد بشكل قوي وملحوظ..

-ها... ماذا تقول!!؟

-أحبك وأريد الزواج منك، هلّا وافقتِ أرجوكِ!!

أومأت بالقبول، ولم تكن تعلم ما تخبئه لها تلك الإمائة..

*****

على أحد المقاهي جلس "أحمد" مع صديقة "أيمن"، يتحدثان ويلعبان الطاولة، وكانت خطوبة "مريم" لـ "مراد" بهذا المساء، وكان جميع الأصدقاء بالفرح، ولكن "أحمد" لم يذهب، فلم يقوَ على رؤيتها ترتدي خاتم الخطوبة وقد أمسك "مراد" يديها، على الرغم من دعوة "مريم" له لحضور الخطوبة، واتفاقهما على أن يصبحا أصدقاء كما كانا قبل أن تنشأ بينهما أية علاقة حب.

وخلال لقائهما قبل الخطوبة بأسبوعين، بنفس المكان الذي أنهى "يامن" علاقته بها قبل عدة أعوام، وبنفس المكان الذي استطاع "خالد" أن يُسيطر عليها ويهبها قوة لم تتخيلها، تقابلت مع "أحمد"، جلست على نفس المقعد الذي جلس عليه "يامن" منذ ثلاثة أعوام، أخبرت "أحمد" ببرود أن الخطوبة بعد أسبوعين، حاول أن يطلب منها أن تنتظره شهرين، ويتقدم لخطبتها، لكنها أصرت على موقفها بالموافقة على "مراد".

-أرجوكِ يا "مريم"، لا توافقي عليه.

-لقد وافقت بالفعل، وستتم الخطوبة بعد أسبوعين من اليوم.

-ولكني أحبكِ.

-أعلم أنك تحبني، وأنا لن أنكر تحرك مشاعري نحوك، ولكن أبي مُصِرّ عليه والجميع يراه مثاليًّا، كما أن أبي لن يوافق على أن يكون زوجي موظفًا بالقطاع الخاص.

-ألن يشفع حبي لكِ عنده.

-أبي لا يعترف بالحب، يهمه الآن زواجي وفقط.

-شهرين فقط يا "مريم"، وسآتي لخطبتك، أرجوكِ.

-أنا آسفة يا "أحمد"، لا أستطيع الانتظار، ولن يكون لديَّ مبرر للانتظار.

-سأتحدث إلى والدك، سأخبره بأنني أريدك وأحبك، سيتفهمني.

-أرجوك لا تتسبب لي بتركي للعمل، إن علم أبي بشيء مثل هذا سيُجبرني على ترك العمل، وأنا لا أستطيع ترك عملي لأي سبب.

-حسنًا يا "مريم"! كما تشائين، ولكني سأظل أحبك حتى آخر يوم بعمري، وطلب أخير كصديق يهتم لأمرك، فكري بأمر ذلك العريس مرة أخرى فقد راودتني رؤية غير مطمئنة عنكِ، أرجوك للمرة الأخيرة تريَّثي وفكري جيدًا..

-ربما رأيت شيئًا سيئًا لأنني سأذهب لغيرك، لا تقلق سأكون بخير معه،

وسأنتظرك يوم الخطوبة أن تأتي وتهنئني بنفسك.

-إن شاء الله!

جالت بخاطر "أحمد" تلك الكلمات، وقد ذرف دمعة ساخنة انزلقت عبر شعيرات ذقنه الطويلة، والتي لم يقم بحلاقتها منذ أسبوعين، انتبه "أيمن" له فسارع بلفت انتباهه إلى فتاة متأنِّقة تمر أمام المقهى حتى يترك التفكير بـ "مريم" والخطوبة، فنظر لها "أحمد" نظرة عابرة ثم عاود النظر في دخان الشيشة الذي رسم أشباحًا من الوجع حوله.

*****

تمت الخطوبة، وأحست "مريم" برجفة تزور قلبها، بعد أن سمحت لنفسها بالتقرب من "مراد"، فقد أصبح خطيبها الآن، وخلال عام سيصبح لها زوجًا، لذلك لم يعُد هناك داعي لوجود "خالد" أكثر من ذلك، فلم تعد بحاجة إليه بعد اليوم، فقد أصبح هناك من يهتم بأمرها، ومن يُحبها ويخاف عليها، يُعانقها بعينيه، يربِّت على كتفها إن أحست بضيق، يكون بجوارها في كل خطواتها وأزماتها.

لذلك فما الداعي لوجود خيال يعبث برأسها، خيال زعم أن "مراد" غير جدير بها ولكن "مراد" أثبت العكس، وأصبح جديرًا بها وبقلبها، أخرجت "خالد" من رأسها، حتى وإن أبى هو الخروج منها، فعلى الأقل لم تعُد تفكر فيه، ولا في "يامن"، أما "عمر" فلم تعد تذكر اسمه!!!

(١٧)

في منزلٍ راقٍ جلست والـدة "فارس" تتوسط أحد المقاعد بغرفة المعيشة بجلبابها الأزرق وشالها الأسود الثقيل، تتناول كوبًا من الشاي باللبن، فتح "فارس" الباب ودخل بهدوء، اقترب منها، وطبع قُبلة على جبينها..

-صباح الخير يا أمي.

-صباح النور يا "فارس"، أين كنت؟

-كنت بمشوار صغير.

-وأي مشوار هذا الذي يذهبوا له في السادسة صباحًا؟!

-كنت عند "مريم"..

-"مريم"!!

-نعم يا أمي "مريم".

-ألم ننتهِ من أمرها؟

-انتهينا يا أمي، ولكن الأمر هذه المرة ليس متعلقًا بها، الأمر متعلق بـ "ياسين" صغيرها.

obeikan.com

-وماذا به؟

-لا شيء! فقط بعض المشاكل بالمدرسة.

-وما دخلك أنت بمشاكله؟ وهل انتهت كل مشاكلك لتتفرغ لمشاكل "مريم" وابنها؟؟

-أمي أرجوكِ، لا تبدئي، ليس لديَّ وقت للخناق، سأذهب للعمل.

-كما تريد، ولكن لا تضع بمخيلتك أنه سيأتي عليّ يوم وأوافق على زواجك منها، أسمعتني!

-سمعتك يا أمي، وبالمناسبة، هي أيضًا لا توافق على الزواج بي.

-هي ترفضك أنت!! عجائب الزمن.

-أمي، أرجوكِ...

-سأصمت ولتفعل ما تشاء..

بدل "فارس" ملابسه وذهب للعمل، كان اليوم الأول لذهابه بعد ما حدث مع "مريم" من "مختار" وتركها للعمل بشكل مفاجئ، لم تخبر أحدًا سره ولا حتى "فارس" نفسه.

ذهب مبكرًا كعادته، ووجدها تجلس على مكتبها مبكرًا كعادتها، كانت تنظر بالمرآة وتضيف بعض مساحيق التجميل، إلى وجهها الذي يمتلئ بمساحيق تجميل أخرى؛ فهي امرأة تتجمل بالألوان لتُخفي تحتها أحقادها.

مالت برأسها جهة اليمين قليلاً، ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة ملوحة بيدها إلى فارس...

-صباح الخير يا بشمهندس.

-صباح النور يا "نسرين" (بابتسامة صفراء)...

-كيف حالك؟

-بخير! أشكرك.

-وكيف حال "مريم"؟

-"مريم" بخير.

-ألم تخبرك متى ستعود للعمل؟

-لا لم تخبرنِ بشيء، ولا أعلم عنها أي شيء.

-غريب انصرافها ذلك اليوم؛ أليس كذلك؟

تساءلت "نسرين" بخبث، فرد عليها "فارس" حازمًا.

-"نسرين"!!!!

-نعم!.

-فلتتركي "مريم" وشأنها، لا دخل لكِ بها.

-حسنًا حسنًا! سأتركها ولكنني كنت أخاف عليها رد فعل المهندس "مختار" لا

obeikan.com

أكثر.

-أعتقد أنها كبيرة، وواعية بما فيه الكفاية، وتعرف كيف تدير أمـور عملها وحياتها، فقط ابتعدي عنها.

انصرف "فارس" من أمامها ملوحًا لها بيده، وبعد أن ابتعد عدة خطوات توقف فجأة ثم استدار تجاهها وأردف قائلاً بغضب:

-آه "نسرين"، إياكي والحديث عن "مريم" وسيرتها مع أحد، أسمعتي!!

لم ترد نسرين، وعاودت النظر بمرآتها، وباتت تُهمهم بعض كلمات لم يميزها "فارس"، فانصرف إلى مكتبه وأغلق الباب بقوة، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب من عامل البوفية فنجانًا من القهوة، ثم غاص بأوراقه ولوحاته الهندسية.

اقترب أحدهم من مكتب "فارس" الذي لم يشعر بدخوله، ووضع فنجان القهوة، انتبه "فارس" لوضع الفنجان فرفع رأسه بابتسامة شكر لعامل البوفيه، ولكنه لم يجده أمامه، فقام منتفضًا من مكانه مذهولاً.

-سيدة "ليندا"، صباح الخير!!

-صباح الخير يا بشمهندس "فارس".

-صباح النور، أأحضرتِ القهوة بنفسك؟

-نعم! وهل في الأمر شيء ينقصني؟

-لا طبعًا سيدتي، يشرفني ذلك جدًّا.

obeikan.com

-لا بأس! أنا كنت بطريقي إلى مكتب "مختار" فوجدت عامل البوفيه أمام الباب بالقهوة فأخذتها منه وأحضرتها لك.

-أشكرك بشدة! ولكن أعتقد تشريفك لي بمكتبي ليس فقط بسبب فنجان القهوة.

-صراحةً لقد طلبت من العامل فنجانًا آخر سيحضره لي، لأني أريد الحديث معك بأمر هام.

-خيرًا سيدة "ليندا"، ما الأمر؟

-لا تقلق، كل خير إن شاء الله، الأمر يخص "مريم".

-"مريم"!! ما بها!!

-أنت تعلم ما حدث من "مختار" بالأمس..

-لقد علمت أنه ضايقها وأنها تريد ترك العمل، ولكني لم أعلم كيف ضايقها!!

قاطعهما طرقٌ خفيفٌ على الباب؛ فقد وصل عامل البوفية بالقهوة، سمحا له بالدخول، وقد دخل على مهل وكأنه يسير فوق كسرٍ من الزجاج، ربما كان يحاول أن يعرف ما يدور بالداخل.

طلبت منه "ليندا" الخروج بسرعة، فهي على علم بألاعيب "نسرين"، وتطفلها، فخرج مسرعًا وأكملت حديثها مع "فارس"..

-ليس مهمًا كيف ضايقها؛ المهم أنها يجب أن تعود للعمل، فلن نجد مهندسة

obeikan.com

بكفاءتها وأمانتها، غير أنني على علم بظروفها الشخصية، وأعلم جيدًا أنها تحتاج للعمل أكثر ما يحتاج إليها هو.

-ولكنها شبه متخذة لقرار نهائي..

-ولكن يمكنها أن تعدُل عنه بمساعدتك..

-أنا لا أستطيع أن أُجبرها على شيء؛ خاصة وأنا على علم بظروفها الصحية والعصبية.

-أنا أحبها جدًا يا "فارس" وأريدها معنا بالشركة، وأريدك أن تساعدني، ما رأيك إن أخذتني إليها؟

-ليس عندي مانع.

-حسنا اتفقنا! سأمر عليك بعد انتهاء العمل، ولنذهب لها معًا.

-حسنًا اتفقنا!.

*****

في حجرة نومهما الرمادية كحياتهما، جلست "ندى" على السرير واضعة يدها على خدها بعد عراكٍ مع "حازم" يخص مصاريف المنزل ومدارس الأولاد، استدار "حازم" على أثره موليًا ظهره لها، وواضعًا وسادة كبيرة فوق رأسه لتُريحة من عناء كلامها!

فلم يكن "حازم" من متحملي المسئولية، فهو ككثير من الأزواج الموجودين

كخيالات المآتة خلف الكثير من أبواب المنازل المغلقة، وتخفي خلفها العديد من الحكايات التي لا يتحملها ضمير رجل؛ رجل يعشق الكسل والنساء وأصدقاء السوء؛ هو أسوء رجل يمكن أن تُبتلى به امـرأة، ويبدو أن "ندى" كانت تلك التعيسة التي ابتُليت بـ "حازم".

عشر أعوام من التعاسة قضتها ندى، اثنتان منها في منزل الزوجية، و ثمان أعوام أخرى في منزل والدتها القديم حيث انتقلت إليه مع زوجها بعد وفاة أمها حزنًا على "حسن" أخيها الأصغر. كانت تود لو تضغط على تلك الوسادة؛ حتى يلفظ أنفاسه متلذذه بصوت حشرجته وهو ينازع من أجل شهقة أخيرة، شهقة ربما تعيد له بعض الرجولة، ولكنها تراجعت في اللحظات الأخيرة حين تذكرت صغيريها "ميرنا" و"كريم"، فلن يكون هناك من يقوم على تربيتهم إن سُجِنت هي بعد قتله.

"لن أدخل السجن في شخص مثله لا يرقى حتى للقب الذكر المكتوب ببطاقة هويته"

قالت جملتها وهي تهم بالنهوض والخروج من الغرفة، وظلت تُتمتم ببعض آيات القرآن وكلمات الاستغفار، توجهت إلى الصالة حيث التلفاز والهاتف، والبيت هادئ إلا من صوت (شخير) "حازم" الذي بدأ يتعالى بعد أن غطَّ في نوم عميق.

"يا الله! من أين يأتي بهذا النوم، إنه ينام أكثر من ستة عشر ساعة باليوم، ولا يذهب إلى عمله، وحين يخرج لا يعود إلا بعد نومنا أنا و الأولاد، ولكن لابأس فنوم الظالم عبادة، فصوت شخيره أفضل كثيرًا من صوت عراكه المزعج"

لمحت "ندى" وجهها المنعكس بشاشة التلفاز المغلق؛ فوجدت شخصًا آخر غير الذي تعرفه، ظلت تتحسس وجهها بمرارة، ثم قامت إلى مرآة الحمام، فلم تستكشف ملامح وجهها منذ فترة؛ انشغالها بالأطفال وبـ "حازم" جَعَلَاها تنسى الكثير من الأشياء، جَعَلَاها تنسى حتى نفسها.

طلَّ من عينيها شبح له نفس ملامحها ولكنه أكبر سنًا، وأعمق جرحًا، تبدو عليه بعض التجاعيد حول العينين وبجوار الفم، ظلت تُمرر أصابعها فوق تلك المنحنيات الظاهرة فتأخذها صعودًا وهبوطًا حتى وصلت إلى الشفاة، وقفت هناك قليلاً، فلم تعُد تذكر المرة الأخيرة التي وضعت بها أحمر شفاة، ولم تذكر حتى المرة الأخيرة التي حظيت فيها بقُبْلة عشْق!!

فمنذ أن حملت بـ "كريم" لم تشعر بحب "حازم" لها ولا رغبته فيها، كانت تعتقد في البداية أنه مجرد ملل زوجي كالذي يحدث بين أي زوجين، ولكنها اكتشف شيئًا آخر، شيئًا ما على سبيل الزواج الآخر!

تزوج "حازم" من امرأة أخرى غير "ندى"، وكان المفترض أن زواجه في السر ولكن "ندى" كانت على علم به، حين اكتشفت الأمر بالصدفة أثناء حديثه معها هاتفيًا، عندما كانت تتظاهر بالنوم ذات يوم لتهرب من معركة جديدة معه، لذلك لم يعد له رغبة فيها، وأصبحت هي مجرد خادمة بالبيت، لذا فلم تستطع مواجهته بأي شيء، فقد تربت على طاعة الزوج مهما فعل معها.

"ندى" ضحية أخرى من ضحايا التربية الخاطئة للفتاة، حيث يُزرع فيها

الخضوع والمثول لكلام الزوج أيا كان خطأه، معتمدين على قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا)× رواه ابن ماجة (١٨٥٣)، وصححه الألباني في " صحيح سنن ابن ماجة ".

والمقصود من الحديث غير هذا المعنى نهائيًا، المقصود هنا تعظيم دور الزوج في حياة المرأة، هذا إن كان زوجًا صالحًا يقوم بواجباته على أكمل وجه، لا مجرد ذكر حاصل على اللقب في بطاقة هويته!!

*****

قررت "مريم" الاستمتاع بوقتها هذا اليوم، تمددت على الأريكة الموجودة بغرفة المعيشة، وغطت قدميها بغطاء كشميري خفيف يبعث على الدفء، أدارت التلفاز فوجدت أكثر الأفلام الأجنبية الرومانسية التي تعشقها you've got mail، ممسكة بيدها كوبًا من النسكافيه و اليد الأخرى قطعة كيك بالشوكولاته ،- فتلك هي التوليفة المثالية لاسترخائها بهذا الطقس البارد.

بدأت تتعايش مع الفيلم وأبطاله، فعاشت مع قصة الحب المستترة بين البطل والبطلة مع استحالتها، وحدثت نفسها كثيرًا، وتمنت أن يكون حبيبها "فارس" لها يومًا ما، ولكنها تذكرت أنه لا يجب أن تستمر في ذلك الحلم كثيرًا، فحتى وإن كان الحلم قائمًا، فهناك ما يمنع تحقيقه،...

ابتسامة باهتة ارتسمت على وجهها، بعد أن أنهت كوب النسكافيه، ووضعته على

المنضدة المقابلة لها، ثم عادت لوضعيتها الأولى، وقد أرسلت رأسها إلى الخلف قليلاً كمحاولة أخرى للاسترخاء.

أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا تنهَّدتْ على أثره تنهيدة هزَّت أرجاءها بقوة، وشعرت معها وكأن شيئًا ما انسلَّ داخلها، تركت نفسها للاسترخاء مستمتعة باللحظة التي لم تدُم طويلاً، فقد قاطعها جرس الباب..

"ومن سيأتي الآن؟ مازال الوقت مبكرًا، وأنا لا أنتظر أحدًا !!"

مشت بخطى متثاقلة؛ فلم يرن الجرس مرة أخرى وهذا ما استغربته، اقتربت من الباب ونظرت من فتحة العدسة، لكنها لم تر أحدًا، وضعت أذنها على الباب علّها تسمع أي صوت، ولكنها لم تسمع سوى صوت الصمت، ففتحت الباب في حذر، فلم تجد أحدًا، همَّت بغلق الباب ولكنها وجدت ورقة صغيرة وردية اللون مطويةً بطريقة منمقة وملفوفة بشريط أبيض من الساتان، فالتقطتها وأغلقت الباب وكلها فضول لمعرفة ما بداخل الورقة، جلست على أول مقعد قابلها، وفتحت الورقة التي كانت خالية إلا من ثلاث كلمات...

أحبكِ.. اشتقت لك

ظلت تكرر الكلمات، وكانت ضربات قلبها تزداد سرعة وتتعالى أنفاسها، أحست بهزة في جسدها، فمن عساه يُرسل لها هذه الكلمات، ومن ذا الذي تجرأ وأتى حتى باب منزلها، ووضع تلك الورقة...

تراه يكون مختار؟ ولكنه لن يكون، فقد سبق وهددها تليفونيًّا! كيف يخبرها الآن

بأنه يحبها، ولكن مهلاً لقد قال أيضا إنه يشتاق؛ إذن فكان هناك سابقة حب بينهما!!

ظلت تسأل وتجيب نفسها حتى انتهى الفيلم، الذي لم تكمل مشاهدته.

مزعج هو المجهول..

نفضت الأفكار عن رأسها، وقامت لتجهز للنزول، فقد اقترب موعد خروج "ياسين" من المدرسة، ويجب أن تذهب لإحضاره اليوم، فكرت بالنزول مبكرًا قليلاً، لتتمكن من التنزه بالسيارة لبعض الوقت، في يومٍ بدأت تكتسي سمائة باللون الرمادي معلنة عن قرب سقوط بعض الأمطار.

وأثناء وقوفها أمام سيارتها لمحت حارس العقار...

-مساء الخير يا عم "حسين".

-مساء النور يا بشمهندسة.

-هل سألك عني أحد اليوم؟

-أبدًا يا بشمهندسة.

-متأكد؟؟

-نعم!.

-ألم تخرج اليوم؟؟ وجاء أحد وسأل زوجتك أو أحدًا آخر عني؟

-لا يا بشمهندسة! فأنا لم أتحرك من أمام العمارة منذ الصباح سوى الآن ولم

أتغيب سوى دقيقتين فقط.

-حسنًا! ولكن أرجوا أن تخبرني إن سأل أحد عني.

-حاضر!.

تحركت بالسيارة وتجولت بالشوارع المحيطة بهدوء، فكان الجو رائعًا على الرغم من برودته والسحب المتجمعة فوق رأسها والتي بدأت بعض دموعها بالنزول وغسل الشوارع والأشجار، ذاك الجمال الذي أخرجت معه "مريم" يسراها من النافذة المجاورة لها وبدأت بالتقاط تلك القطرات واستقبالها على راحتها في سعادة عارمة.

ركنت السيارة أمام مدرسة "ياسين" وجلست تنتظره، بدأ الأطفال بالخروج، فترجَّلت من السيارة لتقف باستقبال صغيرها، وما أن تحركت باتجاه الباب، حتى وجدته قادمًا يمشي على مهلٍ، وما أن لمحها حتى بدأ بالركض فاردًا ذراعيه وألقى نفسه في حضنها، فلقد مر وقت طويل لم تذهب لتحضره بنفسها؛ فقد اعتاد العودة بأتوبيس المدرسة والمكوث بالمنزل حتى تعود من عملها، أما اليوم فقد كان حضورها مفاجأة كبيرة له لعلمه بأنها مازالت متعبة ولم تتعاف كليًا.

تسابَقَا حتى وصلا باب الشقة، ولكن كان "ياسين" أسرع:

-ماما! لقد سبقتك.

-(بضحكة تلقائية) بالطبع تسبقني، فأنت أكثر حيوية وشقاوة.

-لا لا! انتظري سنكررها مرة أخرى، وأريدك أن تسبقيني هذه المرة.

-هيا!.

هبط "ياسين" بضع درجات وكررا السباق مرة أخرى، ولكن هذه المرة أمسكت "مريم" بـ "ياسين" وحملته بكلتا يديها، وصعدت به وهي تداعبه، أنزلته برفق أمام الباب، فانحنى والتقط شيئًا من على الأرض.

-ماما! أنظري!!

نظرت "مريم" إلى ما التقطه "ياسين" فخطفته من يده بسرعة، وازداد قلقها هذه المرة، فنادت على حارس العقار بصوت مرتفع وبعصبية:

-عم "حسين" يا عم "حسين".

-نعم يا بشمهندسة؟

-من أتى اليوم إلى منزلي؟

-لم يأتِ أحدٌ يا بشمهندسة.

-لقد وجدت هذه الورقة أمام الباب، وقبل أن أنزل وجدت ورقة مماثلة، لا أعتقد أن الورق يأتي ليستقر أمام باب شقتي وحده!

-أنا لم أر أحد يصعد إلى شقتك ياسيدتي، صدقًا لم يصعد أحد.

-إذن من أين تأتي هذه الأوراق؟

-ليس لدي علم صدقيني؛ ربما كان أحد عمال التوصيل وسقطت منه سهوًا.

-تسقط سهوًا مرة، ربما ولكن الثانية لا أعتقد أنها سهوًا هي الأخرى!

جلست "مريم" في غرفتها، وفتحت الورقة كسابقتها، ولكن هذه المرة لم تجد الورقة خالية، هذه المرة وجدت بضع كلمات مكتوبة بقلم رصاص..

عزيزتي "مريم"؛

لا تخافي ولا تنزعجي فأنا لا أنوي بكِ شرًا، فقط اهتمي لحالك واحذري تلك البيضاء..

لم تفهم "مريم" معنى الكلمات، كيف لها ألا تخاف وتنزعج وهناك شخص مجهول يُلقي لها برسائل أمام المنزل، وبما أنه لا ينوي بها شرًا لماذا لا يظهر بشخصه، ومن هي تلك البيضاء التي عليها الحذر منها!!

"يا الله! هل سأعود للجنون مرة أخرى!! يا الله ساعدني! ماذا يحدث؟؟ وما هذه الألغاز؟؟ ومن يكون ذلك المجهول؟؟ وما غرضه من تلك الرسائل؟؟"

قالتها وهي تمعن النظر في خط الراسل علّها تتعرف على شخصيته من خطه، ولكنها لم تصل لشيء سوى الحيرة والخوف.

"أين أنت الآن يا "فارس"، أنا أحتاجك بشدة، أحتاجك إلى جانبي، أحتاج الأمان يا فارس!"

قالتها وألقت بجسدها فوق السرير، محاولة أن تنعم ببعض الهدوء من الصخب الدائر برأسها، ولكن لحظات هدوئها لا تدوم فقد قاطعها وكالعادة جرس الباب..

(١٨)

تنورة بيضاء، قميص أبيض به نقط حمراء، حذاء أحمر وحقيبة حمراء؛ زيٌّ فتاة في الثالثة والعشرين، يُزين خنصرها الأيمن خاتم خطوبة، ويُحيط بساعدها سوار ذهبي مكتوب عليه أول حرف من اسمها واسم خطيبها.

أنهت "مريم" اللمسات النهائية على زيها و(مكياجها) وتصفيف شعرها، الذي ينسدلُ برقة خلف ظهرها، وقد وضعت توكة صغيرة ثبتت بها غُرتها لأعلى، وتركت خصيلات قليلة من شعرها تنساب فوق جبهتها، فبدت بوجه ملائكي، يفوح منها عطر الياسمين.

دقَّ هاتفها برنة جديدة لم تكن تضعها من قبل، فهي اليوم شخصٌ جديد محب للحياة، هي الآن مخطوبة من "مراد"، الذي أصبح حبيبها كما يقول العرف؛ أن تُحب الفتاة خطيبها الذي سيصبح زوجها.

-ألو!!..

-ألو مريم! كيف حالك؟

-أنا بخير! وفي انتظارك..

-وأنا أيضًا بانتظارك بمنزلي؛ فأمي تريد أن تراك قبل أن نخرج؟

obeikan.com

-ألن تأتي لتأخذني؟

-حبيبتي! ولمَ آتي عندك ثم آخذك لنعود عند أمي، فلتأتِ أنتِ وأنا سأكون بانتظارك وبعدها نذهب للسينما من هنا.

-ولكن يا "مراد" كيف سأسير في الشارع بمفردي بهذا الزي؟ أنت تعرف أن ألوانه ملفته وأنت تعرف معاكسات الشارع!!

-ولمَ يعاكسونك؟ لا تقلقي لن ينظر إليكِ أحد، لا تتوهمي بمثل هذه الأشياء، فقط تعالِ لا تقلقي، فالمسافة ليست بهذا البعد.

-حسنًا!..

أصيبت "مريم" بحالة من الإحباط، فقد جاء الأمر مبكرًا، مبكرًا جدًا، فاليوم هو أول يوم لهما كخطيبين لم يمر على ارتدائها خاتم الخطوبة سوى عدة ساعات.

-ألا يغار!!!

أمسكت حقيبتها وخرجت من غرفتها، فاستوقفها والدها:

-إلى أين؟ أجاء "مراد"؟

-لم يأت! اتصل بي وطلب مني أن أذهب لأسلم على أمه، قبل خروجنا للسينما.

-ها!! كيف يسمح لنفسه بذلك؟ ألا يعرف أنه يجب أن يأتي لأخذك من هنا؟

-وكيف لا يسمح أليس هو العريس الخارق؟ أنا ذاهبة يا أبي استودعكم الله!

-"مريم".

-نعم.

-لا تضايقي نفسك.

-لا تقلق يا أبي، سأكون بخير.

هبطت درجات السلم وشعرت بأنها تهبط إلى حفرة عميقة لا درجات السلم التي اعتادت هبوطها، كادت تتعثر من كعب حذائها العالي فلم تعتدْه بعد، ولكنها أمسكت بسور السلم فسقطت منها حقيبتها أرضًا.

نزلت بضع درجات وانحنت لتلتقطها، فلمحت حذاءً رجاليًا بني اللون بالقرب منها، ويدًا امتدت لتلتقط الحقيبة نيابة عنها، كان شعرها المنسدل قد غطى المشهد في الأعلى، فلم تر وجه ملتقط الشنطة، رفعت جسدها واعتدلت مرة أخرى، فوجدته يقف أمامها و لم يتغير، فقد كان كما رأته آخر مرة، نفس ملامحه ولون بشرته، نفس شعره حتى تسريحته لم تتغير، لم يتغير فيه سوى ذقن خفيفة قد تركها تنمو بوجهه.

خفق قلبها بشدة ولمعت عيناها بطريقة لم تعهدها منذ سنوات، هتفت بصوت لم يستطع الخروج من حلقها:

-"حسن"!!

-"مريم"! كيف حالك؟

obeikan.com

-أ.. أنا بخير، حمدًا للّه على سلامتك.

-سلّمك اللّه يا "مريم"، أنا سعيد بأنكِ أول من وقعت عليه عيناي بعد عودتي.

-أنا أسعد يا "حسن"، كيف حالك؟! طمني على أخبارك.

-أنا بخير يا شقية، مازلت حيًا أُرزق.

لمح "حسن" خاتم الخطوبة بيُمناها حين رفعتها لتُعيد بها غُرتها التي تركت التوكة وسقطت إلى الخلف، لم يدر بشعوره هل فرح لها، أم حزن لحالها! فقد استطاع "حسن" قراءة ما تُخفيه "مريم" خلف ألوانها المُلفتة، (ومكياجها)، ولمح الحزن الساكن بداخلها!

أما هي فقد كانت ترمقه بعين، لم تر أحدٌ مثلما كانت تراه هي، كانت ترمقه بعين عاشقة، ارتبك "حسن" قليلاً ثم تخلى عن ارتباكه قائلاً بوجهٍ مبتسم:

-أرى خاتم خطوبة بيدك، مبارك لكِ.

-ها.. اه.. بارك اللّه فيك، لقد كانت خطوبتي بالأمس.

-مممم! لذلك جميلة أنتِ اليوم جمالاً فوق جمالك، وأين ذاهبة أنتِ، أينتظرك خطيبك بالأسفل؟

لم تستطع "مريم" إخباره بأنها ستذهب إلى منزل أمه، وكذلك لم تستطع الكذب عليه، فهي تعلم أنه سيعلم بكذبها، احتارت ماذا تقول فصمتت قليلاً ثم قالت بوجه مبتسم:

-إنه ينتظرني على بُعد شارعين من هنا، فلم يجد مكانًا يركن فيه سيارته تحت المنزل.

-آه! حسنًا! فلتذهبي بسلامة الله، لا تتأخري عليه، واحترسي لحالك.

قالها "حسن" وهو يعلم أنها تكذب؛ فقد لمح الكلمات تتشكل داخل عينيها.

-حسنًا! مع السلامة.

مرت إلى يساره، استنشقت عطره مُغمضة عينيها، ثم هبطت بضع درجات ورفعت رأسها لأعلى، فوجدته مكانه لم يتحرك، فقط وقف ناظرًا إليها مبتسمًا.

رقصت أنغام قلبيهما على وتر الحنين والشوق، هل تلك الدقات دقات سعادة أم حزن، هل فرحا بهذا اللقاء العابر بعد عدة سنوات؟ أما أنه جاء متأخرًا!! نحَّى كلاهما رائحة العشق التي تفوح منهما، واتجه كل منهما إلى وجهته؛ إذ صعد "حسن" لمنزل أمه الذي كان يتجهّز لزفاف "ندى" بعد بضعة أسابيع، وتوجهت "مريم" إلى منزل أم "مراد" حيث ينتظرها.

لم تخل رحلتها من المعاكسات والمضايقات التي تطورت في بعض الأوقات إلى تحرش لفظي وجسدي، فترى بعضهم يقترب منها بحيث يكاد يصطدم بها، وهذا يدفع صديقه ليصدمها فيتحسس جسدها، مما زاد غضبها وحنقها على "مراد"، شعرت حينها بنارٍ مشتعلة بخنصرها، وقيدٍ حول رسّغها، تظاهرت باللامبالاة، ووضعت سماعة الهاتف في أذنيها على موسيقى بصوت مرتفع حتى تتخلص من كلماتهم المزعجة، ولكن حتى السماعة لم تحمها من نظراتهم

obeikan.com

المستذئبة..

كانت مضطره للذهاب إلى منزل الحماة سيرًا فلا توجد وسيلة مواصلات تُقلها إلى هناك،فكانت طوال الطريق تفكر في طريقة ترد بها ما حدث من "مراد" وتلقنه درسًا في الرجولة التي تشك أنها ستعاني معه من افتقادها.

*****

على مقعد وثيرٍ جلست تحتسي طبقًا من الأرز باللبن الشهي والممزوج بعناية مع القشطة والسكر والكريمة، وعلى يمينها منضدة صغيرة تحمل كوبًا من الشاي وهاتف محمول صغير، وجهاز التحكم في التلفاز عن بُعد.

كانت تلك هي أدواتها المعيشية خلال اليوم، والتي لا تستغنى عنها والدة "مراد"، التي كانت تأكل بنَهَم، وهي تتحدث مع إبنها عن الاطار الذي يجب أن تكون فيه علاقته بـ "مريم"، أسّدت له الكثير من النصائح التي لو كانت لها ابنة ما تمنت أن يَسمعها زوجها من أمه ولا يُطبقها عليها، أكملت مهمتها على أكمل وجه، هذا ماكانت تتمناه ولكنها لم تعلم أنها ستواجه من هي أعقل منها وإن بدت مُسالمة هادئة.

جلس "مراد" على الأرض يتحسس قدمه ويعبث بأطراف السجادة المفروشة فوق البلاطات القديمة بمنزلهما الموجود بالطابق الأرضي بأحد البيوت القديمة، منصتًا لكلام أمه الذي كان يعبر فتحات أذنه ويستقر مباشرة داخل عقله، ويزيد من وتيرة النشوة المغرورة بداخله.

obeikan.com

لم تمر نصف الساعة وقد دق جرس الباب، انتفض "مراد"، وفتح الباب فوجدها تقف أمامها بألوانها المبهجة وابتسامتها التي أجادت رسمها على ثغرها والتي تُخفي خلفها براكين من السخط على ما حدث.

وطأت "مريم" المنزل لأول مرة، فلم تتَح لها الفرصة سابقًا لدخوله، حتى في اليوم الذي ذهبوا فيه لشراء خاتم الخطوبة، وكانت من المفترض أن تقابلهم هناك تأخرت بالعمل، ولم تتمكن من الذهاب إليهم وقابلتهم عند الصائغ.

قابلتها حماتها بابتسامة لم تفهم حقيقتها؛ فعلى الرغم من ثغرها المبتسم إلا أن تجاعيد جفنيها كانت تخفي شيئًا آخر، شيئًا لم يكن واضحًا لمريم بشكل جليّ ولكنها لم ترتحْ لتلك الابتسامة.

"يبدو أن الابتسامات المصطنعة ستكون هي المسيطرة على الموقف بهذه الفترة"

حدثت "مريم" نفسها وهي تزيد من اتساع ابتسامتها، وتقترب من والدة "مراد" بانحنائة بسيطة لتطبع قُبلة على وجنتيها، مادة يدها اليمنى لتسلم عليها، جلست "مريم"، وكان "مراد" على المقعد المجاور لأمه، تفحصها كلاهما وكأنها المرة الأولى التي يريَاها فيها!

شعرت "مريم" بالحرج، وبدأ الاختناق والضيق يتسللان إلى روحها، ومعه شعور قوي بالغثيان، فهي لم تحب كونها لوحة يتطلع إليها الجميع بهذا الشكل دون كلام، فبادرت بقطع ذلك الخيط الصامت الملتف حول ألسنتهم:

-كيف حالك طنط "فاطمة"؟

-طنط؟ طنط إيه؟ قولي لي يا ماما، أم أنك لا تعتبرينني ماما!

-لا! أبدًا أنتِ مثل أمي ولكن...

قاطعها "مراد" ولم يترك لها أي مساحة للحديث أو التعبير عن رأيها بهذا الشأن:

-حسنًا! ناديها يا ماما..

-حسنًا! سأفعل (مذيلة كلامها بابتسامة مصطنعة).

تبعتها السيدة فاطمة بالجملة المعهودة لأي ضيف يزورها :

-ماذا تحبي أن تشربي؟

-أشكرك يا طنـ.. أقصد ماما، لا شيء أنا آتية من المنزل.

-لا يمكن! يجب أن تشربي شيئًا.

-حسنًا ربما كوبًا من النسكافيه سيكون كافيًا.

-جميل إذن! فلتجهزي لنا كوبين فـ "مراد" لا يحبه.

-أجهز ماذا؟!!

-فلتقومي إلى المطبخ وتجهزي لنا كوبين من النسكافيه.

-المطبخ ! آه.. حسنًا.

obeikan.com

قامت "مريم" وتوجهت إلى المطبخ بتنورتها البيضاء وقميصها الأبيض تردد بداخلها الكثير من العبارات الساخطة، فلم تتوقع "مريم" هذه الأمور على الإطلاق.

انتهيا من شرب النسكافيه، وقد مرت أكثر من ساعة على وجودها بمنزل حماتها، بدأت تشعر بالملل، وتنظر ساعة الحائط المقابلة لها فلمحها "مراد" وفهم ما تعنيه نظرتها، فتدارك الموقف قائمًا:

-هل انتهيتِ من النسكافيه يا "مريم"؟

-نعم.

-حسنًا! هيا بنا إن كنتِ تودي اللحاق بحفلة السينما التالية.

-آه حسنًا! هيا بنا.

ودعت "مريم" والدة "مراد" مُلوحة لها بيدها عن بُعد، والتي كانت منشغلة بتناول بعض الحلوى مستمتعة بمشاهدة حلقة المسلسل العربي الذي تتابعة على التلفاز.

فتحت "مريم" باب السيارة، وجلست على المقعد المجاور لـ "مراد"، وجلس هو على مقعده مبتسمًا مشدوهًا، لم يكن يتوقع سيطرة أمه على "مريم" بهذا الشكل، ولم يكن يتوقع رد فعل "مريم" المُسالم!! توجها إلى السينما، فحجزا مقعدين في الحفلة التالية، وتوجها إلى السيارة مرة أخرى للانتظار:

-ما رأيك بأن نتمشى قليلاً؟

obeikan.com

-حسنًا! أنا أحب المشي جدًا.

سارا لبعض الوقت، وكانت هي تتعلق بذراعه كطفلة تتعلق بذراع أبيها، لبضع لحظات كانت تود لو تُقبله أو ربما تُعانقه! نسيت تمامًا ما حدث بالمنزل من أمه وتصرفاتها، وأرجأت الأمر إلى أنه ربما كان اختبارًا بسيطًا منهما لمعرفة قدرتها على التحمل وإدارة المواقف والمسئولية.. كانت كلماته معسولة تخترق عمق قلبها، كانت تأملّه ملاذها وأمانها الذي كانت تبحث عنه طوال تلك السنوات التي عاشتها متخبطة بين القلوب والعقول التي صادفتها.

اقترب موعد الحفلة، فتوجها مباشرة إلى هناك، شاهدا الفيلم مستمتعين بكل لحظة فيه، فقد كان شعورًا جديدًا لم تحسه من قبل حتى مع "يامن"، أن تضع رأسها على كتف من بجوارها، وهي تشاهد تلك اللقطات الرومانسية بينما يمسك هو أطراف أصابعها ويُداعبها في رقة..

انتهى اليوم وأوصلها "مراد" إلى المنزل، صعدت درجات السلم في نشوة وهي مازلت تشتم رائحة عطره التي غمرتها، تداعب قرطها بيمناها، بابتسامة على وجنتيها المزهرتين من أثر الحب..

*****

(١٩)

وقفت "ليندا" خلف الباب بجوار "فارس" تحمل علبة صغيرة من الشوكولاتة وصحبة من الورد الأبيض، كان "فارس" يحاول الاتصال بـ "مريم" ليخبرها بقدومه مع "ليندا" إلى منزلها، ولكن هاتفها كان مغلقًا، غير أن "ليندا" طلبت منه ألا يخبرها بقدومهما، فهي لا تريد منها أن تجهز عبارات الاعتذار عن الاستمرار في العمل، كانت تود مُباغتتها بالأمر حتى لا تترك لها فرصة للتردد أو التفكير في الأمر.

كانت "ليندا" من أولئك اللواتي اعتدْن النجاح وتذوقْن حلاوته وشعرْن بنشوته، حتى أنها كانت تبذل كل ما تستطيع من طاقات وأموال في سبيل الحصول على شيءٍ عجز البعض عن الحصول عليه، كما فعلت مع "مختار"، الذي كان يعمل مهندسًا بمجموعتها، وكان محط أنظار الجميع، لذا لم تتوان عن التقرب منه ونسج شباكها حوله والتي لم تستغرق الكثير من الوقت أو المال، وتزوجت منه.

تركت "مريم" الورقة على السرير وتوجهت ناحية الباب، انزعجت لرؤية السيدة "ليندا"، فهي تعلم سبب قدومها بالطبع، ولكن وجود "فارس" معها طمأنها قليلاً على الرغم من غضبها منه، لعدم إخباره لها مسبقًا بحضوره مع "ليندا".

رمقتهما "مريم" بنظرات استغراب، بينما نظرت لها "ليندا" بودٍّ شديدٍ رسمت

على إثره الأولى ابتسامة خفيفة على وجهها الذي كاد يفضح غيظها من "فارس" الذي تبسم بأسفٍ ناظرًا مباشرة في عُمق عينيها، وكأنه يطلب من قلبها الصفح عن فعلته التي يعلم جيدًا أنها ستغضب منه بسببها، ولكنه أيضًا كان يود لو تعود للعمل كي يتمكن من رؤيتها أطول وقت ممكن، أو على الأقل تكون على بعد خطوات قليلة من وجوده بمكتبه، وحينها سيشعر بالراحة تتسلل داخل أروقة روحه المعلقة بها بشدة.

لحظات من الصمت المصحوب بالإيماءات والابتسامات بين ثلاثتهم، قاطعتها "مريم" بالترحيب بهما طالبةً منهما التفضل بالدخول؛ شكرت "مريم" "ليندا" على هديتها، ووضعتها على الطاولة أمامهم، جلست معهما عدة دقائق ثم قامت لتحضر لهما شيئًا، تتبعها "فارس" بنظراته التي لم تلبث أن تتوقف عن الاعتذار، وقد كان قلبه مشدوهًا ناحيتها، بينما جلست "ليندا" تجول بعينيها أرجاء المنزل الذي دخلته لأول مرة؛ فقد كان هادئًا ومرتبًا وبسيطًا تمامًا كما هي "مريم".

-جميل منزلك يا "مريم"، تمامًا مثلك!

-أشكرك سيدة "ليندا"! هذا فقط من ذوقك الراقي.

-لا! صدقًا المنزل رائع وهادئ، أشعر فيه بالدفء وكأنه منزل عائلة على الرغم من وجودك فيه بمفردك.

-أنا لست بمفردي، معي "ياسين" وقلبه، وفوق كل ذلك معي الله يرعاني

ويحميني، ويغمرني بدفء رحمته وحبه.

-حتى كلامك جميل يا "مريم"، يبدو أنني كنت بحاجة لتلك الزيارة منذ فترة، فلم يصادف أن جلسنا لنتحدث من قبل في أي شيء سوى العمل.

-يسعدني الكلام معكِ سيدة "ليندا"، هذا شرف لي أن أتحدث مع إنسانة ناجحة كأنتِ.

-النجاح ليس سهلاً! كما تعلمين يا "مريم".

-بالطبع سيدة "ليندا" فهو يحتاج الكثير من المقومات وأهمها الإصرار.

-وأنت هل تصرِّين على النجاح، أم على الفشل؟

-بالطبع! أصرّ على النجاح.

-ولكنني أرى عكس ذلك؟

انتهت "مريم" من صب القهوة لثلاثتهم، و همت بوضع الصينية على المنضدة الوسطى بجوار المزهرية، فأمسكها منها "فارس" محاولا مساعدتها ووضعها بدلاً عنها، شكرته بايمائة و قدمت لهما الفنجانين، بينما أمسكت بفنجانها وجلست على المقعد المقابل لهما، تكمل حديثها مع "ليندا" ناظرة إليها في شيء يشبه الغضب.

-و كيف هذا؟

-أرى أنكِ تهربين من المواجهة.

-أنا لا أهرب من شيء؛ أنا فقط أحب الهدوء والابتعاد عن المهاترات التي لن تجدي شيئًا.

-ولكنه التحدي يا فاتنتي! التحدي يفعل المستحيل.

-أنا بالفعل أتحدى مجتمعًا بأكمله، لست بحاجة لهذا التحدي الأخير لأثبت أنني على حق.

-ولكن الحياة تستحق هذا التحدي، ابنك يستحقه، هل يمكنك إخباري كيف ستتدبري شئونك، فكلنا نعلم أنه ليس لديك مصدر دخل غير هذا.

-الله معي! سأتدبر أمري، لا تقلقي.

-ولكنني أريدك معي لتُكملي حلمك وحلمي.

-لقد قررت تحقيق حلمي؛ لا أحلامكم.

"فارس" يجلس مهتمًا منصتًا؛ يحاول فهم ما يدور من الحديث، لكنه لم يتوصل لشيء، لم يعرف السبب وراء ترك "مريم" العمل حتى الآن، توقفتا عن الحديث قليلاً، وكأنهما تستعدان للهجوم المفاجئ على بعضيهما لكسب جولة أخرى، ولكن "ليندا" - بحكم خبرتها في الحياة والعمل - كانت أسرع في الفعل والقول، علمت كيف تُصيب الهدف عند "مريم"لإقناعها بالعودة للعمل مرة أخرى.

-مريم! الأمر لا يستحق هذا العناد، أعلم بما فعله "مختار"، وأعدك بأن الأمر

لن يتكرر..

وقعت الكلمات على "مريم" كطلقة أصابت الرأس فأردت كل كلماتها أرضًا، حاولت السيطرة على أعصابها التي بدأت في التوتر، لاحظ "فارس" توترها؛ لكنه لم يعلم ماذا يفعل ليُخرجها من هذا الموقف؛ حاول التفكير بسرعة، فقد فلت الزمام من يدها، لكن "مريم" ردت بعنف واضح هذه المرة:

-تعلمي ما حدث من زوجك!! وتأتي الآن محاولة إقناعي بالعدول عن تركي للعمل؟ حسنًا ما رأيك لو تزوجته!

-لو أعلم أنه يريدك زوجة لما ترددت عن قتلك وقتله، ولكني أعلم أنكِ بالنسبة له مجرد جسدٍ يهوى لمسه والاقتراب منه لأنه ممنوع عنه، لو أشعرتيه بأنكِ له لن يمسك مرة أخرى.

-ما هذا الهراء الذي يخرج من فمك؟ هل تعي ما تقولين؟ هل أنتِ حقًا امرأة.. وزوجة !!!

انتفضت "مريم" من مكانها، وقد سرت رعشة بكامل جسدها، وهي تنطق هذه العبارة التي أرعبتها كثيرًا، وأرعبت "فارس" إلى الحد الذي جعله ينتفض من مكانه هو الآخر، ويقترب منها محتضنًا يديها، محاولاً تهدئتها، وإبعادها عن "ليندا"، التي مازالت تجلس بهدوء وثقة واضعةً قدمًا فوق الأخرى تحتسي القهوة، وتشعل سيجارة أخرجتها من علبة ذهبية موجودة بحقيبتها، قائلةً بهدوء:

-اجلسي يا صغيرتي، ليس بهكذا تعالج الأمور؛ فالتعامل مع الرجال أمثال "مختار" يحتاج العقل لا الحدة، لو كنت مثلك لما ظل "مختار" تحت يدي لهذا اليوم، مازلتِ طفلة أنتِ يا مريم، تجهلين التعامل مع بعض الرجال، على الرغم من رزانتك.

نفض "فارس" الصمت عن نفسه، وخرج عن حياده وصاح بها في غضب:

-وهل تعتبري "مختار" رجلاً؟

-بالطبع يا عزيزي! هو رجل ولكنه ككثيرٍ من الرجال؛ عاشق للجسد الأنثوي ويهوى تفاصيله ومُنحنياته.

-عفوًا سيدتي! ولكن هذا الأمر من شيم الدناءة لا الرجولة.

-لا يهم المسمى...

صمتت قليلاً، وكأنها تمحو أثرًا ما قد أوشك على السقوط من بين رموشها المكثّفة بمسكرة حالكة السواد، ثم زفرت تنهيدة قوية واكملت حديثها:

- أتحْسباني سعيدة بما يفعله!؟ أتعتقدانِ أنني لا أموت في اليوم مرات ومرات بسبب نظراته للنساء؟

هدأت "مريم" قليلاً، وقالت بصوت مرتعش:

-إذًا لماذا أنتِ هنا اليوم؟ لماذا تريدين مني العودة إلى العمل، وأنت تعلمين ما يريد أن يفعله؟؟!! لما تريدين المشاركة بهذا الانحطاط؟!!.

-أنا هنا من أجلك يا عزيزتي، ومن أجل العمل، ومن أجلي أيضًا.

-وكيف ذلك؟ أنا لا أفهم مما تقولين شيئًا.

ثم وجهت كلامها إلى "فارس" الذي جلس بالمقعد المجاور لها، بعد أن ساعدها على الجلوس بهدوء:

-هل تفهم شيئا يا "فارس"؟ هل تعلم شيئًا لا أعلمه أنا؟ أخبرني.

-أنا لم أكن أعلم سبب تركك العمل حتى هذه اللحظة، هذه المرة الأولى التي أسمع بها هذا الكلام، ولا أفهم شيئا مما تقوله السيدة "ليندا" الآن.

قاطعتهما "ليندا" بصوت هادئ.

-سأُفهمكما كل شيء، ولكني فقط أريدك أن تهدئي يا "مريم" من أجل "ياسين".

-أنا هادئة! فقط أخبريني سبب وجودك هنا اليوم؟

-أنا هنا لتعودي للعمل.

-مرة أخرى سيدة "ليندا"؟ مرة أخرى!!

-اسمعيني يا "مريم"، أنا أكبر منك سنًّا، وتعلمت من الدنيا الكثير؛ "مختار" رجل يحب النساء، ومنذ اليوم الأول لزواجي به، وأنا أعاني من عينيه (الزائغة)، وحواسه المتوجهة دائما ناحية النساء، حتى إلى أقرب الناس لي، أنا أريدك أن تساعديني على هزيمته، فأنا أعلم بكل علاقاته ومعاكاساته وتحرشاته، ولكني

لم أجرؤ يومًا على مواجهته بأي منها، حتى حاول التحرش بكِ، لم أواجهه أبدًا سوى الأمس.

-ولم واجهتهِ الآن؟

-لأنك لا تستحقي هذا، أنتِ مهندسة كفء، وفتاة جميلة تستحق الأفضل، لا تدعين شهوانيته تهزمك، أنا معك و"فارس" معنا وهو لن يجرؤ على التحرش بكِ مرة أخرى بعد أن واجهته بما حدث.

-ولكن..

-لا تعتذري أرجوكِ، لا تدعي شره ينتصر على خيرك.

-أنا أحب الهدوء والعيش بسلام؛ لا أحب التواجد بمكان يعجّ بشر النفوس، روحي تختنق، لا أستطيع التنفس به.

-سأجعل لكِ متنفسًا جيدًا.

-وكيف ذلك؟

"ليندا" لاحظت تلهف "فارس" على "مريم"، وبذكاء امرأة خبيرة بالحياة شعرت بحبه لها، بل وحبها هي الأخرى له، فقررت استغلال تلك العاطفة الناشئة بينهما في حل الموقف والخروج بحل مُرضٍ للجميع:

-ما رأيك لو نقل "فارس" مكتبه بغرفتك؟

- "فارس"!!

-نعم، أعتقد أن "مختار" لن يجرؤ على الدخول إلى الغرفة مرة أخرى بوجود "فارس" فيها.

تورَّد وجه "فارس"، وعلت شفتيه ابتسامة عريضة، ولمعت عيناه، وكأن كلمات "ليندا" قد وهبته أملاً جديدًا وروحًا جديدة:

-أنا موافق وجدًا!!.

ترددت "مريم" في الرد، وحاولت الاختلاء بعقلها لحظات للتفكير، ولكن أحدا من ثلاثة لم يعطها فرصة للرفض؛ لا "ليندا" ولا "فارس" ولا قلبها..

*****

في الجهة المقابلة وخلف الستار كان يقف هو مزيحًا طرفًا منه محاولاً رؤية ما يدور بالداخل، فلم ير سوى شفاه تتحرك ومشاعر تتطاير في الهواء، ولحظات كره وأخرى للحب، بعضهم يقف والآخر يجلس بحذر وتلك تجلس في راحة، بعض الدخان يتطاير من بين شفاة "ليندا"، والكثير من العشق يقفز من عيني "فارس"، والكثير الكثير من الخوف والترقب يفوح من "مريم" كخليط من عطور العود والمسك والفل الأبيض وبعض الزهور البرية لا تخطئه أنفٌ متلهفة.

هدأ الجميع فتوجه إلى مقعده المطل على بانوراما حائطية متمثلة في صورة كبيرة لـ "مريم"، جلس يتأمل ملامحها البريئة ونظرتها العميقة، وشعرها المنسدل، كل ما فيها يقول إنها وحيدة، خائفة، تحتاج من يشعرها بالأمان، وهل يوجد بالدنيا أمان لها أكثر منه؟

obeikan.com

هو المفتون بها، هو الذي يحب كل ما فيها حتى قسوتها!! هو الذي ربما يكون آخر رجلٍ بالعالم يمكن أن تفكر فيه أو تتمناه، وعلى الرغم من ذلك هو لا يتمنى أحدًا سواها؛ فقط نظرة منها كفيلة بان تمنحة السعادة حتى نهاية عمره، أو ربما قتل نفسه بعدها لتكون عيناها آخر ما شاهده في هذا العالم البائس.

*****

على بعد بضع خطوات من باب المدرسة الحديدي العالي جلس بداخل كشك صغير ممسكًا بجريدةٍ يقرأ فيها خبرا عن زوجٍ قتل زوجته، وذبح ابنته بعد اكتشافه بعد فحص طبي أجراه بالصدفة أنه عقيمٌ لا يمكن أن يُنجب!

اقتربت منه "نهى"، وطلبت منه أن يضع لها (باكو) من البسكويت و(كيس) من رقائق البطاطس، وبعض الحلوى بكيسٍ بلاستيكيّ لتهديهم لـ "ترنيم" ابنة أختها عند خروجها من المدرسة.

-مساء الخير يا عم.

-......

-يا عم مساء الخير!

-ها. أهلاً يا ابنتي مساء النور، عذرًا لم أسمعك.

-يبدو أنك مشغولاً؟؟!!

-آه والله، جريمة بشعة؛ رجل قتل زوجته وذبح بنتها التي لم تتجاوز السابعة.

-يا اللّه وكيف هذا؟ ولماذا؟

-اكتشف أنه عقيم، فقتل زوجته وهي نائمة وذبح ابنته الصغيرة.

-وما ذنب الصغيرة فيما فعلت أمها؟

-الغضب أعماه يا ابنتي، كفاك اللّه شره.

-يارب، لف لي هذه الاشياء يا عم الأولاد على وشك الخروج.

تملكها شيءٌ من الرعب، خافت على "ترنيم" صغيرتها؛ التي وهبتها لأختها "نهال" كي تُخفي فِعلتها مع "مصطفى"، اتفقت هي وأختها على أن تأخذ الأخت الطفلة، بعد أن أخبرت زوجها المسافر بحملها من زيارته الأخيرة التي لم تكن قد تجاوزت الشهرين، وقد سافر الأخ الأصغر لهما للعمل بالخارج مع زوجته، وجاءت "ترنيم" إلى الدنيا، وسُجِّلت بإسم زوج أختها، ولم يعلم أحد بهذا الأمر أبدًا..

شردت "نهى" قليلاً، وتذكرت ما أخفته هي و"نهال" عن الجميع، تنهدت بعمق وأطلقت زفرةً قوية خوفًا مما سيأتي.

"يا اللّه! ماذا لو اكتشف "سامح" الأمر؟ ماذا سيكون مصير "نهال" و"ترنيم"!! يا اللّه استرنا كما سترتنا من قبل".

دق جرس نهاية اليوم الدراسي، وتدافع التلاميذ في الخروج من باب المدرسة، تعالت الأصوات وزاد الصخب، وأصبح الشارع الهادئ كسوق مزدحم؛ أطفال

obeikan.com

وسيارات وباعة جائلون بعرباتهم الخشبية يبيعون الحلوى والألعاب، تقف "نهى" وسط كل هذا الصخب الذي لم يكن كافيًا للتغطية على الصخب الدائر بداخلها، خرجت صغيرتها تتهادَى بزيها المدرسي، وشعرها المرفوع كذيل الحصان، تحمل حقيبتها الثقيلة فوق ظهرها، ويبتسم وجهها الأبيض الملائكي بابتسامة عريضة، بعد أن لمحت كيس الحلوى بيد "نهى"، أسرعت من خطواتها، ثم بدأت بالركض حتى وصلت إليها واحتضنتها كما اعتادا في كل يوم.

-طنط "نهى"..

-حبيبتي الصغيرة، كيف حالك؟ اشتقت لكِ.

-وأنا أيضًا يا طنط اشتقت لكِ، أريد ان أبقى معكِ دائمًا ولكن أبي لا يرضى، ودائما ما يقول لي لا تزعجي خالتك.

-هو لا يعلم أنكِ قطعة مني يا صغيرتي، لا بأس! سأتحدث إليه في أقرب فرصة.

-ولكني أحب أن أنام بحضنك يا طنط، أشعر معكِ بحنان أكبر من أمي.

-لا تقولي ذلك يا حبيبتي؛ فأمك تحبك مثلي وأكثر.

-نعم تحبني، ولكني أشعر أن حبك لي أضعاف أضعاف حبها لي، وكأنكِ أنتِ أمي وهي طنط.

-(بضحكة عالية)، شقية أنتِ، كل ذلك لأجل كيسٍ من الحلوى.

تبادلا الضحك؛ لكن الضحكات العالية كالحلوى ؛ لا يمكنها إخفاء الألم ولا

الخوف مهما بلغت حلاوتها، سارا باتجاه المنزل حتى وصلا ناصية الشارع، كانت "نهى" تمسك بيد "ترنيم" مستمتعة بنعومة يدها ورقتها، وكانت "ترنيم" ممسكة بكيس الحلوى، وقطعة من الشوكولاته باليد الأخرى.

أما هو فوقف منتظرًا، وكان ينظر للساعة كل دقيقة مُتأففًا، وكأن الوقت لا يمر، حتى لَاحَا من بعيد يترامَى ظلهما على الرصيف والأحجار الملقاة بالطريق، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ولمعت عيناه ما أن وقعت بعين الصغيرة التي ابتسمت له في خجل، وأدارت وجهها حين رأته يبتسم.

تسمرت "نهى" مكانها، لم تقو على الحراك، بركانٌ انفجر بداخلها، فاحمر وجهها وسخن جسدها حتى أن "ترنيم" شعرت بحرارة يدها؛ فأفلتتها رافعة رأسها إلى أعلى فلم تجد من "نهى" سوى السكون والشرود، أدارت "ترنيم" وجهها باتجاه مكان نظر "نهى" التي لم ترد على نداءاتها، فوجدتها تركز بصرها في ذلك الرجل المتهللة أساريرة.

تعجبت "ترنيم" من موقف خالتها، أمسكت يدها.

-طنط.. طنط.. طنط.. ما الأمر؟

-ها.. "ترنيم"! لا شيء، هيا بنا من هنا.

-ما الأمر يا طنط، ومن هذا الرجل؟

-إنه مجرد شخص يا صغيرتي، هيا بنا.

جذبت "نهى" يد "ترنيم" في لهفة، وأسرعت من خطوتها حتى تختفي من أمام

"مصطفى" - الذي لم تعرف سبب مجيئه إليها الآن بعد عشرة أعوام- بسرعة البرق، فقد كان "مصطفى" آخر شخص تعتقد ظهوره في حياتها مرة أخرى.

اقترب منها "مصطفى"، فأسرعت من خطواتها، حتى هرولت وكادت تجري، إلا أن "مصطفى" اقترب أكثر وجرى حتى لحق بها وأمسكها من ذراعها فأوقفها، لم تكن تؤمن بنظرية دوران الأجسام؛ فشعرت وأن جسدها يدور في فلك غريب سواده كثيف، فوجدت نفسها فجأة داخل غرفتها القديمة أمام سريرها وبقعة الدم ووجها الأحمر من الخوف واللَّطم، و"مصطفى" هناك يرتدي ملابسه بسرعة ويدفعها، وهي تقترب منه تتوسل إليه ألا يتركها؛ فيركلها بقدمه ويبصق عليها قائلاً:

-لا مكان عندي للعاهرات الرخيصات.

بكت بحرقة حتى كادت تفقد روحها، جلست على ركبتيها، مزقت وجهها بأظافرها الطويلة، قطعّت شعرها، وظلت تخبط رأسها بالأرض حتى فقدت وعيها، مر كل شيء أمامها بسرعة..

- "نهى"!!..

-مصطفى!!

-كيف حالك؟

-ماذا تريد؟

-أنا هنا لأجلك..

-لأجلي!؟

ضحكت عاليًا، ضحكت حتى لفتت انتباه كل من بالشارع، ضحكت حتى انفجرت الدموع من عينيها، وظلل سواد الكحل وجهها، ضحكت حتى أنها لم تعد ترى أي شيء أمامها سوى وجهه وبقعة الدم!!

تقف "ترنيم" في ذهول غير مدركة ما يحدث، وأكثر ما لفت انتباهها هو الشبه الغريب بينها وبين "مصطفى" التي لم تعرف من يكون.

-إهدي يا "نهى" أرجوكِ.

-أهدأ!! أنت مجنون؟ كيف لي أن أهدأ، تظهر أمامي فجأة بعد عشرة أعوام بوجه مبتسم وكأنك لم تفعل شيئًا! وكأنك لم تقتل أسرة بأكملها وتُيتم بنتًا! وكأنك لم تقتل روحي، وكأنك ملاك!!

-لقد أخطأت وعاقبني الله عن أخطائي، وجئت أُكفِّر عن ما بدر مني..

-تُكفّر!! اغرُب عن وجهي، لا أريد أن أراك مجددًا، ابتعد عني، اترُكني لحالي.

كانت الناس قد بدأت بالتجمع حولهم، وقد أدركت "نهى" الأمر فأخذت "ترنيم" وذهبت غير مبالية بأي من الحضور ولا حتى مصطفى، الذي لم يتركها تذهب لحالها بل تتبَّعها حتى وصلت البيت واطمأن على دخولها هي والصغيرة التي ظلّت تتلفت خلفها تنظر إليه طوال الطريق..

كانت قوية قوة لم تتوقَّع وجودها بداخلها، كانت تريد أن تنهار، تبكي وتبكي، كانت تودُّ لو تركُله ثم تنقضّ على وجهه لتمزقه بأظافرها، كانت تتمنى أن تمسك

برقبته وتلويها حتى تخلعها عن جسده، فيسقط جثة هامدة علّها تنتقم لنفسها وروحها وشرفها، ولكن لم يكن هناك من فعل يمكنه أن يُطفئ النار التي اشتعلت بداخلها تجاهه سوى الصمت.. ظلت متماسكة صامتة أمام أسئلة "ترنيم" التي لم تجد لها إجابات، أو بمعنى أدق كذبات فهي تعلم كل الإجابات بتفاصيلها وخباياها، ولكنها لم ترد لـ "ترنيم" أن تتلوَّث بما فعلت هي في صغرها، لم ترد لـ "ترنيم" أن تتعرف على من زرع بذرتها.

تعجب "مصطفى" هو الآخر من الشبه الملحوظ بينه وبين "ترنيم"، فقد لاحظ أن "ترنيم" نسخة مصغرة منه، عاد "مصطفى" حيث أتى، ولكن أسئلة ترنيم لم تعُد لداخلها، ولم تتوقف؛ ظلت تسأل وتسأل، حتى فاض بـ "نهى" منها ونَهَرَتها بعنف، إلا أنها توقفت، وبدأت دموعها الحبيسة بالانهمار حين قالت:

-من هذا الرجل، أخبريني يا طنط؟!

-اصمتي.. لا أريد سماع صوتك مرة أخرى، ولا أريد سماع سيرته مرة أخرى.

-طنط! أتعلمي أن هذا الرجل عينيه تشبه عيناي؟

-بلى! يا صغيرتي!، فلتنسي الأمر، ولا تذكريه أمام أحد؛ خاصة أبيكِ.

-حاضر يا طنط!

ابتسمت برقة، ونهضت من مكانها، وعانقتها وقبلّت خدها وظلت واضعة رأسها على صدر "نهى"، فقبلت "نهى" رأسها واحتضنتها بقوة، وكأنهما تحتميان ببعضهما..

(٢٠)

مقعدٌ أبيض مزدوج وثير، من الساتان تُحيطه باقات كبيرة من الورود البيضاء، وفي الخلفية طبقات من القماش والتُّل الأبيض والوردي؛ تُشكل تصميمات هادئة تُزين الكوشة، جلست "ندى" بفستانها الأبيض، وعلى يسارها عريسها ببزته السوداء وربطة عنقه الفضية، تشع من وجههما أضواء الفرحة والحب، وعلى بعد منضدتين جلست "مريم" بفستان أسود لامع، و"مراد" خطيبها على يسارها وباقي أسرتها يُكملون الدائرة حول المنضدة التي تتوسطها مزهرية كبيرة بها جوريات حمراء وزهور بيضاء وبعض الفروع الخضراء.

أما "حسن" فكان يتجول بالقاعة بين منضدة وأخرى، يُسلم على هذا ويُعانق ذاك، ويتحدث إلى أمه قليلاً، ثم يهرول إلى أحد الطرقات خارج القاعة، ويعود ومعه أحد أقاربه، الجميع مبتهجون يتمايلون على أنغام الموسيقى، ويهمس العريس في أذن "ندى" ببضع كلمات من آنٍ لآخر فتضحك "ندى" في خجل، ويمسك هو يدها ثم يُقبل أطراف أناملها في رقة.

أما "مريم" فكانت شاردةً بخيالها، مُتتبعة "حسن" في كل خطواته؛ فكانت ترى فيه الأخ الحنون والصديق الكتوم والحبيب المثالي، وإن كان عقلها متحفظًا على الأخيرة، كانت تود لو أن "مراد" مثله في رجولته ورقته وحنانه، كانت تود لو كان

هو مكان "مراد" يجلس بجانبها الآن، أو كانت هي من تتحرك معه بالقاعة جيئةً وذهابًا.

"ها.. "مراد"، تبًّا! لقد نسيت وجوده تمامًا"

همست بها لنفسها وهي تخبط جبهتها بأطراف أصابع يُمناها، متذكرة وجود "مراد"، كان وجوده كالهواء حتميًا لكن دون شعور، فلم يعطها "مراد" الاهتمام اللازم أو المتوقع منه بعد كل كلامه المعسول قبل الخطوبة، وكأن كل ما قيل منه كان مُجرد حروف منثورة فوق أرض رملية، سقطت عليها أمطار الروتين والملل فذابت بينها، وتشرَّبتها تلك الرمال حتى وصلت إلى أعماقها.

لفّت رأسها ناحيته في هدوء ثم ابتسمت ابتسامة رقيقة وهي ترمقه بعين مترددة، كانت تحاول أن تفهم ما يدور برأسه بعدما رأته مندمجًا في شيء ما، كان يتطلع إليه في شغف. مرّت دقائق وهو مازال هناك مع تلك الشقراء ذات الفستان الأحمر القصير يتأمل قسماتها ومنحنياتها؛ كان يتحسس جسدها المستدير بعينيه، شعرت "مريم" بكل لمسة، ورأتها بقلبها الذي كان ينفطر ألمًا، فلم يمر على خطبتهما سوى أسابيع قليلة وها هو ينظر لغيرها، ويتناول منها بضع قضمات شرهة.

-"مراد"..

-...

-"مراااد"!!.

-ها.. نعم يا "مريم"

-أين أنت؟

-أنا هنا بجوارك حبيبتي.

-لا يا عزيزي أنت لست هنا، أنت هناك مع الشقراء، تُرى كيف هو ملمسها!!

-ما هذا الهراء؟ ماذا تقصدين؟

-لا شيء يا عزيزي! لا شيء!.

تابع والدها النقاش، ولكنه لم يسمع جيدًا ما يدور من حوار لصوت المكبرات العالية، لذا لم يحاول التدخل فيما يحدث مُفضلا تركهما يحلان مشاكلهما دون تدخل، فكان على علم برجاحة عقل "مريم" وحُسن تصرفاتها، أليست هي التي يعتمد عليها في كل شيء؟ أليست هي ولده الآخر بعد "محمد"؟

قالت "مريم" جملتها، وهبَّت واقفة، ثم أمسكت ذيل فستانها الطويل بانحناءة لطيفة إلى الخلف وتحركت ناحية العروس.

تبعها "مراد" وجذبها من ذراعها قائلاً في عصبية:

-إلى أين؟

التفتت إليه "مريم"، ونظرت إلى يده القاضبة على ذراعها، ثم رفعت رأسها لأعلى قائلة بغضب:

-إلى العروس! سأبارك لها هل لديك مانعًا؟

obeikan.com

-وهل أبدو لكِ كـ (طربوش) موضوع على الطاولة أمامك؟ لماذا لم تطلبي مني الذهاب معكِ!؟

رسمت ابتسامة ساخرة على وجهها وردت بلِينٍ:

-رأيتك مشغولاً يا عزيزي، فلم أرد إزعاجك بتفاهاتي.

-إزعاجي، وتفاهاتك؟ "مريم"!

-ذراعي يا "مراد" (بحِدة).

قالتها "مريم" بحدة جعلت "مراد" يترك ذراعها بسرعة، ويرجع خطوتين إلى الوراء، فعاودت الذهاب إلى وِجْهَتها وتبِعها "مراد" في هدوء. لم تكن تقصد أن تُعامله بتلك الحدة، ولكنها لم تشعر بنفسها إلا وهي تُذيقه من نفس كأس الوجع التي ذاقت منها رشفات، اقتربت من "ندى" وسلمت عليها وقبَّلتها مع عناق صغير ثم أومأت إلى عريسها بابتسامة صغيرة.

واقفًا بين أصدقائه وأقاربه، شعر "حسن" بشعور غريب، وكأن شيئًا ما يُرغمه على الذهاب إلى مكان تواجد "مريم" و"مراد" حيث الكوشة والعروس، اقترب منهم تتطاير من عينيه عبارات الشوق والمحبة، لم يلحظها سوى "مريم" والعريس "شريف" زوج "ندى".

سلم "حسن" على "مريم"، تعانقت يداهما لأول مرة منذ فترة بعيدة، شعور غريب، وكأن كل ما حولهما توقف فجأة، لم يعُد شيئًا يتحرك أو يهمس سوى قلبيهما؛ ورعشة غريبة بجسدهما؛ لم يدرِ أحدهما بأن الآخر قد أحس بها، نظر

"حسن" إلى عينيها العميقتين، فقرأ الكثير والكثير، تمنى لو عانقها وتركها تبكي على صدره، تمنى لو ضرب "مراد" ضربًا مبرحًا وألقى به أرضًا، تمنى لو كانت "مريم" بلا وجع.

لحظات قصيرة مرّت وكأنها أعوام؛ نظرات متقطعة ظلّت موصولة في وجدانهما، طفل صغير وُئِد قديمًا عاد للحياة و بدأ ينمو مرة أخرى، في روح كل منهما.

لم يشعر "مراد" بشيء، وكيف يشعر بأشياء لم يسمع عنها يومًا أو يختبرّها !، كيف يشعر بحب لم يفهم معناه! سلَّم على "حسن"، وبارك له الثاني على الخطوبة، وتمنى له زواجًا قريبًا، وبادله "مراد" بنفس الأمنية مودعًا إياه بابتسامة مصطنعة ممسكًا يد "مريم" التي ركزت نظرها على خنصر "حسن" الأيسر فلمحت فيه خاتمًا فضي اللون كانت قد أهدته له منذ سنوات.

"لم يكن موجودًا بيده حين صادفته على السلم يوم عاد من السفر!! مممم ربما كان موجودًا، ولكني لم أنظر جيدًا؛ فقد كنت منشغلة بالحديث مع قلبه، لا بأس المهم أنه مازال محتفظًا به، ومازال يُزين يده".

قالتها في نفسها وظهرت بعينيها لمعة جديدة، لم تمر لحظات حتى أطفأتها بنفسها، بعدما تحسَّست خنصرها ووجدت خاتم الخطوبة ويد "مراد" تقبض على يدها الأخرى، استسلمت له، وفكرت في طرد تلك الأفكار بطريقة صبيانية، ودّت لو تتمايل قليلاً وترقص، ربما يشجعها "مراد" على الأمر، ويرقص معها رقصة صغيرة فتُعيد توجيه مشاعرها تجاهه مرة أخرى متناسيةً "حسن"

obeikan.com

ولمعة عينيها تجاهَه.

-حبيبي! ما رأيك أن نرقص معًا تلك الرقصة؟

-لا أحب الرقص.

-إنها رقصة كلاسيكية؛ لن نقفز ونتمايل!

-قلت لا أحب الرقص، فلترقصي مع أخيك إن أردتي.

-لا بأس، لقد غيّرت رأيي على أية حال.

لم يساعدها "مراد"، ولم تفلح في إخفاء الضوء اللامع في عينيها، فجلست مكانها دون حراك، دون كلام، دون روح، فقد كانت روحها تطوف حول "حسن" ترقص معه على أنغام الموسيقى، كان يلف خصرها بيده ويده الأخرى مُمسكة كفها، أما هي فوضعت كفها الآخر على صدره في رقه، ثم تحولت الرقة إلى تشبث، نعم تشبثت بقميصه حتى أنها أحدثت به بعض الكسرات وكأنه تقول له لا تتركني وتذهب مرة أخرى، ثم توقفت الموسيقى، وهبطت من فوق السحابة التي كانت ترقص فوقها، عادت مرة أخرى إلى الأرض، إلى الواقع، إلى كلمات "مراد" التي أيقظتها من حلمها الجميل ليُخبرها بأنه ذاهب للخارج ليدخن سيجارة.

-حسنًا! فلتذهب.

ظلَّت تتابع الرقصات والضحكات والفرحة الموجودة بعيني "ندى" التي اقتربت منها أثناء رقصتها، وأمسكت بيديها، وطلبت منها الرقص معها، أحُرجت

"مريم" من طلب "ندى" فقامت على استحياء وتمايلت معها قليلاً، فتجمعت الفتيات حولهما، وفرح الجميع في رقصة جماعية جميلة، دارت الجميلات حولهما إلا الشقراء ذات الفستان الأحمر، فقد توجهت إلى خارج القاعة، لتدخن سيجارة هي الأخرى!..

فطنت "مريم" للأمر؛ أكملت رقصتها مع "ندى" ثم عانقتها وقبَّلت وجْنَتَها وتوجهت خارج القاعة، لترى إن كان ما توقعته يحدث، أم انها افترت ظلمًا على "مراد" والشقراء، لمحها "حسن" فتبعها هو الآخر.

على سور معدني؛ أسندت الشقراء جسدها متوجهة بنظرها إلى بانوراما زجاجية تطل على الخارج، وتنفث دخان سيجارتها في هدوء، وقف "مراد" مسندًا جسده إلى جوارها، واضعًا إحدى يديه على يدها (المسنودة) إلى السور، وينظر لنفس اتجاهها، ويشاركها دخان سيجارتها، وقد بدا عليهما الانسجام التام في الحديث.

تسمرت "مريم" مكانها على الرغم من أن هذا المشهد كان متوقعًا بالنسبة لها، إلا أنها شعرت بصدمة، يبدو أنها لم يزلْ بداخلها بعض المبالاة، مرت برأسها العديد من المواقف المُخزية التي أهداها لها البعض، شعرت بدوار خفيف، فوضعت يدها فوق رأسها، فاقترب منها "حسن" وأمسك يدها في حنان، نظرت له وكادت دمعة تهرب من قلبها لتسقط من عينها إلا أنه أشار لها بيده الثانية أن لا تبكي، ثم هَمَسَ لها:

-لأجلي، لا تبكِ أرجوكِ.

أخذت نفسًا عميقًا، ورفعت رأسها لأعلى؛ فأعادت الهاربة الصغيرة إلى مكانها بالداخل، واستجمعت بعض قوَّتها وتوجهت مباشرةً إلى الواقفيْن في انسجامٍ لتقطع عليهما تلك الوصلة الحَميمية المليئة بالمشاعر السَّاخنة كفستان الشقراء القصير.

-منظر رائع أليس كذلك!؟

التفت "مراد" إليها في فزعٍ، وسقطت السيجارة من يده، أما الشقراء فالتفتت في برودٍ مصطنع، كان يبدو عليهما التوتر؛ إلا أن الشقراء كانت أكثر ثباتًا منه:

-مريم!!!

-عزيزي! قلقْت عليك! ولكن يبدو أنك كنت مُستمتعًا بوقتك، أعتذر على قطعي تلك اللحظات الجميلة.

قالت جملتها في برودٍ ملحوظٍ، ثم أدارت وجهها، وعادت متوجهة إلى القاعة، ثم فجأة توقفت، كان "مراد" يُتابع خطواتها في قلقٍ، والشقراء مازالت مبتسمة، أما "حسن" فكان قلقًا للغاية، يودُّ لو يُخبئها داخله، ولكنه لم يكن يعلم بقوتها التي أصبحت عليها منذ تركها "يامن".

أمسكت يُمناها بيُسراها، وخلعت خاتم الخطبة، ثم استدارت بجسدها لـ "مراد" مرة أخرى في سرعة، ثم هتفت بصوت عالٍ:

-آآآه نسيت! لديَّ شيء لك يا عزيزي، ربما تجده بنفس مقاسها، أو ربما ينفعك في لعبة جديدة.

ثم ألقت بالخاتم في الهواء، فاستقر بجوار قدم "مراد" الذي انحنى لالتقاطه، وغاصت وسط زحام القاعة، ولم تنطق بشيء ولو حتى كلمة واحدة، فقط ظلّت ترقص حتى كادت تسقط أرضًا.

*****

انقضت ثلاثة أيام حتى تملكّت الشجاعة من "مراد" ليأتي ويُقابلها، كانت بالعمل تتناقش مع زميلة لها في أحد التصميمات، ووقف يرمُقها من خلف الزجاج، كان يتأملها بشغف، وقلبه يدق بشدة، فقد كانت مشاعرة ناحيتها مُحيّرة؛ تارة تشعر بعشقه لها وتارة أخرى تشعر أنها بالنسبة له لا شيء.

محيّرة تلك المشاعر الباردة..

تُجبرك على البقاء بالقرب من صاحبها، وفي الوقت نفسه تُشعرك بالملل منه، بل وتدفعك أحيانًا إلى كره اليوم الذي اقتربت منه فيه، فصاحب المشاعر الباردة إنسانٌ بوجه ملائكي وقلب محب، ولكنه لا يستطيع الاستمرار بهذه الملائكية، فكثيرا ما تكون ملائكية زائفة، تمامًا كملائكية "مراد"..

على الجهة الأخرى من الزجاج كان يقف "أحمد" الذي لازال يحمل لها بعض المشاعر، وينظر لها متأملاً تفاصيل وجهها المندمج في الخطوط والمقاسات، والغارقٌ في الهم والوجع.

نظرة عميقة من "مراد" و"أحمد"، وكلام أعمق بداخلهما، كليهما يحاول اتخاذ خطوة للأمام ليتحدث إليها؛ "مراد" المُخطئ بحقها، وحق قلبها، و"أحمد"

الذي يحبها، ويُحس بالحزن المسيطر على روحها.

أما هي فكانت ترى في الأرقام والخطوط ملاذًا لها؛ انهمكت بالعمل وفرّغت كل طاقتها فيه، لم تتحدث مع أهلها بالموضوع، فقط التزمت الصمت، كلما حاول أحدهم التحدث إليها، رمقته بنظرة عتاب ثم انصرفت من أمامه، الوحيد الذي كان يفهم ما يدور بداخلها هو "حسن"، الذي اقتحم كل الخطوط، والمسافات وعَبَرَ الباب الزجاجي، المؤدي إلى مكتبها، واقترب منها في هدوء مبتسمًا، حاملاً قالبًا من الشوكولاتة.

-حسن!!

-كيف حالك يا مريم!.

-بخير! الحمد للّه.

أهداها قالب الشوكولاتة، فأخذته بلهفة طفلة صغيرة، وشكرته بحماس.

-شكرًا يا حسن!.

-لا تشكريني! أنتي طفلتي المدللّة وأعلم بشغفك بها.

ردت عليه بإيماءة مبتسمة؛ فلم تستطع الرد على كلماته الحانية، والتي كانت كتربيتةٍ على كتفها وعناقٍ لروحها المكسورة، ظل "مراد" واقفًا خلف الزجاج يأكله الغرور، واندفعت الدماء تجري بعروقه، ليس غيرة على "مريم" وإنما غيرة من "حسن" الذي استطاع رسم الابتسامة على شفتيها بأقل مجهود.

الوصول للروح أعمق وأصعب من الوصول للجسد.

أما "أحمد" فشعر بالخيبة للمرة الثانية، فبعد أن أبدت روحه بعض الارتياح بعدما رأى يد "مريم" خالية من خاتم الخطوبة، جاء "حسن" ليُعانق قلبها أمام الجميع دون خوف أو تردد، وقطع عليه الأمل مرة أخرى.

طلب "حسن" منها أن يتحدثا قليلاً، ولكنها رفضت مقابلته خارج المنزل فهي في عرف الجميع مازالت مخطوبة لـ "مراد"، على الرغم من أنها قد ألقت له بخاتمه، إلا أنه كان كما تلقي حجرًا بالبحيرة، عليك أن تنتظر انتهاء الموجات الناتجة عنه ليعود سطح المياه كما كان، تفهّم "حسن" موقفها، وزادت بعينه مكانة وحبًا، سلم عليها وانصرف ملقيًا نظرة أخيرة على عينيها العميقتين محاولا الوصول لأي كلمات تدعوه للراحة، لكنه لم يجد بداخلها سوى الألم والتشتت.

رمقه "أحمد" بنظرة غريبة، لم يلتفت "حسن" لها، أما "مراد" فلم يكتفِ بنظرة كنظرة "أحمد"، ولكنه كان يحمل بداخله عداء وضغينة وكرهًا لـ "حسن"، فكيف يسلب منه "مريم" خطيبته! لابد له من وقفة.. فتتبّعه بعد خروجه من مكان عمل "مريم"، كان على وشك مناداته والعراك معه، إلا أن "حسن" سبقه وركب (تاكسي) وابتعد عنه، وظل هو واقفًا ينظر إليه في تحفز.

انتهت ساعات العمل، فحملت "مريم" حقيبتها وتوجهت للخارج إلا أن هاتفها رن؛ كانت الرنة المخصصة لـ "مراد"، فقد نسيت تمامًا أن تقوم بتغييرها

وتجعلها كرنة الهاتف العادية، ازدادت ضربات قلبها إلى حد كبير، وارتجفت عيناها، أخرجت الهاتف من حقيبتها فنظرت قليلاً للهاتف، كانت تفكر فيما ستفعل هل ستقوم بالرد أم سترفض الحديث، كان قلبها يرفض وعقلها يقول فلتمنحيه فرصة علّه تاب عما فعل، ولكن قلبها انتصر.

رفضت المكالمة، واغلقت الهاتف ثم اتجهت ناحية الباب منصرفة من المكان مع إحدى صديقاتها، لم تكن تتوقع أن يكون "مراد" واقفًا خلف الباب، حاملاً باقة من الورود.

" الورد هو نقطة الضعف التي يملك الرجل الأنثى منها"

حدثت نفسها بهذه العبارة، وابتسمت بسخرية، ناظرة بطرف عينها لـ "مراد" وتركته وذهبت، زاغ نظر صديقتها، حاولت أن تُثنيها عن تصرفها، وطلبت منها أن تنتظر لتتحدث معه.

-"مريم"! سأذهب أنا، وتحدثي معه.

-لا لن أتحدث مع أمثاله.

-ولكنه جاء حتى باب الشركة، وأحضر لكِ الورود ليعتذر، تقبليه يا "مريم"، فهو خطيبك، صحيح أنه أخطأ ولكن لا تجلديه فهو في النهاية رجل!!

-رجل!! وهل أصبح لقب الرجل مبررًا للخيانة!

-لم أقصد ذلك، أقصد أنهم معروفون بانجذابهم للنساء؛ بعكسنا لا ننجذب سوى لمن نحب، وأنتِ قلتِي إنها كانت شقراء ترتدي فستانًا قصيرًا، أي أنها

أثارته بزيِّها.

-إذن فهو شخص يحب المظاهر فقط، ولا يهتم بداخل الإنسان وقلبه.

-ومن في هذا الزمن ينظر للداخل يا "مريم"؟ كلنا سطحيون!

-فلتتحدثي عن نفسك إن أردتي، أما أنا فلا.

-حسنا! أعتذر لكِ ولكن أرجوكِ أن تعطيه فرصة.

-إن أراد فرصة فعليه الحضور للمنزل، أعتقد أنه قد رآني وخطبني من هناك، لا من هنا.

-لديك كل الحق، حسنًا فلتخبريه بذلك وارحلي.

-لن أخبره بشيء، دعيه يقف هكذا.

*****

obeikan.com

(٢١)

في فيلتهم التي تشبه القصور، وفي غرفة تابعة لجناح نومهما جلست "ليندا" على مقعد عالي الظهر، أحمر اللون، بينما جلس "مختار" على الأريكة المقابلة لها يستمع وكأنها تلقي عليه الأوامر، لم يكن يتخيل أحد العاملين بالمجموعة أن المهندس "مختار" صاحب الكلمة المسموعة والنظرة القاسية يكون بمثل هذه الوداعة والاستسلام في المنزل.

ابحث عن المرأة

قصَّت عليه "ليندا" ما حدث مع "مريم" بذلك اليوم في منزلها، وكان هو يجلس منصتًا تتحرك كل أعضاؤه، وتريد النطق باسم "مريم"..

تُراه حقًا يحبها!!، أم هي مجرد الشهوة المسيطرة على حواسه حتى عاطفته! لم يكن يعلم ولكن كل ما يعلمه أنه يوّد الاختلاء بها واستنشاق رائحتها حتى يمتلء كيانه بها.

-"مختار"! لقد أقنعتها بالعودة للعمل.

-أمر جيد!.

-لا أريد مشاكل مرة أخرى يا "مختار"، ألا تكفيك علاقتك بـ "نسرين"؟ ابتعد

عن "مريم" نهائيًّا، وإلا ستكون الفضيحة مدوية.

-لم أفعل لها شيئا يا "ليندا"، ومن "نسرين" التي أنظر لها، وأنا معي سيدة النساء.

-أكره اللف والدوران يا "مختار"، أنا أعلم كل ما يدور بالشركة، والمجموعة كلها وأنا بغرفة نومي، لا تجبرني على فعل أشياء لا أودّ فعلها.

-هذا ظلم.

-ألست على علاقة بـ "نسرين"؟

-لا!.

-حسنًا! لماذا تذهب لمنزلها إذن!!

-أنا.. أنا لا أذهب لأي مكان.

انتفضت "ليندا" من مكانها، وبدت عليها ملامح الغضب الشديد، فاقتربت من "مختار" وأشارت لها بسبَّابتها قائلة في غضب:

-كفاك كذبًا يا "مختار"، ان أردت الكذب على العالم أجمع لا تفكر بالكذب عليّ، اكتفي بها نزوة يا عزيزي ولكن لا تقرب لـ "مريم"، ولن أحذرك مرة أخرى.

تركته وانصرفت، أما هو فجلس يفكر فيما سيفعله مع "مريم"، لم يكن يعمل حسابًا لوجود "فارس" بنفس المكتب معها، لقد أصبح لها الآن حارسًا؛ وليس أي حارس؛ إنه "فارس" الذي يقفز حبها من عينيه كلما نظر إليها أحد، كيف يمكنه

التخلص منه الآن! وكيف ينفرد بها!

ظلَّت هذه الأسئلة تدور برأسه حتى غفا على الأريكة التي كان يجلس عليها، وتركته "ليندا" تلفحه برودة الطقس حتى الصباح، علّه يفقد الإحساس بجميع أطرافه..

*****

ليلة باردة، مظلمة، كئيبة، مليئة بالكوابيس؛ تلك هي الليلة التي تلت زيارة "ليندا" لـ "مريم"، فقد كان يومًا مليئًا بالأحداث؛ بدءًا بالأوراق التي وجدتها أمام الباب، نهاية بالزيارة المقنعة من "ليندا" مع "فارس".

إنها الثانية صباحًا؛ تدثرت "مريم" بغطائها الثقيل في سريرها، بعد أن تناولت كوبًا من الينسون والأعشاب المهدئة للأعصاب، بعد الدواء المهدئ أيضا، فلم تكن تستطيع النوم دون تلك المهدئات، ولكنها حتى بعد كل ذلك لم تستطع النوم؛ فكلما أغمضت عينيها رأته يلهث خلفها يحاول الوصول إليها، تظل تجري وتجري حتى تتعثر قدمها بحجر صغير فتسقط أرضًا، فيشن هو هجومه عليها محاولاً اغتصابها، وحين يفشل في ذلك يحاول خنقها حتى يشعر بصوت أنفاسها المتسارعة تتلاشى شيئًا فشيئًا، ويسكن جسدها عن مقاومته، فيطبع قبلة باردة فوق شفتيها يتبعها ببضع قبلات في أماكن متفرقة، ثم يذهب عنها، ولكنه لم يعرف أنها لم تفارق الحياة، ولكنها فقط أصيبت بغيبوبة صغيرة جراء صدمتها وسقوطها أرضًا، وكأن الله قد أنعم عليها بتلك الغيبوبة لتنجو من عدوانه عليها!

obeikan.com

تكرر الكابوس عدة مرات متتالية في كل مرة كانت تفيق من غيبوبتها وتستيقظ من نومها لتجد نفسها بسريرها ولم تبرحه، تستعيذ بالله من الشيطان ثم تعاود النوم لترى نفس الكابوس مرة أخرى.

لم تكن ترى وجه المعتدي ولكنها كانت تألفه، وكأنها تعرفه أو سبق لها معرفته، وحين استيقظت للمرة السادسة على نفس الكابوس، كانت روائح الفجر تلوح بالأفق والهواء البارد يغلف تواشيح ما قبل الفجر فيزيدها جمالاً، جلست "مريم" تُناجي ربها بعد فراغها من صلاة الفجر، وفي وسط ابتهالها ومناجاتها سمعت صوتًا بالخارج، فزعت منه، فكان الوقت مبكرًا جدًّا على قدوم أحد أو نزوله على السلم.

تُراه من يكون؟؟!!

كانت تعلم أنها لو خرجت ناحية الباب لن ترى مَنْ صاحب ذلك الصوت، لذلك توجهت إلى الشرفة. تلفَّحت بطرحتها حتى لا تُصاب بالبرد، إلا أن لفحة الهواء جعلت عيناها تدمع، لذا لم تتمكن من رؤية الشخص الخارج من المنزل رؤية جيدة فقد أصبحت تراه من خلف دموعها، أما وقد خرج بالفعل فقد تمكنت من رؤية ظهره فقط، كان طويل الجسد هزيل، إلى حد غريب، يبدو عليه بياض البشرة الذي رأته من كف يده الفارغ من قفازه، يبدو أنه قد خلع أحدهما، ولم تتمكن من رؤية شعره فقد كان يغطي رأسة بقبعة صوفية، كشبحٍ شقَّ الظلام في هدوءٍ وذابَ بين نسمات الفجر الباردة.

عادت للداخل متذكرةً اقتراب موعد استيقاظ ياسين للمدرسة، اقتربت من

جبينه وقبَّلته وتحسسته فوجدت جسده ساخنًا إلى حد كبير..

"يبدو أنه أصيب بالبرد بسبب مطر الأمس"

حاولت إيقاظه ولكن دون جدوى؛ كان فقط يهمهم بكلمات غير مفهومة، ثم بدأت شفتاه بالتحرك وبدأت أسنانه بالتخبط، فدثرته جيدًا وتوجهت ناحية الثلاجة باحثة عن دواء خافض للحرارة، ولكنها وجدت الزجاجة شبه فارغة، رفعت رأسها لأعلى ممسكة بمقدمة رأسها مع شعرها قائلة في توسُّلٍ:

-يا الله! وماذا أفعل الآن؛ لا أستطيع تركه الآن لإحضار دواء من الصيدلية، يارب ساعدني!.

صمتت قليلاً واغرورقت عيناها بالدموع ورددت:

-يا الله، يا الله، أين أنت الآن يا "فارس"، أين أنت حين أحتاجك؟

وكأن الله استجاب لها، فلم تكد تخرج من المطبخ حتى رنَّ جرس الباب، وما ان سمعت صوته حتى جرت ناحية الباب مرددة في داخلها:

-"فارس"! أحمدك يارب، الحمد لله.

فتحت الباب بلهفة دون أن تنظر إلى العين الدائرية الصغيرة كما تعودت، فقد كانت لهفتها على من يدق الباب الآن أكبر من خوفها مما كان من الممكن أن يكون خلفه.

ظهرت عليها علامات الخيبة، فلم يكن "فارس"، ولكنه كان عم "حسين" حارس

العقار ممسكًا الجريدة اليومية بيديه كالعادة، ويقدمها لها:

-صباح الخير يا بشمهندسة!

-صباح النور يا عم "حسين"!

-اتفضلي الجريدة.

-شكرًا لك يا عم "حسين".

همَّ "حسين" بالانصراف، ولكنها استوقفته ليحضر لها الدواء من الصيدلية القريبة، فوقف منتظرًا حتى تحضر له المال اللازم للشراء، وبينما تدخل الغرفة وضعت الجريدة على المنضدة القريبة منها فسقطت أرضًا وسقطت منها ورقة أخرى وردية اللون، توقفت أمامها قليلاً وازدادت ضربات قلبها، منادية بصوت عالٍ على عم "حسين"، منادية بصوت يُشبه الصراخ.

-عم "حسين".

-خيرًا يابشمهندسة! ماذا حدث!!

-انظر ما هذا.

-إنها ورقة سيدتي.

-إنها ورقة ثالثة مثل التي وجدتها بالأمس!!

-لا أعلم كيف جاءت إلى هنا صدقيني، فقد فتحت صندوق البريد الخاص بكِ ككل يوم وأخرجت الجريدة منه، واحضرتها اليك فورًا.

obeikan.com

-ومن وضعها!!؟

-لا أعلم يا بشمهندسة! صدقيني لقد كنت نائمًا والباب مغلق، لم أفتحه سوى منذ دقائق حين جاء موزع الجرائد.

-حسنًا انتظر لأجلب النقود، ولتذهب لاحـ...

قاطع كلامهما "فارس"، الذي ذُعر حين رأى الباب مفتوحًا، فدخل دون استئذان، فقط وجداه يقف أمامهما، وعلى وجهه علامات الخوف، فهتفت "مريم" في سعادة وارتياح:

-"فارس"، شكرًا على مجيئك الآن.

-ماذا حدث؟ ولمَ تركتِ الباب مفتوحًا هكذا؟ ولمَ صوتك مرتفع؟

-لا شيء، فقط "ياسين" حرارته مرتفعة وكنت سأرسل عم "حسين" ليحضر لي دواءً له من الصيدلية القريبة.

فتوجه "فارس" لعم "حسين" شاكرًا، وطلب منه الذهاب على أن يذهب هو لإحضار الدواء، فانصرف "حسين" في هدوء وأغلق الباب خلفه.

-ماذا يحدث يا "مريم"؟ لا أعتقد أن هذا الانزعاج المرسوم على وجهك هو فقط من حرارة "ياسين" المرتفعة، فبالتأكيد تلك ليست المرة الأولى، وأنا على علم بقوتك في مواجهة تلك الأمور، أخبريني ما الأمر؟ أراكِ هشة جدًا اليوم!!

-لا أعلم يا "فارس" مازالت الأوراق تأتيني ولا أعرف من يرسلها إلي؟

-أي أوراق، سأحكي لك كل شيء، ولكن بعد أن تحضر دواء "ياسين" أو فلتجلس أنت بجواره، وسأذهب أنا بسرعة.

-مجنونة أنتِ؟ وهل سأتركك تذهبي وأنا أجلس بالمنزل؟ فلتبقي بالقرب منه وأنا لن أتأخر..

-حسنًا فلتذهب، وأنا سأقوم بعمل كمادات المياه الباردة له حتى تأتي بالدواء.

انصرف "فارس" لإحضار الدواء، وجلست "مريم" بجوار "ياسين" تبدل قطع القماش المبللة بالماء البارد بين جبهته ويديه، وهي شاردة الذهن فيما يحدث لها. عاد "فارس" بالدواء، وجلس إلى جوار "ياسين"، بينما جلست "مريم" على الناحية الأخرى مستمرة بعمل الكمادات للصغير.

-يبدو عليكِ الإرهاق يا "مريم"!.

-لم أنم طوال الليل..

-ولمَ كل هذا؟ أهو موضوع "مختار" و"ليندا"؟

-كل شيء يا "فارس"، كل شيء، لقد أصبحت هشَّة بالفعل، ولم أعد أعلم كيف أتصرف، كل شيء يقف ضدي، وكل شيء أتى بوقت واحد، لقد تعبت، حقًّا تعبت..

بدأت دموعها بالتساقط، كانت دموعها ساخنة كما هي الحرب الدائرة بداخلها، كثير من النزاعات بين وحدة، وقوة، وضعف، وهشاشة، واحتياج، وحب، وخوف..

خائفة هي جدًا من الحاضر والقادم، لم يعد الماضي يمثل لها شيئًا إلا أن بعض

obeikan.com

أشباحه مازالت تطاردها، هل نجحت فعلاً في التخلص منها؟ أم مازال هناك بعض العوائق الموجودة بالذاكرة وبعض الذكريات الملتصقة بالجسد! لم تعد تعرف سوى التفكير فيما ستفعل مع "مختار" والأوراق الوردية التي تجدها..

قام "فارس" من مكانه وجلس إلى جوارها، كان يود عناقها، كان يود أن يحمل عنها بعض الهم، كان يود لو يُطفئ لهيب تلك الحرب الدائرة بداخلها ولكنه لا يستطيع فعل شيء سوى الجلوس بجانبها ومواساتها وشد أزرها وتقويتها.

-"مريم"! أرجوكِ كفاية بكاء.

-تعبت يا "فارس".

-أعلم وأشعر بما تمرين به، ولكن الانفعال والبكاء لن يحلّوا شيئا، اهدئي وأخبريني بأمر تلك الأوراق التي ذكرتيها.

قصّت عليه كل شيء يخص الأوراق التي تجدها، وكذلك الصوت الذي سمعته فجرًا، والرجل النحيل الذي خرج من المنزل بعد ذلك الصوت، حاولا التفكير معًا للوصول إلى نهاية لهذا الأمر.

يظل كل فرد محتفظًا ببعض الأشياء المستترة في ذاكرته، ولا يرغب في إطلاع أحد عليها..

طلب منها "فارس" أن ترتاح قليلاً على أن يظل هو بجانب "ياسين"؛ إلا أنها أبت أن تترك "ياسين"، وأصرت على جلوسها بجانبه حتى تطمئن لانخفاض حرارته.

ظلت بمكانها تلف بذراعها الأيمن رأس "ياسين" وتميل بجسدها قليلاً ناحيته، تحرك "فارس" إلى طرف السرير حتى تأخذ كامل راحتها في الجلوس، فرفعت إحدى قدميها تحت الغطاء فقد كان الجو شديد البرودة وما ان شعرت بالدفء والاطمئنان حتى غطّت في النوم.

انخفضت حرارة "ياسين"، وبدأ يفيق، فتّح عينه فوجد أمه تحاوط رأسه بذراعها، ووجد "فارس" على طرف السرير، فابتسم له، فشاور له "فارس" أن اصمت، وذلك بوضع سبابته أمام شفتيه، ففهم "ياسين" أنه يطلب منه الصمت لأن "مريم" نائمة، فقلده بنفس الحركة وكتم ضحكته، ثم تزحزح قليلاً ناحية اليمين حتى يفسح مجالا لـ "مريم" لتنام، وما أن ابتعد عن يدها حتى تحركت تجاهه وكأنها لا تريد له أن يبتعد عنها، حتى وهي نائمة.

ظل يتزحزح قليلاً قليلاً حتى أصبحت "مريم" في موضع مريح بالسرير، فرفع "فارس" قدمها الأخرى من الأرض، ودثَّرها جيدًا تحت الغطاء، ثم ذهب لغرفتها مع "ياسين" الذي انسحب من بين يديها في هدوء، وأحضر "فارس" غطاءً من غرفتها ودثَّرها جيدًا، ثم خرج لتجهيز بعض الطعام لإفطار "ياسين" ولتجد هي ما تأكله حين تستيقظ.

-ما رأيك أن تجلس بجوار والدتك، حتى أحضر لكَ بعض الطعام؟

-لا! أريد أن أبقى معك!

-هل تعرف مكان كل شيء بالمطبخ؟

-نعم! أمي تعلمني كل شيء، ألستُ رجلاً يعتمد عليه؟

-طبعًا طبعًا! رجلٌ ويُعتمد عليك، حسنًا أيها الرجل فلتُخبرني أين أجد الزّبد؟

-بالرفِّ الثالث بالثلاجة على اليمين.

-وااااو، أنت تعرف مكانه فعلا!!

-أمي منظمة للغاية؛ يمكنها عمل وليمة كاملة دون وجود كهرباء، أضمن لك هذا.

-جميلة هي "مريم"..

-جميلة جدًا، ومحبوبة من الجميع، أليست أمي!

-ومن يشهد للعروس؟

-ابنها.. أو رجل يحبها!!

لاذا بالصمت، وكأنه لم يعُد هناك حروف تُنطق بعد حروف "ياسين" عن الحب، وهل بعد الحب شيء!

لم تمر الساعة وقد استيقظت "مريم" من نومها، لم تشعر بالذُّعر لعدم وجود "ياسين" بجوارها، فحين وجدت غطائها فوق غطاء "ياسين" علمت أن "فارس" أحضره لها ولابد أن "ياسين" قد أصبح بخير وأنهما بالخارج.

نهضت سعيدة؛ مرت أعوام لم تستيقظ فيها بتلك السعادة، فالشعور اليوم مختلف؛ فقد استيقظت وهناك أنفاس أخرى بالمنزل، أنفاس دافئة، محبة،

تُشعرها بالطمأنينة؛ كان هناك "فارس".

وهل تحب أحدًا بعد "ياسين" كحبها لـ "فارس"!! ولكن ما باليد حيلة، لا يمكنها الإفصاح عن ذلك الحب، ولا يمكنها منعه، وإن اعترفت حتى مع يقينها بحب "فارس" لها، ماذا بعد الاعتراف!! لا شيء.. لن يقبل المجتمع بهذا الحب، ولا هذه الزيجة، كيف وهي أم لـ "ياسين" أن تتزوج ممن لم يسبق له الزواج كـ "فارس"!! طردت الأفكار الكئيبة كمجتمعها من رأسها، وتوجهت للخارج لتنضم إلى محبوبيها، "فارس" و"ياسين".

جميلٌ هو الجو الأُسَرِي؛ أن تسود روح المحبة والود بين الجميع، أن يتحمل كل فرد مسئوليته تجاه الآخر، ويقوم بها بحب لا على سبيل الواجب!

كانا يجلسان على الأريكة أمام التلفاز؛ "فارس" يجلس ساندًا رسغه إلى المسند الأيسر مُمسكًا وسادة صغيرة بيد، ويده الأخرى تداعب شعر "ياسين" بأطراف أصابعه، وقد تمدد "ياسين" بجواره ساندًا رأسه على فخذ "فارس"، وقد غطى جسده بغطاء خفيف.

ابتسم "فارس" لرؤيته "مريم" تهل عليه بزيها المنزلي متدثرة بردائها المزركش الطويل، رافعة شعرها لأعلى بتوكة صغيرة تاركة بقيته يتدلى خلف ظهرها كذيل الحصان وقد تركت غرتها تنساب على جبهتها لأول مرة منذ فترة طويلة!

كاد يقوم من مكانه، وأمسك رأس "ياسين" لينزلها عن فخذه، إلا أنها أشارت له

بالبقاء حين رأت "ياسين" مغمضًا عينيه مسترسلاً في النوم، فخضع "فارس" لإشارتها وتتبعها بعينيه، حتى جلست على المقعد القريب منه، ووضعت قدمًا فوق الأخرى ثم أمسكت بغرتها حاولت رفعها في شيء من الخجل.

أحس "فارس" بخجلها فحاول كسره ممازحًا.

-وهل الخوف يُجمّل الإنسان إلى هذا الحد؟!

ضحكت "مريم" بصوت مكتوم واضعة يدها على فمها ويدها الأخرى ترفع غرتها؛ فلم تشأ إيقاظ "ياسين" الذي أدار جسده وجعل وجهه للداخل وقد تكور على نفسه وضم ركبتيه إلى صدره وكأنه يحتمي بجسد "فارس".

-اصمت يا فارس!.

-حسنًا أنا صامت ولن أتكلم.

ووضع يده على فمه واغلق عيناه ضاحكًا، كان المكان معبئًا بنكهة العشق، ولكن كيف يستمر هذا العشق في وجود من يُتابع من خلف الستار !

تذكر "فارس" أمر الورقة التي وجدتها "مريم" بين صفحات الجريدة، والتي لم يقرءَاهَا بعد لانشغالهما في "ياسين"، فطلب من "مريم" أن تأتي بها ليقرءَاها معًا، فقامت "مريم" وأحضرت الورقة والتي كانت بنفس اللون الوردي ومطبقة إلى أربعة أجزاء كسابقاتها، جلست في مقعدها ومدت يدها لـ "فارس" ليقرأها فأمسكها "فارس" وفتحها وبدأ بقراءة ما بها :

عزيزتي "مريم"؛

عليكِ أن تقلقي ممّن يتربص بكِ، لا ممن يحاول حمايتكِ..

كان كل حرف يقع على أذن "مريم" كصاعقة، متوترة للغاية هي وخائفة بالفعل، ازدادت حيرتها من تلك الرسالة، وهل هناك من يتربص بها، وأيضًا من يحاول حمايتها!!

فجأة هي تمثل أهمية للجميع؛ يتربص بها أحدهم، ويحاول حمايتها آخر، ويهددها ويتحرش بها ثالث، ويحبها رابع!!

*****

(٢٢)

على صوت فيروز الملائكي، في غرفتها جلست "مريم" تخط قائمة ما تحتاجه لتجهيز منزل الزوجية، وقد مر على زفاف "ندى" شهرين، لم ترَ "مريم" خلالها "ندى" بهذه السعادة، التي كانت تظهر على وجهها كلما ذهبت معها لشراء احتياجاتها، فقد كانت تخبرها بأن الزواج هو أجمل شيء يمكن أن يحدث لفتاة في حياتها، وكانت تقص عليها العديد من المواقف المرحة السعيدة التي مرّت عليها مع زوجها وتوأم روحها، وكيف كان يبذل ما بوسعه لتشع "ندى" من روحها بهجة وأمل.

بعد أسبوعين من تمام الزفاف، وبعد أن أتى "مراد" إلى منزلها يجر أثواب الندم ويقدم العديد من الاعتذارات والتبريرات لما فعله، وافقت "مريم" على العودة إليه مرة أخرى، وانفرج فمه من السعادة، كان يتودد إليها كثيرًا مثلما كان يفعل قبل الخطوبة.

عجيب أمر المحب؛ فقط حين يشعر باقتراب فقد حبيبته يتمسَّك بها بشكل غير عادي!

طرقٌ خفيفٌ على باب حجرتها، تبعه صوت أمها.

-مريم! أيمكنني الدخول؟

-بالطبع يا أمي! تفضلي.

دخلت والدتها تحمل صينية يتوسطها كوبين من عصير الليمون، وضعتها على طرف السرير حيث تجلس "مريم" وجلست بجوارها، وبابتسامة حانية بدأت حديثها الذي لم ترتح له "مريم"، فبعد صينية الليمون، توجست "مريم" خيفة، فهي غير معتادة على هذا الأمر من أمها ولا أي من أفراد أسرتها.

"ما الأمر ياترى؟ فقد وافقت على مراد؟ ماذا يريدون مني هذه المرة؟"

حدثت بها "مريم" نفسها، وهي ترتشف أولى رشفاتها من كوب العصير ناظرة إلى أمها التي همَّت بالحديث.

-كيف هي علاقتك مع "مراد" هذه الأيام يا "مريم"؟

-بخير يا أمي. كل شيء على ما يرام.

-أمر جيد! حسنًا لقد أغلقت خط الهاتف للتو مع والدة "مراد"، وقد طلبت مني أن أطلعك على أمر ما، وآخذ رأيك به.

ازدادت ضربات قلب "مريم"، وشعرت بالاضطراب.

-وماهو الأمر يا أمي؟

-حسنًا! ترى والدة "مراد" أنه سيكون من الأفضل أن نعقد قرانك على "مراد".

توقفت الكأس المملوءة بالعصير في منتصف الطريق بين فمها والصينية، ارتعشت يدها؛ لم تعرف ماذا عساها أن تقول، هل تقبل بعقد القران وينفذ

الأمر وتصبح لـ "مراد" مجتمعيًّا ودينيًّا، أم ترفض الأمر وتدخل في صراع مع أسرتها ومع "مراد" أيضًا!

تعجبت والدتها من صمتها ورعشة يديها، فأخذت منها الكوب الذي كاد يسقط منها، ووضعته على الصينية وسألتها في تعجب.

-ما الأمر يا "مريم"؟ لماذا خِفتي هكذا؟

- ها.. لا شيء يا أمي، فقط تفاجأت بالأمر.

-تفاجأتي؟ أولم تتوقعي أن يُعقد قرانك يومًا، كفاكِ ميوعة واستهتار.

-ميوعة؟؟ واستهتار؟

-أنتِ لا تريدين تحمل مسئولية الارتباط، أمازلتِ تفكرين بـ "يامن"؟

-ومن أتى بسيرة "يامن" الآن؟ وماذ تقصدي بتلك الكلمات يا أمي؟

-أقصد ماذا فعلتي مع "يامن"، لتتخلصي من خطوبة "عمر"، ثم تترددي في الموافقة على "مراد"، وها أنتي الآن مرعوبة من عقد القران، أكنتِ متوقعة أن تتخلصي من "مراد" هو الآخر؟

-أمي أرجوكِ كفاكِ، أيّ أمٍّ أنتِ؟

-أمك التي تريد مصلحتك.

-لو كنتِ كذلك فعلا لكنتِ عرفتِ أن أخلاقي لا تسمح لي بأن أخطأ مع "يامن" أو غيره، مازلتِ تمتلكين العقلية الرجعية يا أمي، مازلتِ ترين أن أي علاقة بين

شاب وفتاة هي علاقة يجب أن يكون بها القليل من الإثم!!

-اخرسي، ولا تُكملي حديثك، يبدو أنك بحاجة لبعض التربية من جديد، كنت مخطئة حين جئت لآخذ رأيك بالأمر، سأخبر والدة "مراد" بأننا موافقون على عقد القران بأقرب وقت.

مذهولة هي؛ لا تعرف ماذا حدث، أوماذا قالت ليكون رد فعل أمها هكذا!! كانت كمن وضع الملح على جرح ساخن!! "لمَ تتصرف معي بهذا الشكل؟ لمَ هي مُصرة على كرهي وابتعادي عنها؟ لمَ لم تكن ككل الأمهات التي أعرفهن!"

قالتها وهي تضع يدها فوق رأسها والدموع تنهمر من عينيها بغزارة، وحيدة هي وسط أسرتها! أين ستجد الاحتواء والأمان إن لم يكن بينهم؟ أين ستجد حضنًا يضم أوجاعها ويطيبها؟ من يستمع إليها ويهتم بمخاوفها سواهم؟ فهي وكأي فتاة من حقها أن تخاف على مستقبلها؛ فهو المجهول الذي ربما لن يمكنها تغييره إن كان غير ملائم لها. ولكن كيف يمكنها ذلك؟ فقط عليها أن تخضع لرأيهم وتقتنع به، وتنفذه دون نقاش.

متناقضين جدًا!! يريدون لها الاعتماد على نفسها، ثم في مثل هذه الأمور عليها أن تمتثل لأوامرهم وتقتنع بآرائهم!! ولكنها لن تستسلم بتلك السهولة، لذا أمسكت بالهاتف وأخرجت رقم والدة "مراد" واتصلت بها.

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام.

obeikan.com

-كيف حالك يا "مريم"؟

-بخير سيدة فاطمة.

-سيدة فاطمة!! ألم نتفق على أن تناديني ماما.

ردت "مريم" في حزم، وكأنها لاتريد أن تقطع حبل أفكارها المرتبة:

-حسنًا ليس هذا وقت انتقاء الألقاب، هناك أمر هام أريد أن أتحدث معكِ بشأنه.

-ماهو؟

-لقد أخبرتني أمي بشأن عقد القرآن.

-نعم! أنا طلبت منها ذلك، أنا أعتقد أنه سيكون الحل الأمثل لفض نزاعاتك مع "مراد".

-الحل الأمثل؟

-بلى! فحين تكونين زوجته ستنتهي كل المشاكل.

-وهل عقد القران هو ما يحل المشاكل هذه الأيام؟

-هذه الأيام والأيام الماضية، فالمرأة حين تكون مسئولة من رجل يملأ عليها حياتها، وهي تملأ عليه حياته تنتهي أي مشاكل بينهما، غير أن هذا الأمر لن يعطي أحد فرصة بإلقاء خاتم الخطوبة أرضًا بأي وقت وبكل سهولة.

-آآه.. حسنًا الآن! فهمت الأمر، وهل "مراد" على علم بشأن أمر عقد القران أم

obeikan.com

أنه مثلي من المفترض أن ينفذ أوامر السيدة فاطمة؟

-فلتتهذبي في حديثك معي يا فتاة، سأخبر "مراد" بالأمر وأنا على يقين بأنه سيقنعك به.

أغلقت الخط والخيبة تلفها؛ يبدو أنه لا مفر من الأمر، خاصة بعد مكالمة "مراد" التي أسفرت عن نقاش طويل بينهما أدى في النهاية إلى موافقة "مريم" على عقد القران على أن يتم بعد عدة أسابيع ريثما ينتهيا من تجهيزات الحفل، وحجز قاعة عقد القران والمأذون.

*****

طقس خانق، حار، عاصفة ترابية تضرب المدينة، وعاصفة وجدانية تعبث بعقلها، حين علمت بأمر سفر "حسن" مرة أخرى، بعد أن انتهت أجازته، كانت تود لو تراه وتتحدث معه، أو تستنشق عطره، كانت تود لو تتركه ينظر لعمق عينيها مرة أخرى، دون قيود، دون عيون تلاحقهما، دون اكتفاء.

أمسكت بهاتفها وأرسلت له رسالة قصيرة تطلب منه لقائها بعد انتهاء ساعات عملها، فبادرها بالموافقة على الفور.

ثقيلة هي الدقائق لا تمر، وطويل هو النهار لا يريد أن ينقضي، كثيف هو الغبار المنتشر بالجو، والذي تسرب إلى داخل مكتبها وصنع طبقة خفيفة فوق سطحه، أناملها الشاردة كعقلها، تخط عليه بضع خطوط، كقلب أو ربما وجه، لا تعلم ماهية هذا الشكل، أكملت شرودها ومازالت أناملها هائمة فوق سطح المكتب

obeikan.com

لترسم وجها لم يظهر من ملامحه شيء سوى العينين !

عميقة تلك العيون التي رسمتها، اقتربت منها صديقتها ومعها "أحمد" الذي لفتت انتباهه تلك العيون، وكأنه رآها من قبل، وشعر بالانكسار حين رآها.

-"مريم"، ماذا تفعلي؟

-ها !!. لا شيء، فقط قد شرد عقلي قليلاً.

-يبدو أن أناملك شردت هي الأخرى؛ لتخط لنا لوحة جميلة من الغبار.

-ماذا تقصدي؟

-أنتِ فنانة مبدعة يا صديقتي حقًا، ولكن أخبريني لمن تلك العينين؟

-عينين؟

لم تدرك "مريم" أنها قد رسمت عيني "حسن" الذي تنتظر لقاءه بشغف، شعرت بالارتباك.

-ها! لا أدري، كنت شاردة حين رسمتها، ولا أعرف لمن تلك العينين؛ فقد تكون لأي أحد.

فرد أحمد بابتسامة منكسرةٍ.

-أعتقد أني اعرف لمن تلك العينين، أذكر أني رأيتها من قبل، هنا بهذا المكان الذي أقف فيه تمامًا.

زاد ارتباك مريم؛ فهي تعلم ما يرمي إليه أحمد، وتعرف ماذا يقصد بكلامه،

أرادت إنهاء الحديث أو تحويل مسارة بلطف، فقامت من مكانها متجهة صوب باب المكتب، ناظرة ناحية الزجاج الخارجي ثم استطردت:

-يبدو أن العاصفة الترابية لم تنته بعد، ويبدو أننا سنختنق بها.

-بلى يا صديقتي!

نجحت في الهروب من الموقف، وساعدها هاتفها الذي رن؛ وكان المتصل على غير هواها؛ فقد كان "مراد". أمسكت الهاتف مسرعة، وظلت تنظر لشاشته المضاءة باسم "مراد" وصورته، مترددة في الرد كالعادة، فهي لم تتلهف يومًا للرد عليه، ولا تدري ما السبب! وفي الاتصال التاني اتخذت القرار بالرد وكالعادة أيضًا:

-ألو!!

-كيف حال حلوتي الصغيرة؟

-بخير يا "مراد" كيف حالك انت؟

-أنا بخير، مادمتِ بخير يا عزيزتي.

-أدام اللّه خيرك!

-وأدام وجودك! أريدك بأمر هام يا صغيرتي.

-ماهو؟

-سأمر عليكِ لأصطحبك بعد انتهاء عملك، ما رأيك؟

ارتبكت مريم، وشعرت بالخوف من كلمات "مراد"، ترى هل عرف بشأن مقابلتها مع "حسن"؟ أم أنها مجرد صدفة، ولماذا يهاتفها ليخبرها برغبته في رؤيتها اليوم، ولمَ اليوم بالذات؟ حاولت لملمة شتاتها، يجب أن تجد مخرجًا، فهي لا تريد أن تلغي موعدها مع "حسن"؛ فسوف يغادر باليوم التالي، ولا يمكنها أن تدعه يسافر دون أن تراه وتتحدث معه، لحظات قليلة مرّت كدهر، وأخيرًا جاءتها الفكرة؛ رتبت عقلها في لحظات، وأكملت حديثها معه بصوت مرتعش:

-ها.. تمر عليّ، لا لا لا يمكن ذلك اليوم؟

-لماذا؟

-سأذهب مع صديقتي لشراء بعض الأغراض الخاصة بها.

-فلتعتذري منها اليوم، واذهبي معها غدا.

-لا أستطيع! فهي بحاجة لشراء بعض الأغراض لتحضر بها فرح ابنة عمها والذي سيكون بالغد، وليس هناك وقت.

-ولكني أريدك بأمر هام، غير أني اشتقت لكِ.

-فلنتحدث بالأمر تليفونيًّا بعد عودتي للمنزل، ولنؤجل أمر المقابلة للغد.

-حسنًا! لا بأس!

أغلقت الخط، وزفرت زفرةً طويلة تنفسَّت معها الصعداء، وشعرت بالراحة أخيرًا فقد تخلصت من مأزق عميق.

"يا اللّٰه، الحمد لك حمدًا كثيرًا"

قالتها في نفسها، وشردت مرة أخرى تتخيل ما سيحدث في لقائها مع "حسن"!

كيف سيكون اللقاء، وماذا سيقول عنها، وعن زيها الأنيق، ماذا سيرى داخل عمق عينيها، ماذا وماذا، وألف كيف!

*****

مسحة خفيفة من ملمع الشفاة، مع خط رفيع من الكحل شديد السواد، كانا هما زينتها وتأنقها، مع قميصها البنفسجي وبنطالها الجينز، وشعرها الأسود المتموج خلف ظهرها في جرأة وعفوية. أمسكت بحقيبتها وهاتفها، وتوجهت للخارج مع صديقتها، والتي أخبرتها أنها ستذهب لمقابلة "مراد"!

كاذبة!.. نعم هي كذلك، تكذب على مراد، وتكذب على صديقتها، وتكذب على المجتمع بأكمله، تكذب على الجميع إلا هي و"حسن"، ولكن إن نَظَرَتْ هي للأمر بشكل مختلف وزاوية جديدة ستجد أنها فقط تُخبر كل منهم بما يريد أن يسمع!

هل سيسمح لها "مراد" بمقابلة "حسن"؛ صديقها الوحيد والرجل الوحيد الذي يفهمها ويشعر بكل ما يحدث داخلها!؟ هل ستتقبل صديقتها فكرة أنها ستذهب لمقابلة شخص آخر، غير خطيبها حتى وان كان صديق طفولتها وجارها؟! هل سيتقبل المجتمع أن تتم مقابلة بين شاب وفتاة دون أن يحدث بينهما شيء ما؛ كلمسة يد أو مشاعر تتوهج داخلهما أو ما شابه!!

الكل سيرفض، وستطالهم الاتهامات، وربما اختلق كل فرد من أفراد المجتمع

قصة مختلفة بخياله تستلزم وأْد "مريم" ورجْم "حسن" لمجرد أنهما مجرد روحين لشخصين أرادا الحديث واللقاء قبيل سفر أحدهما! لذا قررت "مريم" الكذب ربما تحصل على بعض الهدوء والخصوصية بهذه الكذبات..

كان يقف على الجهة المقابلة من نهاية الشارع الموجود به مقر عملها، تمامًا حيث طلبت منه انتظارها بعيدًا عن عيون أصدقاء عملها، مرتديًا قميصًا بنفس لون قميصها، وبنطالاً من الجينز، متعطرًا بعطره القوي المميز، لوَّح لها بيده فابتسمت ابتسامة واسعة، فأصاب سهمها قلبه، وتوجهت إليه مباشرة.

مدت له يدها، فمد يده لتعانق كفها البارد رغم حرارة الجو الخانقة والغبار العالق به، إلا أن الهواء المحيط بهما كان نقيًا إلى حد كبير!! ربما طغى النقاء الداخلي لروحيهما وفرض نفسه وسط السحاب الكثيف من الغبار!

-مساء الخير!

-مساء النور! كيف حالك "مريم"؟

-بخير الحمد للّه، اعتذر عن تأخري؛ بالكاد استطعت التخلص من مراقبة صديقتي.

-لا بأس يا عزيزتي! لا تشغلي بالك، بإمكاني انتظارك عمرًا كاملاً.

تركت كلماته أثرًا قويًا في نفسها، فبدت عليها ملامح الخجل، واحمرت وجنتيها بشدة، إلى الحد الذي جعل "حسن" يضحك حتى دمعت عيناه! توجها معًا لأحد المطاعم القريبة، وقد سارا المسافة حتى هناك على الأقدام، سارا بجوار

بعضهما دون أن يتفوه أحدهما بكلمة واحدة، وكأنهما يخشيان الحديث، وكأن الكلمات كانت ستشكل حاجزًا بين روحيهما المتعانقتين في صمت.

جلسا بطاولةٍ قريبةٍ من الزجاج الخارجي لواجهة المطعم المُطِل على النيل، كان المشهد ساحرًا تمامًا كعيني "مريم".

طلب "حسن" الطعام من القائمة، بينما ظلّت "مريم" شاردة بنظرها تجاه صفحة النيل اللامعة من انعكاس الأضواء عليها، فرسمت عليها لوحة مضيئة بألوان مبهجة مما زاد من شعور البهجة داخلها. نظر "حسن" إلى وجهها الطفولي المبتسم، شعر وكأنه يرى "مريم" الصغيرة ابنة العشرة أعوام، غاص بعمق ابتسامتها حتى وصل إلى قلبها، الذي انقبض فجأة، فعاود النظر إلى وجهها مرة أخرى فوجد أن الابتسامة المرسومة عليه قد اختفت، وحلَّت نظرة شاردة بحزنٍ مكان النظرة القديمة.

كانت "مريم" تتذكر آخر جلسة جلستها بمكانٍ مشابهٍ لهذا المكان، كانت تتذكر جلستها الأخيرة مع "يامن"! قاطع "حسن" حزنها بكلمات حانية، محاولاً إخراجها قبل أن تصل للعمق ولا تستطيع النجاة منه.

-لا زلتِ طفلة صغيرة يا "مريم".

-ها..

التفتت له "مريم" وارتسمت على وجهها ابتسامة عفوية، لا تعرف سرها، فكلما نظرت له وجدت ابتسامتها تطغى على حزنها مهما كانت قسوته!

obeikan.com

-أين كنتِ أيتها الشقية الصغيرة؟

-أبدًا! أنا هنا فقط شردت قليلاً مع بعض الذكريات.

-يمكنني رؤية الحزن بعينيكِ يا صغيرتي.

-ويمكنك أيضًا الشعور به، وأنت بعيد عني.

-كما يمكنني إخراجك منه..

-صحيح! فأنا لم أعد أشعر بالسعادة إلا بوجودك.

-وها أنا هنا الآن، أيمكنك أن تدعي هذا الحزن جانبًا؛ فالوقت يمر وأنا أريد أن أتحدث معكِ كثيرًا ربما لم أتمكن من الحديث معكِ مرة أخرى.

-لا تقل هذا الكلام، لا تُشعرني بالخوف.

-لا أُخوّفك يا عزيزتي، ولكنها الحقيقة، ستتزوَّجين عما قريب، وأنا سأسافر غدًا، وربما لا يمكنني العودة قبل عامين آخرين، ربما سأعود بعد أن تنجبي طفلة صغيرة تشبهك.

-أنت تعلم بعشقي للفتيات.

-أعلم، ما رأيك أن تسمي صغيرتك "ياسمين"؟

-وإن جاء ولد؟

-فلتسميه ياسين، وان كانا توأم فليكونا "ياسين" و"ياسمين".

ضحكا، وبالفعل استطاع "حسن" رسم الضحكة على قلب "مريم"، ووجهها كما

وعدها دائمًا، تبادلا الحديث طويلاً حتى انتهيا من تناول الطعام، كان للمطعم جزء ملحق به يُطل مباشرة على النيل دون قيد، دون حاجز، دون زجاج، فنزلا وجلسا أمامه يستنشقان عطر صفاءه مع شغف الحياة!

مُرة هي القهوة ولكنها تخترق بمرارتها عمق الروح، تمامًا كما القهوة التي تناولاها، إذ عانق فنجاني القهوة شفتيهما، وذاب مطحون البُن داخلهما حتى ارتوت أعماقهما، فانتشيا من مذاقها، وطغى عليهما سحرها المُمتزج بنسمة الهواء الذي بدأ في النقاء بعد انتهاء العاصفة الترابية، كان الصمت يلف المكان، فلم يعُد هناك كلام يُقال، فاكتفيا بكلام القلب وهمسات الروح.

أعاشقان؟! أمُتحابان؟!.. أصديقان! هذا هو الأكيد، فكل عاشقين هما بالأصل صديقين، و"مريم" لم تجد صديق كـ "حسن"، بعد كل تلك السنون لم تجد روحًا بنقاء روحه، لذلك فهي لا تضع اسمًا لما بينهما، وربما أسمتها علاقة سعادة.

عادا إلى المنزل، وانتهت لحظات السعادة من حياتهما، وصلت "مريم" للمنزل قبله؛ فقد استقلت تاكسي، أما هو ففضل أن يحصل على بعض التمشية على ضفاف النيل؛ قبل أن يُحرم منه بسفره.

استلقت "مريم" على سريرها واضعةً هاتفها بجوارها، وقد أطفأت الضوء كله فأصبحت الغرفة مظلمة إلا من ضوء الهاتف التي كانت تستمع منه إلى رائعة كوكب الشرق، يا مسهَّرني، حتى قاطع استمتاعها صوت نغمة الرنين المخصصة لـ "مراد". "ليس هذا وقتك الآن يا "مراد".."

قالتها بتأفف، كاتمة صوت الرنين، مترددة في الرد، منتظرة لترد في المحاولة

الثانية كعادتها:

-ألو!!

-كيف حالك مريومة!

-بخير "مراد".

-وكيف كانت النزهة مع صديقتك؟

-نزهة؟ اه اه، كل شيء على ما يرام.

-وهل أحضرتما كل شيء؟

-نعم كل شيء كانت تحتاجة اشتريناه.

-رائع، وكيف هي ليلتك؟

-ليلتي مشبعة ببعض الإرهاق، ويتوق جسدي للراحة فقد أجهدت كثيرًا اليوم.

-ولكني أشتاق لكِ، أود الحديث معكِ قليلاً.

-فلنتحدث غدًا يا "مراد"، فأنا مُتعبة للغاية.

-حسنًا كما تشائين، ولكن تذكري أن هذه المرة الثانية التي أطلب فيها الحديث معكِ ليلاً وترفضي.

-قلت لك إني مُتعبة جدًا، ليس في الأمر شيء سوى أني لن أستطيع مجاراتك في الحديث.

-حسنًا مع السلامة!..

قالها بغضب وأغلق الهاتف، فتنفست هي حتى خرج الهواء من أعماقها، وكأنها كانت تتخلص من ثاني أكسيد الكربون الموجود بالكون كله، همٌّ ثقيلٌ انزاح عنها، متمثلاً في "مراد" وكلامه الخارج، المليء بالإيحاءات التي لا تحبها، والتي دومًا ما تذكّرها بـ "عمر"!

صحيح أن "مراد" لم يصل لمستوى "عمر" بالكلام ولا بالفعل، ولكنه كغيره من الذكور تنتابه لحظات من الشهوة والتي يريد إرضائها ولو كلامًا مع خطيبته، إلا أن "مريم" لم تعطه الفرصة ليُرضي تلك الشهوة، وحتى يتم زفافهما لن تسمح له بأكثر من لمسة يد..

حاولت العودة لحالة الهدوء التي سبقت زوبعة الإزعاج التي بدأت برنين الهاتف، ولكنها لم تفلح فقد كان سُم هذا الازعاج قد وصل إلى باطنها، وتمكن منها فأغلقت الهاتف نهائيًا، واستسلمت للنوم علّها تجد ما يُعيد لها سلامها..

*****

(٢٣)

وحيدة هي رغم كثرتهم، صامتة رغم ضحكاتها العالية، موجوعة رغم الفرح المرسوم على وجهها..

مشاعر مضطربة تعانيها "نهى" التي تجلس وسط الكثير من السيدات بأحد المولات، بعد أن أقنعتها صديقتها "مرام" بحضور حفل عيد ميلادها، كان الوقت قد اقترب من المساء، وقد جلسن في حلقة دائرية حول قالب الحلوى المزين بالشوكولاته، وبعض قطع الفواكه تتوسطه صورة "مرام" التي أتمت عامها الرابع والثلاثون!

"عانس هي لم يحالفها الحظ بلحاق قطار الزواج!!"

قالتها إحداهن حين سألت أخرى عن سبب عدم حضور زوج "مرام" أو أحد أبنائها، ثم أكملت حديثها ملقية بطرف نظرها ناحية "نهى" التي جلست في صمت، قائلةً:

"وكذلك هي."

ثم ضحكتا ضحكات متقطعة !! تسخران منهما، ولا تعلمان أن حالهما أتعس كثيرًا منهن؛ فكثيرات هن المتشدقات بزواجهن الناجح رغم قسوته وبكائهن ليلاً، إلا أنهن مازلن يرين بظل الذكر فائدة!!

اقتربت "مرام" من "نهى" ضاحكة، ثم عانقتها في فرح.

-اشتقت لكِ كثيرًا يا "نهى"، كيف حالك؟

-أنا بخير يا عزيزتي! مازلت كما أنا أفتقد الحياة كما كانت قديمًا..

-أنتِ بخير حال صدقيني، لا تغرّنك ضحكاتهن المصطنعة فكلهن بائسات إلا من رحم ربي.

-أتعتقدي ذلك؟

-بلى يا صديقتي، لنا جلسة وحديث مطوّل بهذا الشأن لا تستعجلي، فقط أريد منك أن تستمتعي بوقتك الآن.

كانت "مرام" قد تعرفّت على "نهى" وصارتا صديقتين منذ ما يقرب من عشرة أعوام في إحدى المستشفيات حين كانت تعاني كلتاهما من شبه انهيار عصبي..

"مرام" فتاة في الرابعة والثلاثون الآن تعمل بأحد المؤسسات الصحفية ككاتبة في قسم المجتمع، على الرغم من دراستها البعيدة تمامًا عن هذا المجال، إلا أنها نجحت تمامًا فيه، جميلة هي خلقًا وروحًا وشكلاً أيضًا، ملاكٌ يتجسد أمامك، ترى الحياة من منظور مختلف تمامًا غير من هم في سنها، إن كنت رأيتها منذ عشرة أعوام كنت رأيت شخصًا آخر غير تلك التي تقف أمامك الآن.

تعيسة شاحبة، ذابلة عيناها، تعاني من انهيار عصبي إثر فراق أُجبرت عليه، وزواج كادت أن تُجبر عليه أيضًا، إلا أنها قررت الرفض وسط ما يزيد عن مائتي

شخص يرتدون الأزياء اللامعة، ويتعطرون بأغلى العطور، مرتدية فستانها الأبيض المتلألأ، مُزينة جبهتها بتاج وردي، وأمام المأذون الذي طلب منها أن توقع على عقد قرانها، استجمعت قوتها و اتخذت القرار، وقفت وسط الجموع وقالت:

-لا! لن أوقع على عقد بيعي لرجل لا أحبه..

كانت هي المرة الأولى التي تستطيع فيها أن ترفض وتقول لا، لاتدري من أين أتتها الشجاعة لقول تلك الجملة أمام كل من كان بالقاعة، وبالطبع لم تسلم من هجوم أسرتها عليها وهجوم خطيبها الذي كادت تُجبر على الزواج منه، اتهمها الجميع بالجنون وكادوا يجبرونها على التوقيع، إلا أنها رأت في نظرة عيني حبيبها الذي أتى إلى القاعة مودعًا إياها ومودعًا أيام حبهما؛ القوة على التصميم على قرارها، لم ترضخ لهم وقاومت بشدة، قاومت حتى خارت قواها وظلت تصرخ بوجههم.

-لا لا لا لا لا!

ثم سقطت أرضًا، حُملت إلى المستشفى، وقد تلوث فستانها الأبيض، وبهت مكياجها وذبل كحل عينيها، في غضوت دقائق صارت فتاة أخرى، اتهمها الجميع أن بها عيبًا ما أصابها بسبب علاقتها مع حبيبها، لم يدركوا بعد شيئًا ما يُسمى حبًّا طاهرًا عفيفًا، حبًا لمجرد العشق!

انصرف الجميع وتركوها بالمستشفى؛ لم يكن معها بالغرفة سوى فتاة في مثل سنها، مُصابة بانهيار عصبي مثلها، أصيبت به نتيجة صدمة عاطفية ولكن هذه

المرة كانت الصدمة من حبيب لم يصن الحب، كانت هذه الفتاة هي "نهى".

اكتسى وجههما بالدموع، وتعالت شهقاتهما، حتى عزفتا بأنينهما سيمفونية حزينة موجعة للقلب، ثم فجأة صمتتا وانفجرتا ضحكًا حين استوعبتا سخافة تلك السيمفونية التي قامتا بعزفها، بعد أن دخلت عليهما سيدة عجوز فتحت باب الغرفة قائلة:

-انتظرا قليلاً، ريثما أحضر وشاحي وأربط به خصري لأتمايل على صوت نحيبكما..

لم تكن الجملة مضحكة ولكن طريقة قول العجوز لها كانت كفيلة بجعلهما تضحكان! صغيرة هي الدنيا، وضئيلٌ هو الحزن أمام الوجع الذي يمكن أن تشعر به، ولكن ما فائدة الحزن والدموع والبكاء؟ هل سيعيد غائب؟ هل سيُجبر مكسورًا؟ هل سيُرقق قلب قاسٍ؟ هل يُعيد عُمرًا؟

لا.. إجابة كل تلك الأسئلة هي لا.. إذن لمَ نحزن ونبكي! ربما كان بكاؤنا حدادًا على أرواحنا المكسورة، ولكنه أيضًا لن يُجبرها.. إذن ماذا يمكن أن يكون الحل؟

دارت كل تلك الأسئلة برأس مرام، وهي ملقاة غارقة في دموعها على فراشها الأبيض بغرفة المستشفى، كانت تفكر بصوت مسموع، أجبر "نهى" على الإنصات والتفكير معها في حل، ولكن مصيبة "نهى" كانت أكبر من مصيبتها، لذلك اكتفت بالصمت وانتظار النتيجة التي ربما تخرج بها "مرام"..

لم تجد إحداهما إجابة يمكنها شفاء الوجع الكائن بداخلهما، لذا قررتا الحديث،

لم تر واحدة منهما وجه الأخرى، تمددتا على سريرهما موجهة كل منهما نظرها ناحية السقف، بدأت "مرام" بسرد ما دار في ذلك اليوم، كانت تحكي و"نهى" تبكي، ثم صمتت.. وجاء دور "نهى" بالحديث، فبدأت بعبارة:

- أنا حامل.. ولكني لست زوجة لأحد..

صمتت قليلاً ثم أكملت حديثها، وقصّت حكايتها على "مرام"، التي لم تجد ردًا مناسبًا لها سوى جملة واحدة.

-لن أُعفيكِ من الخطأ، ولكنه حقير سافل! فكيف وثقت به!

-كنت أحبه.

-و هو؟

-كان يحبني.

-لو كان يحبك ما فعل هكذا!

تحدثتا حتى الصباح، ولم تُطل إحداهما في وجه الأخرى، لذلك كان الأمر مريحًا للغاية، فمريح جدا هو الأمر حين تحكي ما يمكن أن تخجل منه لشخص لا يعرفك ولا تنظر بعينه حتى لا ترى تأثير كلامك عليه، فلن تهتم بردة فعله، فقط تظل تحكي وتحكي حتى تفرغ همومك فتشعر بالارتياح.

انتهى اليوم وانصرفت "نهى" إلى منزلها، ظلت تتذكر اليوم المشئوم الذي فقدت فيه أعز ما تملك، وردة فعل "مصطفى"، وتذكرت أيضًا اليوم الفائت

obeikan.com

الذي قابلته فيه، عصفت برأسها العديد من الأفكار المزدحمة، حاولت تصفية ذهنها وقد قررت تغيير حياتها لتصبح مثل "مرام" ذات شأن، قررت تخطي حاجز الخوف والعار الذي تشعر به دائمًا.

"يجب أن أفعل شيئًا مفيدًا، يجب أن أتعلم شيئًا جديدًا، لا يجب أن تمر حياتي هكذا دون فائدة، إن كنت قد تعثرت بأولها فبالتأكيد لن أكمل حياتي بنفس التعثر، ليتني بدأت منذ زمن، ولكني لن أيأس".

عادت للمنزل بكامل قوتها ونشاطها وإصرارها على تخطي الماضي، إلا أن الماضي كان أقوى منها وأبى أن يتركها تمر من فوقه بسلام، كان ولابد أن يُعيقها، يُعرقلها، يُسقطها أرضًا إن لزم الأمر !!

*****

اليوم الأول للعمل بعد غياب أسبوع هو الأسوأ على الإطلاق، هكذا كان يوم "مريم" التي قررت أخيرًا العودة للعمل بناءً على رغبة وفارس، ورغم تهديدات "مختار"، عادت لمكتبها الذي أصبح مشتركًا بينها وبين "فارس".

وقف "فارس" على باب الشركة الأمامي ينتظر قدومها في شغف، فهاهي "مريم" ستعود للعمل، وسيكون معها بنفس الغرفة، وأيُّ شيء سيُريد من الدنيا بعد ذلك! سوى أن يجمعهما بيت واحد..

بخطوات واثقة، وشعرها المنسدل برقة، وزيها الأنيق، لاح عطرها المميز حتى وصل لأنف "فارس" فأغمض عينيه واستنشق جرعته من أكسجينها الخفَّاق،

obeikan.com

حتى وصلت عُمقَ عمق روحه، فارتسمت ابتسامته التلقائية على وجهه، وانتقلت بدورها إلى "مريم" التي نظرت للأرض في خجلٍ مبتسمة هي الأخرى وكأنها تعرف ما أراد "فارس" أن يقوله في تلك اللحظة.

دلفا معًا إلى الداخل، حيث كانت السيدة "ليندا" تتابع سير العمل على غير عادتها، وكان "مختار" يسير معها صامتا دون كلام أو فعل، وكأنه مجرد ظل يسير بجانبها! أما "نسرين" فكانت تُتابع الأمر في شغف، بابتسامات خبيثة كانت تنظر ناحية الباب وكأنها تنتظر لحظة وصول "مريم" للشركة، صدام قوي سيحدث.. هذا ما توقعته، ولكن جميع آمالها في هذا الصدام تحطمت، بمجرد رؤيتها "مريم" تشع نورًا من وجهها، وتبث ثقة وإيجابية من قسماتها، وكأن أحدهم قد زودها بالكثير من القوة، لم تكن تعرف أن لوجود "فارس" معنىً كبيرًا وفرقًا ملحوظًا في حياة "مريم".

خطت "مريم" خطوتها الأولى داخل الشركة، بعد أن أمسك لها الباب وسارا معًا إلى الداخل، توقف الجميع وحل الصمت للحظات، وكأنهم غير مصدقين عودتها مرة أخرى! استدارت "ليندا" ناحية الباب؛ لترى ما يحدث، وما سبب ذلك الصمت المفاجئ، فارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، وكأن روحها عادت لها! أما "مختار"، وبعد أن استدار ناحية الباب بدوره، فنظر مطولاً إلى "مريم" التي لم تبادله النظرة؛ فقد كانت مشغولة في متابعة نظرات جميع من بالقاعة، إنما بادله إياها "فارس" الذي كان ينظر له متحفزًا، يود لو تخترقه نظراته كرصاصات ترديه أرضًا، مما دفع "مختار" للنظر إلى "نسرين"، وكأنه

يستمد منها بعض الوقاحة!

قويةٌ هي النظرات المتبادلة؛ الكثير من العبارات تبادلها البعض دون صوت، همسات متطرفة، وضحكات مكتومة، كان الموقف ككل يستدعي وقفة من أحدهم لينهي هذا السكون العجيب، وكالعادة قد كانت هي السبّاقة في اتخاذ القرار، فرفعت صوتها قائلة :

-فليعد الجميع إلى العمل، لا أريد أن أرى موظفًا واحدًا لا يعمل في غضون لحظات، لا شيء غريب، المهندسة "مريم" كانت مريضة، وتعافت وعادت للعمل، لا شيء يستدعي همساتكم..

بكلماتها الحاسمة استطاعت "ليندا" إنهاء الموقف، فعاد الكل للعمل وأكملت "مريم" طريقها إلى مكتبها بجوار "فارس"، أما "نسرين" فتبادلت بعض النظرات مع "مختار" ثم عادت للعمل..

*****

أسبوعان مرًّا دون جديد، هدوء تام في حياتها التي اعتادت الصخب، "فارس" يأتي إليها كل صباح؛ يأخذ "ياسين" للمدرسة، ثم يذهب إلى المكتب ليلقاها هناك، صاحب الأوراق الوردية لم يعُد يرسلها، و حتى "مختار" لم يعُد يضايقها، وكأن كل شيء قد بدأ يسير في اتجاهه الصحيح الذي يجب أن يكون عليه، لم تكُن تعلم أن ذلك الهدوء هو هدوء ما قبل العاصفة، فبين ليلة وأخرى انقلب كل شيء وفقدت "مريم" هدوء حياتها الذي كادت تعتاد عليه.

كان صباح خميس، وكانت اتفقت مع "فارس" أن يمر عليها بعد أن يوصل "ياسين" للمدرسة ليُقلها بطريقه إلى العمل؛ لأن سيارتها في التوكيل للصيانة، أوصل "فارس" "ياسين" للمدرسة، وأثناء عودته لمنزل "مريم"، رن هاتفه برقم غير مسجل لديه، أحكم وضع سماعة الرأس بأذنه، وفتح الخط.

-ألو!!..

-صباح الخير "فارس"!

-صباح النور، من أنت؟

-أحدهم.

-وماذا تريد أيها الأحدهم؟

فجلجل الرجل على الناحية الأخرى بضحكة عالية، قائلاً:

-أريدك أن تبتعد عنها..

-ومن تكون هي؟

-هي تخصني أنا، ولن يأخذها مني أحد.

بدأ القلق يدب بقلب "فارس" الذي صاح حاسمًا.

-من هي، ومن أنت؟

-أما هي، فهي سيدة الكون، أما أنا فلن تعرف، ربما تقابلنا فيما بعد في عالم آخر..

obeikan.com

-ما هذا الجنـ....

ما كاد "فارس" ينطق الجنون حتى أتته سيارة نقل مسرعة، لتطيح بسيارته الصغيرة لتنقلب عدة مرات عبر الطريق، ويتطاير منها الأوراق، وحقيبة "فارس" وهاتفه، لتستقر على جانب الطريق بعد أن اصطدمت أخيرًا بشجرة عتيقة تقع بالقرب من منزل "مريم".. ولقد كان صوت الاصطدام قويًا، بحيث سمعه كل من بالحي..

كانت "مريم" تضع اللمسات النهائية على شفتيها بالملمع الوردي الرقيق، حين سمعت صوت الارتطام القوي الذي اهتز له قلبها وانقبض بشدة، فألقت الملمع من يدها، ووجدت نفسها تنطق باسمه:

-فارس!!..

عاشقة هي تستطيع أن تشعر بما يحدث لمعشوقها رغم المسافات، مابالك لو كان ما يحدث معه على بُعد عشرات الأمتار منها! هرولت باتجاه الشرفة، حاولت رؤية ما يدور بالشارع، ولكن الحادث كان بعيدًا عن مجال رؤيتها، تمكنت فقط من رؤية الأقدام المتسابقة في لهفة للوصول إلى مكان الحادث.

ارتجف جسدها بشدة، وكأن لفحة من البرد القارص قد أصابتها، لم تشعر بنفسها إلا وهي بالشارع تتسابق مع الهواء للوصول إلى روحها التي تشعر بها بقوة، تشعر بالألم يعتصر جسدها، من كل اتجاه، ألواح من المعدن تُدغدغ عظامها، الدماء تسيل على وجهها لتختلط بدموعها المنهمرة، تستنشق الغبار

ob eikan.com

المختلط بنكهة الوقود المتسرّب من السيارة.

لم يكن ما تشعر به سوى ما يشعر به "فارس"، الذي رقد أسفل سيارته المنقلبة، مستسلمًا للقدر، متعلقةً عيناه باتجاه منزلها وكأنه يُلقي عليه نظرة أخيرة، يبتسم وكأنه يراها تقف أمامه بزيها الأنيق وشعرها المتطاير، تبكي!

تحاول رفع السيارة بكلتا يديها، ولكنها أثقل من أن تزحزحها بقبضتها الصغيرة، تجثو على ركبتيها محاولة الوصول إليه، ولكن المعدن القائم بينهما يمنعها، الكثير من المعوقات بطريقها، تمد يها عن آخرها تحاول لمس يده، يشعر عطرها فيحرك أصابعه المغطاة بالدماء باتجاهها، تنادي عليه بصوت مخنوق محاولة استفاقته، لا تدري بأنه معها، لا يرى أحدًا غيرها، لا يستنشق سوى عطرها.

يمسك أحدهم بكتفها من الخلف محاولاً إبعادها عن السيارة التي يستعدون لرفعها بـ(ونش)، تُرفع السيارة برفقٍ بينما تحاول هي الوصول إليه، يُوقفها البعض، ويذهب البعض الآخر في محاولة لاستخراج جسده المهترئ.

تصل سيارة الإسعاف في الوقت المناسب، وينجح المسعفون بمساعدة بعض المتجمهرين في استخراج جسده من السيارة، ما أن راته حتى ألقت بجسدها فوق جسده الدامي تحاول الحديث إليه، تحاول تنبيهه، ولكنه أغمض عينيه؛ فلم يعد لديه القُدرة على التشبث بعينيها أكثر من ذلك..

*****

(٢٤)

أيام تمر، وليال تغدو وتروح، والقمر يتوسط السماء، وهي ما زالت بشرفتها محدّقة إليه، تتحدث معه وتبكي أحيانًا، كانت على يقينٍ بأن أحدًا ما في الطرف الآخر من العالم يُنصت إليها ويُبادلها الحديث.

سافر "حسن"، ولم يتبقّ لها سوى "مراد" وكلماته المزيفة ومشاعره الباردة، فكرت عدة مرات في إنهاء خطوبتها منه، ولكنها لم تجرؤ على اتخاذ القرار خاصة بعد أن عُقِد قرانهما، فأسرتها لن تقبل بوجود فتاة مطلقة ضمن أفرادها!!

تمر الشهور، ومشاعرها تجاهه منذ الخيانة الأولى لم تعد كما كانت؛ فهناك بعض الأخطاء التي نتغاضى عنها لتسيير المركب، ولكن هذا التغاضى لا يمكنه أن يُهدئ العاصفة القوية التي ضربت البحر وهيَّجت أمواجه، فباتت المركب معرضة للغرق في أية لحظة، وكذلك كانت العلاقة بين "مريم" و"مراد"..

أيام ويتم الزفاف، كل شيء أصبح جاهزًا تقريبًا إلا من بعض اللمسات، الفستان، صالون التجميل، الحذاء، منزل الزوجية، كل شيء أصبح جاهزًا، إلا مكان الفرح..

-لم يخبرني "مراد" بمكان القاعة يا أبي حتى الآن، أقل من أسبوع ولا يخبرنا بشيء، أليس هذا أمر عجيب؟

-عجيب جدًا لا أدري ما يخطط له، علّه يجهز لكِ مفاجأة..

ضحكت "مريم" بصوت عالٍ، من أعماقها المكسورة، ضحكت بسخرية وردت على والدها:

-مراد؟.. مفاجأة؟.. يبدو أنك لم تعرفه بعد يا أبي، مفاجأته الوحيدة بهذا الشأن يمكن أن تكون أنه ليس هناك فرح.

-لماذا تتحاملين عليه بهذا الشكل يا "مريم"؟ "مراد" شخص طيب لا أرى به عيبًا شديدًا يدفعك إلى التحامل عليه بهذا الشكل، أحيانًا أشعر بأنكِ لا تحبيه..

- لا أتحامل عليه يا أبي، ولكن "مراد" الذي يتعامل معكم غير "مراد" الذي يتعامل معي، مراوغٌ هو..

-كفاكِ يا "مريم"! كلامك لن يغير شيئًا من الواقع؛ فزفافكما بعد عدة أيام، أنصحك يا صغيرتي بتقبله ومحاولة حبه حتى لا تُرهقك الأيام، فهو ليس سيئًا إلى هذا الحد، لا تبحثي عن الكمال.

-لا تقلق يا أبي.

قالت جملتها الأخيرة وتبعتها بابتسامة باهتة، وتوجهت إلى غرفتها في محاولة أخيرة لإعطاء "مراد" فرصة تجعل منه رجلها الحقيقي الذي يمكنها أن تحبه وتعتمد عليه وتحب وجوده بحياتها، لا أن يكون مجرد زوجها الذي اختاره لها أبيها!

أمسكت بهاتفها وقامت بالاتصال به، عشرات المرات ولكن دون رد، انتظرت

بضع دقائق ثم توجهت للخارج وأحضرت هاتف المنزل الأرضـي، وقامت بالاتصال على منزل حماتها.

رنات متقطعة، يدق معها قلبها بشدة، كانت تنتظر الإجابة على الاتصال كمن ينتظر خبر موت قادم، صمت الرنين وقد رفع أحدهم سماعة الهاتف مجيبًا بصوت ناعس:

-ألو!!..

-ألو مساء الخير كيف حالك يا طنط ؟

-بخير! الحمد لله.

-هل "مراد" بالمنزل؟

-نعم ولكنه نائم.

-هل يمكن أن توقظيه، أريده بأمر هام؟

-لن أقلق نومه، فلتعاودي الاتصال به في وقت لاحق.

شعرت "مريم" بالغيظ، فردت بغضب شديد، وصوت شبه مرتفع:

-لن أغلق الخط وستُوقظيه، الأمر لا يستحق التأجيل.

-لماذا تتحدثين معي بهذه الطريقة؟ فلتُحسني من طريقتك في الحديث معي.

قالتها السيدة "فاطمة" بغضب واضح، يبدو أن العلاقة بينهما لن تفقد توترها الذي بدأ يزداد باقتراب موعد الزفاف، فردت "مريم" بحدة أكبر:

-أنا أتحدث بما يليق بردك، أنا أريد التحدث إلى زوجي، من فضلك أيقظيه، فليس لدي وقت لذلك.

لم تبادلها الرد السيدة "فاطمة" بل ذهبت لإيقاظ "مراد"، والذي كان جالسًا بجوارها يستمع للحديث الدائر بينهما عبر مكبر الصوت الملحق بالهاتف!! دقائق مرت ثم أحدث "مراد" بعض الضجيج بتحريك سماعة الهاتف وكأنه يلتقطها، ثم رد بصوت ناعس وكأنه قد قام توًّا من نوم عميق..

-ألو "مريم" كيف حالك؟

ردت "مريم" بحسم، وكأن كل جزء فيها يريد إنهاء الأمر بسرعة، معذورة هي فزفافها بعد بضعة أيام..

-لا تشغل بالك بحالي، أنا لست بصدد الحديث عن حالي الآن، هناك أمور هامة يجب مناقشتها بشأن الزفاف.

-فلتهدئي قليلاً يا عزيزتي، ليس هناك داعٍ لتلك العصبية الظاهرة بصوتك.

-أنا هادئة للغاية! ولكن أريد أن أعرف أين سيكون مكان قاعة الفرح فالجميع يسأل، ونحن نريد أن نقوم بدعوة الأقارب قبل الميعاد بوقت كافٍ.

-أي فرح؟

قالها "مراد" ببرودٍ متناهٍ؛ وكانه يتحدث عن شيء مجهول!

-فرحنا!! الذي من المفترض أن يكون بعد بضعة أيام!! لا تقل إنك نسيت!!

-لا طبعًا يا عزيزتي! لم أنس أن زفافنا يوم الجمعة القادمة، أنا أتحدث عن الفرح والقاعة وهذه الشكليات؟

أصاب "مريم" الذهول لبضع لحظات، ثم فاقت من ذهولها وردت باستغراب:

-ماذا تقصد؟

-أقصد أنه لن يكون هناك فرح ولا شيء من هذا القبيل، سترتدي فستانك وسأمر لأخذك من صالون التجميل، ثم إلى منزلنا.

-نعم؟؟ لا وقت لهذا المزاح الساذج.

-أنا لا أمزح معكِ يا عزيزتي، لن يكون هناك فرح..

-كيف ذلك؟ لقد اتفقت مع أبي على الفرح، وقد قام أبي بتحمل كافة مصاريف الخطوبة.

-بلى اتفقت معه، ولكني لا أملك مالاً كافيًا لهذا الفرح.

-أنت تمزح، أليس كذلك؟

-لا يا عزيزتي! أنا أتحدث بكل جدية، اسمعيني جيدًا، إن أردتِّ إتمام الزواج في ميعاده عليكِ أن تقبلي بعدم وجود فرح وماشابه من مراسم مكلفة، إما إن أردتِّ تلك المراسم اللعينة عليك بالانتظار، ربما عام آخر..

-عام آخر؟؟ من المؤكد أن مزحك سخيف وهذا شيء ليس بالجديد عليك ولكن أن تصل بك السخافة إلى هذا الحد، هذا حقًا شيء لم أتوقعه!!

obeikan.com

-مازلتِ مصرّة على أني أمزح، "مريم" أنا لا أمزح هذا آخر ما عندي، ويمكنك إغلاق الخط الآن، وأخذ وقتك في التفكير ريثما أستكمل نومي، وسأنتظر ردك في المساء، إلى اللقاء يا صغيرتي.

لم تعطه "مريم" فرصة لاغلاق الخط، أو حتى أخذ شهيق آخر فانهالت عليه ببركانها الغاضب، فقد صمتت طويلاً خشية عليه من انفجار هذا البركان، ولكنه قد أجاد إثارة هذا الكامن داخلها وعليه إذن أن يتحمل حممه.

-انتظر هنا، إن كنت تظن أن هذ الأسلوب سيجدي معي نفعًا فأنت مخطئ تمامًا، لست أنا تلك المستكينة التي سترضى بما تأمرها به، وتحاول وضعها به كأمر واقع لا فرار منه، وإن كنت مرغمة على اتخاذ قرار الآن فسأختار قرارًا بمحض إرادتي وبمحض اختياري لا باختيارك أنت أو أمك.. فلننه هذه السخافة الآن، أنا لاأريد إتمام هذا الزواج، يمكنك إرسال ورقة طلاقي أو يمكننا اتخاذ الطريق الآخر، الاختيار بيدك الآن، ولا أريد سماع صوتك بعد الآن إلا قائلاً أنتِ طالق.. هل سمعتني؟ أبلغ تحياتي لأمك!..

ألسنة من النيران تكاد تخرج من وجهها وعينيها، لم تشعر بتلك القوة في اتخاذ القرارات من قبل، ماذا يحدث لها، أَعَادَ شبح "خالد" يُطارد عقلها؟ أم أنها استطاعت وببراعة استخراج قوتها المستترة خلف رقّتها الدائمة، أغلقت الهاتف بعصبية شديدة حتى إن والدتها قد سمعت صوت ارتطام السماعة بالهاتف من الغرفة المجاورة.

هرع والدها ووالدتها إليها؛ كانت في حالة تشبه الانهيار ولكنها مغلفة بقوة

عنيدة، تأبى السقوط أو البكاء، كان لاحمرار عينيها بريق غريب خاف منه والداها، حاولا تهدئتها، لكنها انفجرت فيهما أيضًا، طلبت منهما تركها، فهي لا تريد سماع المزيد من كلمات الترضية، أو أي كلمة تجعلها تغير قرارها الذي اتخذته بكل قوة.

قراراتها متأخرة دائمًا ولكنها أفضل من عدم اتخاذها، ولكن الأهم من اتخاذ القرار هو الاستمرار فيه وعدم التراجع عنه، أما "مريم" فلم تستمر يومين في قرارها؛ ففي اليوم التالي جاء إليها "مراد" محملاً بعبارات الندم، والاستسماح، وبعض الورود، وقالب من الشوكولاته، ودعوة ورقية تحمل اسميهما وموعد زفافهما و مكان إقامته!!

-وهل كان يجب عليّ أن أطلب الطلاق حتى تنفذ وعدك؟

-أنا آسف يا حبيبتي، لقد فعلت كل ما تشائي، فلتصفحي عن قلبي المعذّب بهواكِ.

ابتسمت "مريم" ابتسامة حذرة، وتوجهت بنظرها ناحية الدعوة الورقية قائلة:

-دعني أرى تلك الدعوة..

-هاكِ حبيبتي..

بدأت "مريم" بقراءة المدوّن بها ثم توقفت عند عبارة وهذا بمشيئة اللّه في العنوان التالي، وقد وجدت عنوان منزل والدة "مراد" هو المدوّن بكارت الدعوة!

لحظات من الدهشة أصابتها، ثم محاولة لإعادة قراءة العبارة، نعم هو عنوان

obeikan.com

السيدة "فاطمة".

- أَسَيَكُون حفل زفافي بالشارع!!

-هذا كل ما أستطيعه في هذه الفترة حبيبتي، سأعوضك عن كل شيء صدقيني، فموعد الزفاف بعد أقل من أسبوع ولم أجد قاعة فارغة بأي مكان في القاهرة الكبرى، هذا أقصى ما استطعت تدبيره، لن تشعري بأنك في الشارع، سأغير ملامح المكان ستشعري وكأنك بأفخم قاعة في أفضل الفنادق، ثم سآخذك والحضور في جولة نيلية بمركب صغير، ومنه إلى منزلنا المتواضع.

-بالشارع يا "مراد"!!

قالتها ومازال الزهول يتملكها، مع ظهور بعض علامات الغضب العارم والذي أوشك أن يتحول إلى عاصفة، لولا تدخل والدها ووالدتها بالأمر وإنهاء النقاش فيه بالموافقة على إجراء حفل الزفاف بالشارع أمام منزل السيدة "فاطمة"، على أن يقوم "مراد" بتجهيز المكان بشكل مناسب..

وافقت "مريم" على مَضَضٍ، فليس هناك مفرّ، كما أنه لم يعد هناك شيئٌ تحلم من أجله أو له، فهو زوجها وهما أهلها وقد رضي جميعهم بالأمر..

ماذا عنها هي؟ هذا السؤال الذي طرحته على نفسها..

-وماذا عني؟!!

بحسب تقاليد مجتمعها لم تجد سوى إجابة واحدة؛ هي فتاة ليس من حقها شيئًا سوى إظهار الفرحة والتقاط الصور التذكارية والتمايُل على أنغام الموسيقى،

obeikan.com

وتقبيل يد حماتها وخدمتها على أكمل وجه حتى لا يُقال عنها أن أمها لم تحسن تربيتها!

*****

لحظة فارقة، هي اللحظة التي يجب عليك فيها اتخاذ موقف ما، وإن لم تأخذ هذا الموقف، لا تلُم الطرف الآخر على أي شيء يبدُر منه بعد ذلك، فقد رضيت ولم تعترض منذ البداية.

حكمة لم تكن تُدركها مريم، حتى وقت قريب، لذلك لم تتخذ أي موقف حين ذهبت لحفل زفافها المنتظر، كانت تنتظر رؤية ما وعدها به "مراد" من مكان خيالي تشعر فيه بأنها بأغلى قاعة في أفخم الفنادق، أخبرها بليلة الحنة أنها سترى ما لم يمكن أن تتخيله، وقد صدق!!

أتى "مراد" إلى صالون التجميل الذي تجهزّت فيه "مريم" للزفاف، مرتديًا بزَّته السوداء وقميصه الأبيض الذي ابتاعته له "مريم" كهدية في يوم ميلاده مع ربطة العنق الأنيقة.

كانت تشبه ملاكًا نزل توًا من السماء، حتى هي لم تكن تتخيل أن تكون بهذا المظهر في يوم زفافها؛ فستانها الأبيض الرقيق وتسريحة شعرها و اكسسوارها المتلألئ كعيونها اللامعة، الطرحة البيضاء المنسدلة خلف ظهرها كجناحين، والتاج المصنوع من الورود البيضاء الصغيرة، كل شيء بها كان يدل على التفاؤل والفرحة، إلا قلبها الذي كان منقبضًا حزينًا بشكل غير مألوفٍ لها!

بعد انتهاء التصوير توجها بسيارته القديمة إلى مكان حفل الزفاف، ومعهما بالسيارات الأخرى أفراد أسرتها وعائلتها وبعض أصدقائها التي قامت بدعوتهم للحضور، والذين قرروا جميعا أن يصحبوها من صالون التجميل وحتى مكان الفرح إلا القليلين الذي ذهبوا مباشرة إلى العنوان المدوّن على كارت الدعوة.

شارع مظلم إلا من مصباح كبير مُضاء أمام باب منزل السيدة "فاطمة"، بضع عشرات من مقاعد خشبية مكسُوَّة قاعدتها بالجلد الأخضر والأحمر، كتلك الموجودة بالمقاهي القديمة، صفَّت إلى جوار بعضها ومتقابلة في رصة تُشبه رصَّة صوان العزاء، بعض صديقات "مريم" وجيران "مراد" وأصدقاؤه يجلسون جميعا في صمت تام، لم يتحرك أحدهم من مكانه عند قدوم السيارات مُحدثة الجلبة والإزعاج من صوت أبواقها المستمر أحيانًا والمتقطع أحيانًا أخرى.

وجوه يكسوها الاستياء والذهول!! حسرة تعتصر قلب مريم، التي ترجلت من السيارة بعد أن فتح لها أحدهم الباب المجاور لها بعد أن ترجل قبلها "مراد" وذاب بين أصدقائه الذين استقبلوه بالعناق، حتى أنه نسي أن هناك إحداهن تجلس بالسيارة إلى جواره!!

ظلت تجول بنظرها في الشارع مُتنقلة ما بين المصباح، والمقاعد، والغبار المنتشر بالمكان، ونظرات أصدقائها وصديقاتها وأقاربها، وجميع الحضور، التي تبدلّت نظراتهم ما بين شماته واستياء وشفقه!

زيادة سريعة في نبضات القلب، جعلت صدرها يرتفع وينخفض بشكل سريع

وملحوظ، تعرّق شديدٌ أصاب وجهها، بـرودةٌ عجيبة نالت من يديها وجسدها المرتجف، حزنٌ سيطر عليها بالكامل، اكتمل المشهد بنظرة تشفّي وابتسامة صفراء من والدة "مراد" التي خرجت من المنزل ترتدي عباءة سوداء وتغطي شعرها بطرحة من نفس اللون، وتكتسي كاملها بطبقة من الغلّ والحقد الباديين في نظراتها الشامتة، ونبرة صوتها المتهكمة قائلة:

-حمدا للّه على سلامتك يا عروسة ابني.. فلتشغلوا القليل من الموسيقى يا أولاد لنحتفل بالعروس الجميلة، آه نسيت أننا لم نحضر فرقة موسيقية أو حتى مشغل موسيقى ومكبرات صوت، فالأمر لا يستحق..

تحجرت الدموع في مقلتي "مريم" التي وقفت صامتة تحاول التَّحلي بالقوة لمواجهة الأمر، والخروج من هذا المأزق، توجهت بنظرها إلى والدها ووالدتها وأخيها، الذين وقفوا في صمت محاولين تحاشي نظراتها المتوسلة إليهم بأن يتخذوا موقفًا ما تجاه ما يحدث، ولكن دون جدوى.

أمسكت بطرف فستانها وتوجهت نحوهم ووقفت أمامهم ونطقت بصوت متقطع يكاد ينطق ببعض الصرخات المدوية قائلة:

-أيعجبكم ما يحدث؟ أهذا هو حفل زفافي الاسطوري الذي وعدني به؟ ماذا سأفعل الآن؟ فلتتخذوا أي موقف، ولننتهِ من تلك المهزلة.

رد عليها أبوها بصوت مهزوز:

-لا يمكننا فعل شيء الآن يا مريم، لقد قضي الأمر، ووضعنا "مراد" أمام الأمر

الواقع، لا يمكن لأحدنا التدخل الآن، فهو زوجك وقد تم الإشهار وصرتي شرعًا وعرفًا زوجته لا يمكننا التدخل الآن..

-ما هذا الهراء الذي أسمعه؟ عذرًا يا أبي أَوَلَيْس هناك اتفاق؟ أم أنه ليس من الرجولة بحيث ينفذ اتفاقه؟

-هناك اتفاق وكل شيء، ولكننا الآن أمام أمر واقع، كل ما يمكننا فعله هو محاولة احتوائه، وتقليل الخسائر والفضائح إلى أقصى حد.

-تقليلها!! وفضائح!! حسنًا يا أبي! لا تقلق، ستقوم "مريم" بكل شيء..

قالتها "مريم" وقد كانت عازمة على انهاء المهزلة وترك المكان والتوجه إلى منزل أبيها، ولكنها توقفت أمام نظرة السيدة "فاطمة" الشامتة فيها ونظرة أختها وبنتها التي أرادات تزويجها من "مراد"، توقفت ونظرت إلى فستانها وزينتها وطرحتها البيضاء، ماذا ستفعل الآن!

لحظات مرّت كأعوام، صعب هو القرار، كيف ستسير بالشارع بهذا الشكل، وماذا سيقول الناس عنها إن تركت هذا الحفل البائس، هل سيُشجعونها على قرارها الصائب من وجهة نظرها؟ أم سيلومونها على هذا الخطأ الفادح والعار المحتمل، فبالطبع سيقول البعض إن بها عيبًا خافت أن ينكشف أو ينفضح أمره، ولن يتخيل أحد أنها تركت الحفل لأن زوجها لم يفِ بوعده لها.. أي عروس تترك زفافها لعدم وفاء زوجها بمراسمه المتفق عليها! مجنونة هي! شعرت بدوار شديد، وصوت قوي بدأ يتردد داخلها:

obeikan.com

-فلتتركي كل شيء، وهيا بنا نذهب من هذا البؤس!.

كان الصوت مألوفًا لديها؛ كانت تعرفه جيدًا فلطالما تحدثت إليه، وطالما ساعدها على اتخاذ قرارتها الحاسمة، كان الصوت هو "خالد" الذي أيقنت أنه لم يذهب بعد من داخلها!

كادت تتخذ القرار وتذهب، وبالفعل أمسكت طرف فستانها الأبيض ولكنها توقفت بعد بضع خطوات خَطَتّ بهم ناحية السيدة فاطمة، وقفت أمامها مباشرة، نظرت إليها نظرة حادة خافت منها السيدة فاطمة، فلم تعتد منها تلك القوة من قبل!

مالت برأسها قليلاً ناحية اليسار، ثم رسمت ابتسامة صفراء على وجهها، ثم أكملتها إلى ضحكة مدوية، واستدارت ناحية اليمين بلفة دائرية ثابتة هاتفة بصوت قوي:

-فلتدق إحداكن على المقعد يا فتيات، أريد أن أرقص، أوليس هذا حفل زفافي؟ أم أنه صوان عزاء أحدهم وقد أخطأنا العنوان؟

ذهل الجميع من رد فعلها، حتى "مراد" نفسه اكتسى وجهه بنظرة بلهاء، وكأنه يقول كيف أتت بتلك القوة! دقت إحداهن على المقعد المقابل لها، وساعد "مريم" أخريات بالصعود فوق أحد المقاعد والتفنن حولها في دائرة وباشرت هي بالرقص والتمايل، على دقات صديقتها، قام الجميع من أماكنهم والتفوا حول دائرة الفتيات، ثم قام أحد الجيران باستخدام مشغل الموسيقى الخاص به بعد أن وضع مكبرات للصوت بالشرفة الموجودة بالطابق الأرضي للمنزل

obeikan.com

المقابل لمنزل السيدة "فاطمة"، وقام بتشغيل بعض الأغاني الشعبية وأغاني الأفراح، فتمايل الجميع معها، ودبت البهجة في قلوب الحضور حتى أنهم نسيوا تمامًا الدقائق الأولى لحضور "مريم" إلى المكان!

استطاعت "مريم" احتواء الموقف بذكاء، ولكن هل سيمكنها احتواء حياتها المقبلة مع "مراد" ووالدته؟ هل ستستطيع الصمود أمام كذبهما وخداعهما؟ هل ستستطيع المضي في هذه الحياة؟

انتهى اليوم وعاد الجميع إلى منزله، وأخذ "مراد" "مريم" وتوجه بها إلى عش الزوجية لتبدأ حياتها الجديدة معه..

مرحلة جديدة من الحياة ستمر بها، دروس جديدة ستتعلمها، آثار جديدة ستتركها لدى البعض، كل شيء هنا جديد كما هو الآثاث الموجود بالمنزل، لامع براق كل شيء، حتى الوجوه والقلوب، أو كما تظهر لهم بنقائها ولمعانها.

*****

obeikan.com

(٢٥)

مزدحمةٌ تلك الطرقات الرمادية المُغطاة جدرانها وأرضياتها بالأوجاع، الكثير من الرجال والنساء وبعض الأطفال، الجميع ينتظر حدثٌ ما، أو خبرٌ ما، ربما كان نجاة عزيز لديهم، أو وفاته، هذا هو الحال في طرقات المستشفى التي نُقل إليها "فارس" على إثر الحادث الذي تعرّض له.

جلست "مريم" تنتظر رحمة ربها أن تحل على "فارس" ويتم إنقاذ حياته، بجوار إحدى السيدات المسنات؛ والتي كانت بانتظار أحد أبنائها الموجود بغرفة العمليات مصابًا بطعنة سكين قد أصابته بها زوجته، والتي تنزل بنفس المستشفى بطابق علوي بقسم الأمراض العصبية بعد إصابتها بانهيار عصبي ونفسي حاد عقب جريمتها!

-كانت الساعه لم تتجاوز السابعة، وقد استيقظت تلك الملعونة لايقاظ أبنائها لتجهزهم للذهاب للمدرسة، وبينما هي بالمطبخ تجهز لهم بعض الشطائر رنَّ هاتف ابني، وبينما هو يتحدث بهاتفه جاءت من خلفه وطعنته بقلب قاسٍ، أرادت أن تتخلص منه، ملعونة هي، ملعونة.

روت العجوز لمريم قصتها والتي لم تنصت "مريم" إليها جيدًا، أو لم تعرها الاهتمام المطلوب، فكلتاهما مهمومة؛ كان هم "مريم" اكبر من أن تتحمله،

obeikan.com

فهي لم تستطع الحصول على هاتف "فارس" الذي فقده أثناء الحادث، لم تعرف وسيلة اتصال بمنزل والدته لتخبرها ما حدث، وحتى إن وجدته فلن تملك من الجرأة ما تهاتف به والدته لتخبرها بهذه الكارثة، هذا غير "ياسين" الذي أوصله "فارس" إلى المدرسة، ولم تستطع أن تذهب لاحضاره، فهي لا تريده أن يرى مشهدًا كهذا، لا تريده أن يشعر بفقد أبيه للمرة الثانية، صحيح أن "فارس" ليس بوالده ولكنها تشعر بـ "ياسين"، وتفهمّت تعلقه به.

خائفة هي من الغد، من اليوم، خائفة هي من الفقد..

أستفقد "فارس"؟! بعد أن وجدت أخيرًا من تشعر معه ببعض الدفء في حياتها! أستفقده الآن!! أيُعقل ذلك؟ ألهذا الحد يُعاقبها الله!! ولكن على أي شيء يُعاقبها؟ أي ذنب اقترفت كي تُعاقب بمثل هذا العقاب؟! أَوَلَيْس من حقها الحب؟ أَوَلَيْس من حقها بعض الدفء لها ولصغيرها؟ أوليس من حقها بعض الأمان !!

"يا الله، يا الله، يا الله!"

نطقت بها "مريم" الغارقة في همومها حتى رأسها، بينما أكملت العجوز حوارها عن زوجة أبنها الملعونة!

انتصف اليوم، ومازال "فارس" ينتظر رحمة الله، ومازالت "مريم" تردد يا الله، ومازال "ياسين" يبكي في مدرسته دون أن يعرف أحدٌ سبب بكائه، وكلما سأله أحد لماذا تبكي كان يرد بأنه لا يعلم.

-أنا فقط أريد أن أبكي.

-أحدث شيء ما؟ أ أغضبك أحد أصدقاؤك كالمرة السابقة؟

-لا، لم يحدث شيئًا، أنا أشعر بتلك الرغبة في البكاء دون سبب، لعلها أمي!

-وما بها والدتك؟

-لا أعلم، هل يمكن لحضرتك أن تقومي بالاتصال بها؟ أرجوكِ

-حسنًا يا صغيري فلتهدأ فقط.

-أرجوكِ اتصلي بأمي على هاتفها سيدتي، أرجوكِ.

-اهدأ يا "ياسين" سأفعل حالاً، سآتي برقم هاتفها من سجلك واقوم بالاتصال.

-لا، لا داعي لذلك فـ أنا أحفظه جيدًا.

في أحد أركان المستشفى فتى صغير وفتاة يرتديان الزي المدرسي، ويجلسان أرضًا يبكيان إلى كتف بعضهما البعض، لم تميز وجههما مريم، فقد دفن كل منهما رأسه بالآخر، وكأنه يختبئ من العالم ويشتكِ منه بكاءً! يخفق قلبها بشدة، تشعر بأمر سيء، لا تعلم ما يمكن ان يحدث أسوأ من ذلك!

"يا الله لا تريني مكروهًا بأحدهما."

توسلت بعبارتها إلى الله، بينما رن هاتفها الذي كانت تضعه في جيب بنطالها الجينز منذ الصباح بعد آخر مكالمة بينها وبين "فارس"، مفيدة هي تلك الجيوب في بعض الأوقات، تتسارع ضربات قلبها بشدة بعد أن سمعت رنة الهاتف، أخرجته فوجدت أن المتصل هو إدارة المدرسة!

obeikan.com

-يارب سترك! لا مزيد من الألم، أرجوك.

قالتها وهي تفتح الخط في لهفة، وردت بصوت تظهر ملامح الرعب على ذبذباته:

-ألو!.

-مهندسة مريم! صباح الخير، معكِ ريهام الأخصائية الاجتماعية والنفسية بمدرسة "ياسين".

-صباح الخير، ماله "ياسين" !

أجابتها بخوف وقد تجمعت بعض الدموع بعينيها، حاولت أخذ نفس عميق لتهدئ من روعها ولكن دون جدوى، فضربات قلبها المتسارعة يمكن أن يسمعها الجالس بآخر الرواق الجالسة فيها، يمكن حتى لـ "فارس" الفاقد للوعي أن يسمعها!

فاجابتها ريهام التي لاحظت ذلك بهدوء وثبات:

-"ياسين" بخير لا تقلقي، هو فقط يشعر ببعض الحزن والخوف ويريد الاطمئنان عليكِ لا أكثر سيدتي.

-الحمد لله، أنا أسفة أستاذة ريهام.

-لا عليكِ سيدتي أنا مقدّرة إحساسك وخوفك على صغيرك، هاهو معكِ يمكنكِ أن تتحدثي إليه.

-أشكرك بشدة، فلتُعطيه الهاتف أرجوكِ.

لم ينتظر "ياسين" أن تبعد ريهام الهاتف من فوق أذنها لتعطيه إياه، فخطفه

obeikan.com

بحركة سريعة من يديها، وتحدث بلهفة إلى "مريم" التي كانت تحاول تجفيف بعض الدموع المتساقطة على وجنتيها:

-ماما!.

-"ياسين"، مابكِ يا صغيري؟

- أنا خائف يا ماما، أشعر بالخوف الشديد، هل أنتِ بخير؟

-أنا بخير يا صغيري لا تقلق، ولكن لمَ تقول هكذا؟ ماذا حدث؟ أضايقك أحد؟

-لا يا ماما، لم يضايقني أحد، فقط شعرت بأن مكروهًا ما قد حدث، ولكني لا أعرف ما هو، ربما كان مجرد إحساس خاطئ ولكنه قوي يا ماما.

-اهدأ يا صغيري، كل شيء بخير لا تقلق، سأمر عليك في موعد خروجك وسيكون كل شيء على مايرام.

قالتها وقد دوّى صوت صراخ عالٍ من أمام أحد الغرف التي خرج منها طبيب وممرضة للتو، سمع "ياسين" هذا الصراخ، فانقبض قلبه وصرخ على "مريم" بالهاتف :

-ماما ماما ماذا يحدث؟ وماهذا الصراخ؟ أين أنتِ؟ ماما؟

-أنا بخير يا صغيري صدقني، أنا فقط بالمستشفى، ويبدو أن أحدهم قد توفى.

-مستشفى؟ لماذا؟ ماذا حدث؟

-إنه "فارس" ياصغيري.

-مابه "فارس"؟ ماذا حدث يا ماما، أرجوكِ.

بدأ "ياسين" بالبكاء والصراخ مرة أخرى، فقد تأكدت الآن شكوكه، وقد تيقن من إحساسه بالحزن وعرف سببه، صغيرٌ هو ولكنه قد أخذ نفس هبة والدته في الشعور بالاشياء وقت حدوثها، حتى وان كان بعيدًا عنها!

صرخت "مريم" عليه من الجهة الأخرى محاولة تهدئته، ولكنها فشلت في ذلك بعد أن استمر بكاء "ياسين":

-حسنا يا صغيري! فلتهدأ أرجوك أنا قادمة إليك حالاً، فقط اعطِ الهاتف للأستاذة "ريهام" الآن، وانتظرني.

لم يتكلم "ياسين" فقد غطى بكاؤه على صوته، فقط اعطِ الهاتف لـ "ريهام" التي كانت مصابة بذهول مما ترى، ولم تعرف سببه! أخبرتها "مريم" بحضورها على الفور، فأغلقت الهاتف واحتضنت "ياسين" الذي يرتجف جسده بشده!

وقفت "مريم" بمنتصف الرواق الرمادي الكئيب، وقد وضعت يديها فوق رأسها تحاول تهدئة نفسها، تحاول ترتيب أفكارها وأفعالها، شاردة بنظرتها في الصغيرين المنكمشين بأحد الأركان المنهمكين في البكاء ومازالا يختبئان من الدنيا، لديها شعور قوي بأنها تعرفهما، تصارعت الأفكار برأسها مرة أخرى، كيف ستترك "فارس" الذي مازال بغرفة العمليات، تريد الذهاب لـ "ياسين" بأقصى سرعة، ولكنها لا تمتلك أية نقود، حتى أنها ما زالت ترتدي خُفَّها المنزلي!

-يا إلهي! كيف سأذهب لـ ،ياسين" الآن!

بضع ثوانٍ مرت، وقد أتتها النجدة من اللّٰه، فقد حضرت إلى المستشفى السيدة "ليندا" والمهندس "مختار"، والسيدة "فريال" والدة "مراد" والتي كانت هي المرة الأولى التي تراها فيها، ولكنها قد عرفتها من اللهفة الموجودة بعينيها والحزن المسيطر عليها. اقترب منها ثلاثتهم وهي مازالت تقف على وضعيتها محاولة التفكير، نادتها "ليندا" بهدوء:

-"مريم".

-سيدة "ليندا"، حمدا للّٰه على حضوركم.

-ماذا حدث أخبريني؟.

-لا أدري! كل ما اعرفه أنه حادث عنيف.

-ولكن كيف عرفتِ به؟

-سأقص عليكِ كل شيء فيما بعد، يجب أن أذهب الآن لـ "ياسين" بالمدرسة فهو منهار ونفسيته سيئة للغاية.

-حسنًا! ولكن هل ستذهبي إليه هكذا؟

-ها، لالا سأذهب إلى المنزل أولا.

-هل معكِ نقود؟

-لا سآخذ تاكسي، وسأدفع له عند وصولي.

قالتها وقد ابتعدت عنهم متجهة ناحية الباب، مُهرولة مُشتتة الفكر لا تعلم ماذا سيحدث في الأيام التالية، كل ما تُحاول أن تفعله الآن هو السيطرة على أعصابها وتركيزها، حتى لا يحدث ما هو أسوأ مما يحدث.

*****

وصلت إلى المنزل وطلبت من حارس العقار أن يدفع للسائق نقوده، على أن تدفع له بدورها فيما بعد. انطلقت للأعلى وقامت بارتداء حذائها، والتقطت حقيبتها، ومحفظة نقودها، وهبطت لتأخذ سيارة تاكسي لتلحق بـ "ياسين" في مدرسته، وبينما تهم بإيقاف تاكسي، ناداها حارس العقار مهرولاً.

-يا بشمهندسة.

-نعم! ما الأمر؟ اه أسفه لقد نسيت أن اعطيك النقود.

-لا سيدتي ليس هذا ما أردت، فخيركِ قد سبقكِ بالفعل، فقط أردت أن أخبرك أن أحدهم قد جاء وسأل عنكِ وعن الأستاذ "ياسين".

-سأل عني أنا و"ياسين"؟

-نعم سيدتي.

-ومن يكون؟

-لا أعلم، لم يخبرني باسمه، هو فقط سألني عنكِ، وان كنتِ تسكنين هنا؟

-وماذا أخبرته؟

-أخبرته أني قد جئت للعمل منذ أيام قليلة، ولم يتسنى لي معرفة سكان العقار.

-خير ما فعلت، ولكن كيف يبدو شكله؟

-إنه أبيض البشرة نحيف، وطويل، شعره خفيف قليلاً من الأمام.

-ألا توجد به أي علامة مميزة؟ أي شيء غريب؟

-لا سيدتي هو فقط يرتدي نظارة طبية.

-نصف سكان الكوكب يرتدون النظارات الطبية يا عم "حسين"، ألا يوجد شيء آخر؟

-لا سيدتي هذا فقط ما لاحظته فيه.

-حسنًا أشكرك وأشكر ذكائك بالتصرف، وإن جاء مرة أخرى أخبرني.

-تحت أمر حضرتك يا بشمهندسة.

-الأمر للّه وحده، فلتأخذ حذرك، يبدو أن الأيام القادمة ستكون محملة بالكثير.

-ماذا تقصدي سيدتي؟

-لا شيء، اللّه غالب.

قالتها وتوجهت إلى مدرسة "ياسين"، الذي اكتسى وجهه الخمري الصغير بالدموع، واحمرت عيناه وذبلت أهدابه، وأصبح أنفه الدقيق المنفوش قليلا من الجانبين كأنف مهرج في السيرك، يبدو عليه الانزعاج الشديد والخوف.

ما إن دلفت "مريم" إلى حجرة الأخصائية الاجتماعية حتى اندفع "ياسين" مرتميًا بحضنها، ليختبئ بداخله وقد انتفض جسده بالكامل.

أمسكت "مريم" برأسه واحتوتها بكامل كفيها، رافعة رأس "ياسين" إلى الأعلى بعد أن جلست القرفصاء على الأرض، وتبسمت بوجهة قائلة:

-ما بك يا صغيري؟

-خائف يا ماما.

-مم تخاف يا حبيبي؟

-خفت أن أفقدك، و الآن أخاف أن أفقد "فارس".

-ألهذا الحد تعلقّت به؟

-كالحد الذي تعلقتِ به أنتِ يا ماما.

قالها "ياسين"، وصمتت "مريم" ولكن عقلها لم يصمت، فقط ضمته إلى صدرها وظلت تمسح فوق رأسه وظهره بيديها، فأكمل حديثه بجوار قلبها قائلاً:

-لا تخافي يا ماما، أنا هنا.

ضحكت مريم، وقد شعرت بأمان الدنيا كله يتجسد في صورة "ياسين" وصوته:

-ألم تكن خائفًا منذ قليل؟ الآن تقول لا تخافي يا ماما؟ عجيب أنت وشقي!

-نعم كنت خائفًا للغاية، ولكني الآن شعرت الآمان بجوار قلبك، ولكني أيضًا أحسست بخوفك وقد أردت طمأنتك.

-وأي شيء سأريد من الدنيا بعدك يا صغيري!

-"فارس" يا ماما..

-ولد؟!..

-حسنًا! هل يمكننا الذهاب إليه الآن؟

-ها.. اه اه لقد نسيت أمره، تبًا لي.

قالت وقد خبطت رأسها بكفها، وقامت من جلستها أرضًا ممسكة بيد "ياسين" الذي قبّل "ريهام"، ثم شكرتها "مريم" عن ما فعلته مع "ياسين"، وذهبا معًا إلى المستشفى، حيث "فارس" ووالدته و"ليندا" و"مختار"..

*****

مازالت الأوجاع تتوغل داخل أركان المكان الرمادية، ومازال الصغيران يحتضنان بعضهما البعض، ومازالت العجوز تجلس مكانها تتحدث إلى أي جالس وتقص عليه حكاياتها، السيدة "فريال" تسند رأسها على أحد الحوائط معلقة نظرتها صوب الباب منتظرة خروج أحد يُطمئنها على "فارس"، و"ليندا" و"مختار" يقفان بجوارها، اقتربت منهم "مريم" وقد أحكمت إغلاق قبضتها على يد "ياسين"، بمجرد أن لمحت عيني "مختار" الزائغة نحوها، أما "ياسين"، فرمق "مختار" بنظرة تحمل الكثير من التحدي والتحفز؛ مما جعل "مختار" ينظر فورًا إلى الأرض، متعجبًا كيف لنظرة هذا الصغير أن تُدب الرعب بقلبه إلى هذا الحد!!

-أليس هناك أي جديد؟

نظرت إليها "فريال" دون رد، وردت عنها "ليندا" قائلة بهدوء:

-لا شيء!، ليس بعد.

صمت الجميع، أما "ياسين" فانشغل بشيء آخر سرق نظره؛ لفت نظره الصغيران الجالسان بأحد الأركان، ظل محدقًا إليهما في ثبات، يتجول داخل عقله وكأنه يبحث عن شيء ما، شبه ما، أحد ما؛ ترك يد "مريم"، واقترب منهما، ألقى عليهما نظرة عن قرب، فنظر في وجه الولد قبل أن يعاود الاختباء داخل حضن أخته، ثم عاد مسرعًا إلى "مريم" وقد ظهرت عليه ملامح اللهفة، اقترب منها قائلاً:

-ماما!

-نعم ياصغيري..

-أليس هذان الصغيران هما من رأيناهما بالمطعم مع صديقتك، أو جارتك تلك لا أتذكر.

-أي مطعم تقصد؟

-أتذكري اليوم الذي أُصبتِ فيه بتعب شديد وقمنا بالاتصال بـ "فارس"؟

-نعم نعم! تذكرت، أتقصد "ندى" وصغارها؟

-نعم هي، ألَيْسَا أبناؤها؟

-لست متأكدة.

-أنا متأكد.

انزعجت "مريم" وتوجهت نحو الصغيرين، وجلست بجوارهما منادية عليهما:

-"كريم"؟ "ميرنا"؟

رفعا رأسيهما في اندهاش، فلا يوجد بالمستشفى من يعرفهما سوى جدتهما والدة أبيهما، الموجود بداخل غرفة العمليات، وأمهما الموجودة بأحد غرف الرعاية النفسية!

-هل تعرفينا؟

-نعم ياصغيري! أنا صديقة أمكما "ندى"، ولكن أين هي؟ ولماذا تجلسان هكذا؟

صمتت الصغيرة، ورد عليها "كريم" بأسى والدموع تنزل من عينيه:

-ماما بالدور العلوي بقسم الرعاية النفسية والعصبية، أما بابا فبداخل غرفة العمليات يحاولون إنقاذه بعدما طعنته أمي بالسكين عدة طعنات كادت أن تقتله، ونحن هنا مع جدتنا التي تكرهنا بشدة ولا نعلم أين نذهب، فلم يوافقوا على جلوسنا مع ماما لسوء حالتها، ولأنها مقبوض عليها وتحت حراسة الشرطة، فقررنا الجلوس هنا لحين خروج بابا حتى يوافقوا على بقائنا معه.

-يا الله!، ولما حدث كل هذا؟ عفوك يارب، عفوك يارب.

ظلت "مريم" تردد الاستغفار، وتطلب العفو من الله، وقد احتضنت الصغيرين

مقبلة رأسيهما، وقد وقف "ياسين" بجوارها.

-لا تقلقا! فأنا لن أترككما.

تشبث الصغيران بـ "مريم" وكأنها طوق النجاة الذي أرسله الله لهما بعدما كانا غريقين بممر المستشفى الكئيب وركنها العميق، أما العجوز فما زالت على جلستها تقص حكاية ابنها المطعون بالسكين من زوجته الملعونة من وجهة نظرها، لم تعرف أنها الأولى بذلك اللقب، فهي من ربَّته على أن يكون ذكرًا لا رجلاً !

*****

obeikan.com

(٢٥)

ربما لا يمكنك تغيير الواقع الذي أصبح لزامًا عليك أن تعيشه، ولكن يمكنك ترويضه حتى يُمكنك تقبلّه، ولو بنفس شبه راضية.

كان هذا هو مبدأ "مريم" في حياتها الجديدة التي حاولت جاهدة بكل الطرق أن تتعايش معها، حاولت صنع حياة زوجية سعيدة، هادئة، مليئة بالحب والمودة والرحمة، ولكن كان لـ "مراد" رأي آخر هو رأي السيدة "فاطمة" التي كانت ترى أن الحياة الخالية من المشاكل لا تعتبر حياة زوجية ناجحة!

مر الأسبوع الأول بهدوء بعد أن تغلبت "مريم" على ماحدث يوم حفل الزفاف، واستطاعت إدخال البهجة إلى قلبها، أصبحت محترفة في تصنّع السعادة، قررت أن تترك الأمر يمر مرور الكرام واكتفت بالدرس الذي لقنته للسيدة "فاطمة" بتحدي محاولتها لإفساد فرحتها، ونجحت في تحويل الموقف لكآبة واضحة على وجه "فاطمة" وبهجة ظاهرة على وجه "مريم" والحضور. كانت تسمع عما يسمى شهر العسل، ولكنها اكتشفت مع "مراد" أنه مجرد أسبوع واحد فقط؛ مدة قصيرة ولكن لا بأس بها، فقد استطاعت من خلالها أن تشعر ببعض السعادة والحب!

في السابعة صباحًا من اليوم الأول بعد انقضاء أسبوع العسل، يخرج "مراد"

obeikan.com

إلى العمل بعد تناوله إفطارًا خفيفًا، ثم تكمل "مريم" نومها حتى العاشرة، فهي مازالت بأجازة الزواج، اليوم الأول لها بالمنزل بمفردها، ملكة هي الآن في مملكة صنعتها وأشرفت على بنائها قطعة قطعة، جلست تحتسي كوبًا من الشاي باللبن أمام التلفاز، فخطر ببالها أن تتحدث إلى "مراد"، لتخبره باشتياقها له، أمسكت الهاتف لتطلب الرقم، فإذ به يقوم بالاتصال بها، وكأنه شعر باشتياقها!!

-ألو حبيبتي!!

-حبيبي صباح الخير!!

-متى استيقظتِ يا صغيرتي؟

-منذ قليل، فقط صنعت الشاي باللبن، وهاأنا أشربه أمام التلفاز، وأفتقد وجودك بشدة.

-وأنا أفتقدك بشدة، أعد الساعات لأعود إليكِ.

-مراد!!..

-نعم!!..

-أحبك.

-وأنا أيضًا..

-أخبرني يا حبيبي ماذا تريد أن تتناول اليوم على الغداء؟

-لن تطبخي اليوم يا حبيبتي.

-أستحضر طعامًا جاهزًا أم سنخرج؟

-لا هذا ولا ذاك، سنأكل اليوم عند أمي..

-ماذا؟

-لقد اتصلت بها منذ قليل وأخبرتها بأننا سنتناول الغداء هناك اليوم.

-ولكن لمَ لمْ تخبرني أمس؟

-وهل يجب عليّ أن استأذن منكِ إن أردت الذهاب لأمي؟

-لم أقصد ذلك ولكن كان لابد أن تخبرني قبل أن تقول لها، فربما لا أريد الذهاب اليوم مثلاً!

-وما الذي سيجعلك لا تريدي الذهاب اليوم مثلاً؟

-أي شيء، ربما مزاجي لا يسمح..

-(يضحك ساخرًا)، مزاجكِ؟

-وما المضحك بالأمر؟

-كله يا عزيزتي مضحك، فلتنهي شايك وتذهبي لمنزل أمي، لتساعديها في أعمال المنزل، وتجهيز الطعام، ولا تنسي أن تتصلي بها قبل وصولك لربما احتاجت شيئًا من السوق فتحضريه بطريقك.

-ولكني لا أريد الذهاب الآن؛ مازال الوقت مبكرًا جدًّا!..

-الأمر لا يتعلق بما تريدي يا عزيزتي، إنه يتعلق بما أقوله أنا، أفهمتي؟

أنهى "مراد" جملته بحدة واضحة وصوت مرتفع، جعل "مريم" تذهل من أسلوبه لبعض الوقت، حتى أنها أبعدت الهاتف قليلاً عن أذنها حتى لا تؤذيها كلماته المزعجة!

أغلق الخط وأغلق معه بضع أبواب كانت مهيأة للفتح بين "مريم" وبينه، وبدأ بوضع صف أول من طوب الحياة القائمة بينهما، أنهت "مريم" الشاي وارتدت ملابسها، وتوجهت إلى منزل السيدة "فاطمة" مرغمة، ومرّت في طريقها على السوق وأحضرت بعض الطلبات التي أملتها عليها السيدة "فاطمة" هاتفيًا والتي ستحتاجها في تجهيز الغذاء، وتنظيف المنزل!

حلمٌ سخيفٌ يجب أن تصحو منه، ولكن كيف تصحو من واقع؟ تنظيف، غسيل، طبخ، والكثير من الأعمال المنزلية، وامرأة تتوسط أريكة تمسك بريموت كنترول بيدها تُملي عليها الأوامر كخادمة جديدة أستأجرتها للتوِّ من أحد متعهِّدي الخدمات! تمرُّ الأيام، وتزداد الأعْباء، ويزداد الجفاء بينها وبين "مراد"، وتزداد العداوة بينها وبين السيدة "فاطمة"، مرهقةٌ هي، ما بين العمل والمنزل و"مراد" وأمه وطلباتها التي لا تنتهي، لم يكن ينقصها في تلك الفترة سوى مرض السيدة "فاطمة" المفاجئ واضطرارها إلى تدخل جراحي بشكل سريعٍ، فتضطر للإقامة معها بالمستشفى لعدة أيام، ثم العودة معها لمنزلها والإقامة معها للسهر على راحتها وتمريضها، وخدمة من بالمنزل جميعًا!

ساقيةٌ تدور بسرعة، دوامة عاتيةٌ تُسيِّطر على أيامها وجسدها، فبينما هي متوجهة إلى منزل السيدة "فاطمة" بأحد الأيام بعد عودتها من العمل مساءً، و

بناءً على رغبة "مراد" الذي أصر على ذهابها هناك رغم علمه بتعبها الشديد وإرهاقها الواصل حد الرغبة في فقدان الوعي لعدة أيام، تحققت رغبتها، وفقدت الوعي بالفعل بعد أن أصابها دوارٌ شديد لم تشعر بنفسها بعد إلا وهي جالسة على مقعد خشبي بأحد المحلات الموجودة بالشارع!

-حامل!!

-نعم حبيبي! حامل بالشهر الثاني، هكذا قال الطبيب.

-ولكني لم أكن أريد أن ننجب أطفالاً الآن.

-وماذنبي أنا! إنها إرادة الله.

-حسنًا فلتحاولي الإجهاض.

-هل جننت؟ أي إجهاض تريدني أن أحاوله!

-أنا لا أريد أطفالاً.

-وأنا لن أغضب الله.

حوار ربما ظنّه البعض خيالي ولكنه لم يكن كذلك فقد كان هو الدائر بين "مريم" و"مراد" الذي غضب بشدة، حين علم بحملها بعد أربعة أشهر من الزواج!

أما السيدة فاطمة التي كانت كثيرة السؤال عن تأخر الحمل، فقد كان رد فعلها مماثل إن لم يكن أغرب من رد فعل "مراد"، فبعد أن عادت "مريم" مع والدها

ووالدتها من عند الطبيب الذي أخبرها بحملها، قامت والدتها بالاتصال بوالدة "مراد" لتبشرها بحمل "مريم" وحفيدها القادم، كانت كلمات والدة "مريم" تشع بهجة أما كلمات السيدة فاطمة فكانت تهكمية بشكل فج!

-مساء الخير أم "مراد"!

-مساء النور، كيف حالك أم "مريم"؟

-بخير! الحمد لله، لديَّ خبر سعيد سيجعلك تطيرين فرحًا.

-بشِّريني.

-مريم!!..

ردت عليها السيدة "فاطمة" بلا مبالاة، وهي تمص شفتيها استياءً...

-مابها!

-إنها حامل.

-وما المبهج في الأمر؟ ألم ترَ أنها استعجلت الحمل قليلاً، فمازالت هي و"مراد ببداية حياتهما الزوجية، لم يكن هناك داعٍ لحمل الآن.

-ولكن ألستِ من كنتِ تسألينها كل شهر عن عادتها؟

-نعم فقط كنت أطمئن أنها لم تحمل بعد، حتى إذا وجدتها حاملاً ساعدتها على إجهاض الجنين مبكرًا.

-إجهاض؟

obeikan.com

-نعم ألم تسمعي به من قبل؟

-لم أسمع عنه مع فتاة وشاب في مُقتبل حياتهما مُتزوجين على سنة الله ورسوله، على كلٍ لقد حملت ولن يُغير كلامك من الأمر شيئًا.

-حسنًا! فالأمر عائدٌ إليها الآن، هي من ستتعب في حياتها لا أنا.

أغلقت أم "مريم" الخط، وهي لا تعرف ماذا ستقول لابنتها ووالدها، فلم تكن ردة الفعل المتوقعة نهائيًا!

ضحكت مريم...

فقد كانت على علم برد فعل السيدة فاطمة، والذي لن يختلف كثيرًا عن رد فعل "مراد" الذي لمسته منه بعد أن تحدثت معه هاتفيًا قبل قليل!

*****

لم يكن الأمر سهلاً، فقد كان الحمل مُتعبًا للغاية، خاصة ومع الضغط النفسي الذي كانت تُعانيه بشكل شبه دائم من "مراد" ووالدته، ومع تزايد التعب عليها قررت أخذ أجازة من العمل حفاظًا على ماتبقى من صحتها على أن تعود بعد أن تضع مولودها.

بالطبع لم يوافق "مراد" على الأمر في البداية ولكنه اضطر للقبول به بعد أن أخبرته "مريم" – كذبًا - أنها ستحصل على جزء من مرتبها الشهري كهدية من صاحب العمل حتى موعد ولادتها، وعلى الرغم من انه كان يعلم بأنها مجرد

كذبة؛ إلا أنه ادعّى التصديق حتى لا يكون مطالبًا بمصاريف إضافية، وهو على علم تام بأن من سيسد هذا العجز في مصاريف المنزل هو والد "مريم"، والذي كان قد افتعل معه مشكلة كبيرة مع بداية الحمل قاطعه على إثرها ولم يعد يزوره أو يقابلة أو حتى يسلم عليه إن قابله مصادفة!

*****

شهورٌ تمر، ومشاكل تزيد، وحمل متعب والجميع ينتظر قدوم المولود الأول؛ الفرحة الأولى للعائلتين؛ الحفيد الأول الذي سيكون مصدر البهجة والسعادة لقلب الجميع.

في منزل عائلتها جلست "مريم" تعُد قائمة بما يلزمها من احتياجات لوقت الولادة لها وللصغير القادم، فجأة سمعت صوت طرق قوي على الباب ففزعت جدًّا، وقامت من مكانها ملهوفة، وجاءت والدتها تجري من المطبخ ناحية الباب مشيرة لها بأن تجلس مكانها على أن تقوم هي بفتح الباب.

كان الطارق هي السيدة "نادية" جارتهم تستغيث بهم، فقد جاءتها "ندى" باكية وفقدت الوعي بمجرد أن دخلت للمنزل، بعد أن ألقى عليها زوجها يمين الطلاق للمرة الثانية خلال خمسة أشهر، ودونما سبب هذه المرة! كانت المرة الأولى منذ مايقرب الخمسة أشهر حين جاءته رسالة نصيَّة على هاتفه من مجهول أن "ندى" على علاقة بآخر، لم يتمالك "شريف" حينها نفسه إلا ولقّن "ندى" درسًا قاسيًا بضربها ضربًا مبرحًا أوشك أن يودي بحياتها؛ وذلك بعد أن أرسل له نفس المجهول صورة لها تجلس مع شخص آخر بأحد المقاهي، وقد ظهر فيها

وجه "ندى" متأثرًا تكاد تنفجر بكاءً بينما يحاول الجالس معها التهوين عنها حيث كان يمد يده ناحيتها كما يبدو من الصورة وكأنه كان يريد أن يُربت على كتفها أو يمسح دمعة هاربة من عينيها..

لم تكن "ندى" تخونه، ولم يكن ذلك الغريب سوى زوج صديقة لها كانت قد قابلته صدفة حكى لها عن وفاة تلك الصديقة والتي كانت تعبرها أختًا لها! وقد عرف "شريف" الحقيقة بعد عدة أيام من رسالة نصية من نفس الشخص المجهول!

عجيبٌ أمر "شريف" يُصدق مجهول ولا يصدق زوجته، وحبيبته الحاملة لاسمه، ولكنه كان يتحجج بعدم حبها له لعدم حملها رغم مرور أكثر من عام على زواجهما، ورفضها الذهاب لعمل الفحوصات والتحاليل اللازمة لمعرفة سبب تأخر الإنجاب، فكان تلك الاتهامات مصدرًا لتأكيد ما أوحت له نفسه، وقد صدقها دون أدنى محاولة للتأكد منها!

انتفضت "مريم" من مكانها، وهرعت إلى "ندى" صديقتها المقربة وجارتها، وجدتها في حالة يُرثى لها، انفجرت دموعها على ما آلَ إليه حالها، أهذه "ندى" الشقراء ذات البسمة الهادئة؟ أهذه "ندى" التي كانت تشع نقاءً وبهجة والتي يتراقص قلبك فرحًا لمجرد رؤية عينيها! ماذا حدث لها؟ وما هذا البؤس الذي وصلت له! أين ذهب الحب الذي كان بينها وبين "شريف"! أين ذهبت المودة؟ وأين ذهب عقل "شريف"؟ وكيف يشك في "ندى" وحبها له!

اقتربت "مريم" من "ندى"، واحتضنتها بقوةٍ محاولةً إشعارها ببعض الأمان

obeikan.com

وأن هناك من تُصدقها! ظلت "ندى" تبكي حتى بلَّت صدر "مريم" التي ظلّت تربت عليها وتمسح شعرها برفق مُرددة بعض أيات القرآن وبعض الدعاء.

صمت طويل وشهقات متواصلة من ندى، كانت الحروف تخرج من شفتيها بصعوبة بالغة، كطفل يتعلم الكلام، حاولت "مريم" استيعاب ما تحاول "ندى" قوله، ولكن شهقاتها حالت دون ذلك، بدأت في البكاء مرة أخرى بمجرد أن رفعت "مريم" رأسها ونظرت لعينيها.

رفعت "ندى" رأسها هذه المرة وقالت:

-طلَّقني يا "مريم".

-ماذا حدث؟ أنا لا أفهم شيئًا!

-ولا أنا، كل ما حدث أنه جاء إلى المنزل مُبكرًا وفتح الباب بمفتاحه على غير عادته، كنت أنا بالمطبخ أجهز إفطاري ومازلت أرتدي قميص النوم فقد صحوت متأخرًا، ظل يتجول في الشقة ويدخل جميع الغرف ويفتح الأبواب بعنف حتى أنه فتح جميع دلف الدولاب، ودخل الحمام وأزاح ستارة حوض الاستحمام، كل هذا وأنا أنظر له بتعجب، لا أفهم ماذا يحدث، وحين حاولت سؤاله عما يحدث أمسَكَ ذراعي بعنفٍ وهزَّ جسدي بقوة قائلاً أين هو يا فاجرة؟ ثم أزاحني من أمامه حتى اصطدمت رأسي بالحائط.

-عمَّن كان يبحث؟ ما هذا الهُراء؟

-هذا ما حاولتُ أن أعرفه قبل أن يُمطرني بوابل من السباب تخللته اتهامات

بالخيانة، وبأني لا أحبه، لذلك لا أريد الإنجاب منه، أنهاه بطعنة قاتلة بكلمة أنتِ طالق.. طالق.. طالق.

-يبدو أن هناك سوء تفاهم قد حدث، أو أن هناك من أرسل له رسائل مشابهة للمرة السابقة.

-لا أعلم شيئا يا "مريم"، لا أعلم..

-ألم تخبريه يا "ندى" بأنك قمتِ بعمل الفحوصات اللازمة لمعرفة سبب تأخر الحمل، وأنكِ سليمة؟

- لا! خفت أن أجرح مشاعره لو علم أنه السبب في عدم إنجابنا حتى الآن.

-لابد أن يعلم الحقيقة؛ فموضوع الإنجاب هذا يتسبب له في جرح كبير ويشعره بأنك لا تحبيه لذلك يصدق أي شيء.. ولكن الأهم من ذلك أن نعرف من ذلك اللعين الذي يحارب لأجل خراب بيتكما، وتعكير صفو حياتكما!

-لا أعلم شيئا، ولا أريد العودة إليه مرة أخرى بعد كل تلك الإهانات والسباب والاتهامات، هو لا يثق بي لأنه لا يحبني، ومن يصدق أي شيء يقال له من غريبٍ ولا يصدق زوجته هو زوج لا يستحق العيش معه.

-فلتهدئي الآن يا "ندى"، ليس الوقت مناسبًا لاتخاذ قرار كهذا.

-أنا لا أتخذ قرارات يا "مريم"، هو من اتخذ قرار الطلاق، واختار أن يصدق غريبًا.

-ماذا تقصدين، أنا لا أفهم منكِ شيئًا.

-أقصد أن "شريف" كان صفحة بحياتي قطعها هو من دفتري، وسأمزقها أنا وألقي بها سلة مهملات الحياة.

صمتت "مريم"، وقد فهمت ما عنته "ندى"، ولم تستطع الرد فقد كان قرارها هو الصواب، حتى وإن كانت تذوب عشقًا به، لا يمكنها الاستمرار معه أو محاولة الرجوع إليه، فقد بات كل شيء الآن مستحيلاً، فلا يوجد عقوبة أقصى من الحكم بالطلاق لاتهام خاطئ بالخيانة..

احتضنتها "مريم" مرة أخرى، ولكن تلك المرة كانت دون دموع، تلك المرة كانتا هادئتين جدًا، وكأن شعاعًا من القوة تسلل داخلهما، وليته ظل!

*****

Obeikan.com

(٢٧)

خطوط منحوتة على الحائط المتهالك، تحكي العديد من الحكايات المؤلمة التي مر بها هذا المنزل، تكاد تسقط قشرته الملونة لتظهر رطوبتها الساكنة بذراتها والتي جعلتها ضعيفة هشة، تمامًا كالألوان التي كادت تسقط من وجه "نهى" وتغطي شحوبها وحزنها.

كانت الصغيرة "ترنيم" تجلس بجوار "نهال" على أريكة قديمة مغطاة بقماش مزركش بالورود، عابثة الوجه ممتلئة عيناها بالدموع، تربت على كتف أمها كما عرفتها دائمًا، والتي كانت تجلس صامتة دون حراك، ودون كلمة واحدة، حين دلفت "نهى" إلى المنزل بعد أن عادت من حفل عيد ميلاد مرام.

اندهشت "نهى" لحال أختها وصغيرتها؛ فقد تركتهما بشقتهما بالدور العلوي قبل أن تذهب، وقد كان زوج "نهال" قد عاد توًّا من عمله، صحيح أنه كان بحال يرثى لها، ولكنها ظنت أنه مرهقٌ من العمل أو الطريق، ولكنها أدركت الآن أن الأمر لم يعد كما كانت متصورة، حين ذهبت وألقت السلام عليه ولم يرد!

خلعت حجابها الأسود والذي لم تغير لونه منذ أن ارتدته منذ سنوات؛ كانت متمسكة بسوادة الحالك الذي يحيط بوجهها الأبيض مؤكدة على الحزن الذي يسكنها رغم الألوان المبهجة التي يمكن لها أن ترتديها، اقتربت منهما في لهفة

obeikan.com

مغلفة بالبرود، وجلست إلى جوار "نهال" التي مازالت ساكنة، لا تغمض جفنًا، اقتربت ودقات قلبها تزداد قوة، تشعر بشيء سيء، حتمًا هناك شيء قد حدث، فهذه المرة الأولى التي ترى فيها "نهال" بذلك السكون!

-"نهال"، ما الأمر؟ ماذا حدث؟

-......

-"نهال"!!

ظلت "نهال" في صمتها برهة، ثم أدارت وجهها ناحية "ترنيم" التي بدأت بالبكاء ثم قامت إلى حضن "نهى" لتختبيء به.

أعادت عليها "نهى" السؤال بلهفة أكثر، وهي تهدهد "ترنيم" في حضنها وتمسح على شعرها بحنان.

-ما الأمر؟ انطقي!

مازالت "نهال" على صمتها، فقط بدأت بضع قطرات ساخنة تتجمع على أعتاب عينيها، ومازالت تمعن النظر في "ترنيم"، تعصبت "نهى" وقالت بلهجة صارمة هذه المرة.

-تبًا لصمتك القاتل، انطقي.

-إنه "سامح"..

-مابه "سامح"؟ هل أصابه مكروه؟

obeikan.com

-لا.

-إذًا ما الأمر، هاتِ ما عندك دفعة واحدة؛ لا تعذبيني بتلك القطرات.

-لقد عرف أن "ترنيم" ليست ابنته.

شهقت "نهى" واحتضنت "ترنيم" الباكية بشدة، زادت ضربات قلبها بشكل لا يستطيع أحد البقاء حيًا بعده، بدأت الرجفة تتمكن من أطرافها حتى امتدت إلى كامل جسدها، تبع رجفتها سيل من الدموع، انسابت دون أن تشعر بشيء، انضمت لهما "نهال" في سيمفونية البكاء، فعزف ثلاثتهن أنشودة بائسة من الحسرة والألم.

حاولت "نهى" أن تستجمع قواها مرة أخرى، فهي التي كانت عازمة على تغيير حياتها، والتخلص من استكانتها وضعفها ولو مرة واحدة، فقالت بصوت مهزوز:

-وكيف حدث ذلك؟ من أخبره؟

-لا أعلم شيئًا، لا أعلم، لا أعلم.

قالتها "نهال" بعصبية وعاودت البكاء، مما دفع "نهى" للقيام من مكانها، والوقوف أمام "نهال" تاركة "ترنيم" جالسة على الأريكة مكانها، اقترت من "نهال" وامسكت بكتفيها هزتها بقوة، ولم تنطق سوى بكلمتين:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ قصي عليّ كل شيء.

-جاء من عمله، ودخل إلى المنزل كنت أقف بالمطبخ أجهز الغذاء، فنادى عليّ

obeikan.com

وطلب مني أن أرسل "ترنيم" لغرفتها، وبعدها قال لي إنه يعلم أن "ترنيم" ليست ابنته، وأنه لن يسامحني على ذلك الخطأ، ثم تركني وذهب.

-هذا كل شيء!

-نعم..

-ألم يحاول ضربك أو نهرك أو حتى سبك؟

-ولا أي شيء، وكأن الأمر ليس غريبًا عليه، وكأنه يعلم منذ فترة!!

-هذا أمر غير معقول! لابد أن هناك ثغرة ما؟ شيئًا ما لانعرفه لا أنا ولا أنتِ، وأين ذهب الآن؟

-لا أعلم عنه شيئًا، حتى هاتفه مغلق لا يمكنني الوصول إليه؟

-يارب سلّم..

قالتها "نهى" بيأس وبدأ عقلها يزأر بالأسئلة كيف علم "سامح" بأمر "ترنيم"؟ ومتى علم؟ وهل علم أنها ابنتها هي؟ هذا غير استعجاب واندهاش من ردة فعله الهادئة تمامًا!! كيف يعرف رجل أن ابنته ليست ابنته ويصمت!! كيف يترك زوجته ويذهب بهذه البساطة! كيف وكيف وكيف!!

جلست "نهى" إلى جوارهما، و"ترنيم" تتوسطهما، ترفع رأسها بين الحين والآخر وتنظر في وجههما صامتة، لم يبد عليها القلق أو الخوف كما كان قبل قليل، فهي الآن تشعر بنوع من الطمأنينة، فهي تجلس بين أمها وخالتها، أما

obeikan.com

وجود الأب فلم يفرق كثيرًا فهي من البداية تتعلق أكثر بجانبها الأنثوي فهو دائمًا بعيد عنها، ثم قالت "ترنيم" في براءة:

-لا تقلقي خالتي، فأنا أحبك كأمي وأكثر.

قالتها ولم توجه نظرها إلى إحداهما، بل وجهته إلى عقلهما وكأنها تريد ترجمة فعلية لمشاعر متضاربة بداخلها وبداخلهما، صمتٌ قاتل، ولم تبد نهال أي ردة فعل أما "نهى" فاحتضنت الصغيرة بحنان، مربتة على كتفها، ثم اقتربت منها وقبلت رأسها في هدوء قائلة:

-لا تقلقي يا صغيرتي! نحن معكِ ولن نتركك، لم يحدث أي تغيير فما زلتِ "ترنيم" ومازلت أنا "نهى" وهي "نهال".

التفتت نهال إلى جملة "نهى" الأخيرة، فنظرت إليهما، وانسابت دمعة أخرى من عينيها، وانزلقت فوق وجنتها حتى وصلت العنق.

مذبوحة هي حتى بدموعها!

*****

ظلامٌ حالكٌ يحيط بها، فراغٌ تام، رهبة مميتة، تشعر بأنها قد حُبست حية داخل قبر، صمتٌ مُطبق، غصة حارقة، صرخات مكتومة، تود الإفصاح عن كل شيء، لتقول أنا لست قاتلة، هو القاتل، هو من يجب أن يقتل، هو من يجب أن يُصلب، هو من يجب أن يموت.

في غرفتها المظلمة تمددت "ندى" بجلباب أبيض فضفاض على سريرها

المعدني القديم بالمستشفى مُكبلة يُسراها بأصفاد حديدية إلى ظهره، مُنسابة دموعها الساخنة فوق وجنتيها محاولة إيجاد مستقرٍّ حنون تفقد معه قوتها، ولكنها لم تجد سوى صدر "ندى" وقلبها المكسور.

شردت بعينيها تجاه خيط الضوء الرفيع المتسلل من أسفل الباب المغلق عليها بإحكام، هي وبضع سيدات أخريات، كلهن مقيدات، كلهن عابثات، كلهن مقتولات، كلهن مذبوحات.

يرقد "حازم" في غرفة العناية المركزة بعد عدة عمليات أجريت له للحفاظ على حياته، ولكنه كان قد فقد قدرته على السير أو الحركة، فقد أصابته طعنات "ندى" في العمود الفقري مباشرة فتركته قعيدًا، وكان هذا العقاب الرباني لشخص مثله، أو ربما هو العقاب لوالدته التي جعلت منه هذا الذكر لتتحمله كطفل رضيع، ربما أعادت تربيته من جديد كرجل!

وعلى بُعد خطوات منه يرقد "فارس"، فاقدًا الإحساس بأي شيء، في عالم آخر يتمنى أن يرقد بين يدي "مريم" ولكنه في الواقع يرقد على سرير معدني فارغ إلا من غطاء رقيق، لا يتحرك نهائيًّا، ولكنه يُهمهم ببضع حروف متقطعة من وقت لآخر.

لم تجف دموع أم "فارس"، ولكن بدت عليها بعض الرقة والتعاطف تجاه "مريم"، فلم تكن تتخيل أن تجلس "مريم" مع صغيرها أرضًا منتظرين أي خبر جيد عن "فارس" يتملكهما القلق والحزن على ما حدث له، تحركت من مكانها واقتربت

منها ثم جلست إلى جوارها قائلة:

-أشكرك يا "مريم".

-علامَ تشكرينني؟

-على موقفك تجاه "فارس".

-لا تقولي هذا الكلام، "فارس" غالٍ عليّ جدا.

-أعلم يا ابنتي، وأعلم أنك تعلمين أني لم أكن أحب وجودك بحياته.

-لا تشغلي بالك بتلك التفاهات الآن، المهم الآن هو "فارس" وصحته، وعودته لحياته ولبيته سالمًا.

قالتها "مريم" بابتسامة صافية تجاه السيدة "فريال"، وأخيرًا شعر أحدهم بالذنب تجاهها! وأخيرًا قال لها أحدهم كلمة شكر واحدة لم تكن تنتظرها!

شردت ببصرها قليلاً تجاه باب غرفة العناية المركزة، تمنت لو تخترق ذلك الباب المعدني و تجلس بجوار "فارس" ممسكة بيده، مقبلة جبهته من آن لآخر، كانت تود لو تشعره بعض الأمان كما اعتاد أن يشعرها به هو، ولكن هناك حاجز كبير بينهما لا تعلم إن كان سيأتي يوم وينكسر، أم سيظل مكانه، أم سيزيد؟!

*****

(٢٨)

حفلٌ بهيجٌ اجتمع فيه الأهل والأقارب، وبعض الأصدقاء يتبادلون التهنية بقدوم المولود الصغير، كقطعة من السكر الأبيض لُفّ الصغير بلفة بيضاء تحتها جلباب أبيض رقيق، ينام في مهده الصغير المُغطى بستار رقيق من التُّل الأبيض.

في بيت قريبتها وفي أحد الأركان على مقعد وثير، جلست "مريم" واضعة يدها فوق بطنها المنتفخ، مستمتعة بالأغاني المخصصة للأطفال مُتخيلة يوم حفل سبوع مولودها الذي لم يقدر له الخروج للدنيا بعد، وجلست أمها إلى جوارها..

-اااااااااه

-مابكِ يا "مريم"؟

-يبدو أن الصغير قادمٌ يا أمي..

-هل بدأ الأمر؟

-نعم وبقوة، فقد سئِم صغيري الظلام والضيق ويحتاج إلى بعض الاتساع.

-حسنًا سأنادي على أبيكِ ليُقلنا إلى المستشفى، وأنتِ اتصلي بزوجك.

-لن يفيدنا "مراد" بشيء يا أمي، فإن أطول الأرض الآن ببطني الممتلئ لهو أمر أهون من وجوده معي وتحمله بعض المسئولية.

obeikan.com

-لا تتحاملي عليه بهذا الشكل، فهو ليس سيئًا إلى هذا الحد.

-لا بأس يا أمي! سأتصل به فقط اذهبي لنداء أبي، فالألم شديد للغاية.

كان والد "مريم" يجلس مع الأقارب من الرجال بغرفة أخرى من غرف المنزل يتناول كوبًا من الشاي بينما دخلت عليه أم "مريم" بسرعة ولهفة قائلة:

-"مريم" ستضع مولودها.

-هل بدأ الأمر؟

-نعم هيا بنا، يجب أن نذهب بها إلى المستشفى حالاً.

قام من مكانه مسرعًا وتوجه معها إلى الغرفة الجالسة بها "مريم" وقد التفت حولها الفتيات والنساء محاولين تهدئتها ومساعدتها على تخطي ألم الولادة ببساطة، مسددين لها بعض النصائح المجربة.

-هل اتصلتي به يا "مريم"؟

-نعم يا ماما! وأخبرني أنه بالعمل، وطلب مني أن أخبره لأي مستشفى سأذهب بعد أن أصل وأتأكد من أن الصغير قادم بالفعل، وأنه ليس إنذار كاذب.

-لقد لفت كلامك الآن نظري لأنه ربما كان إنذارٌ كاذب.

-ولكن الألم رهيبٌ وغير محتمل.

-يحدث كثيرا يا صغيرتي.

-وما العمل؟ كيف سنتأكد الآن؟

obeikan.com

لم تكمل جملتها "مريم"، إلا ودخلت عليهم عمتها تحمل طبقًا صغيرًا بداخله بيضة مسلوقة، وطلبت من "مريم" أن تتناولها، فإن كان الصغير على وشك القدوم حقًا سيزيد من ركلاته وستزيد آلامها، وإن كان مجرد إنذار كاذب سيهدأ كل شيء بعد قليل.

تناولت "مريم" البيضة على الفور، وقد زادت صرخاتها وابتلت جبهتها بالعرق من شدة الألم، فتأكد الجميع أنها على وشك الولادة بالفعل، وأن الأمر ليس إنذارًا كاذبًا كما ظن البعض، توجهوا جميعًا إلى المستشفى على الفور، وانتهى حفل السبوع المقام لصغير قريبتها، وقد خلا المنزل إلا من الرضيع وأمه وجدته وأخوته الأكبر منه، وقد ذهب الجميع خلف "مريم" لاستقبال صغيرها ومولودها الأول. أُدخِلت "مريم" لغرفة الولادة لتجهيزها لاستقبال المولود، بينما جلس الجميع بالخارج في توتر، متمنين لها السلامة.

على أحد المقاهي المزدحمة بالهاربين من منازلهم وزوجاتهم، أو من هم لا يملكون عملاً أو مسئولية تجاه أحد، جلس "مراد" في هدوء يحتسي كوبًا من القهوة متسامرًا مع أحد أصدقائه، وامرأة صديقة لهما!

-ألم تقل إن زوجتك على وشك الولادة اليوم؟

-نعم! وربما وضعت المولود الآن؟

-ولماذا تجلس معنا هنا؟ أليس من المفترض أن تكون إلى جوارها الآن؟

-دعكِ منها يا جميلتي، أترك جلسة كهذه لأجل "مريم" وأهلها وطفل صغير

سيأتي ليملأ الدنيا بالصراخ والحفاضات المتسخة، وزجاجات اللبن الفارغة؟

-أمتأكد من أنك والد لهذا الصغير؟

-بالطبع أنا والده، ما هذا السؤال؟

نفثت دخان سيجارتها بعنف وقالت بهدوء :

-لقد عرفت رجالاً بعدد شعر رأسي، ولم أصادف يومًا رجلاً جلس ليحتسي القهوة معي، أو حتى واقَعَني وامرأته تضع له مولوده الأول!

قالتها وانصرفت لتتركه مع صديقه وذهبت إلى حيث بعض الرحمة!

*****

بضع ساعات مرّت، و"مريم" في فراشها بالمستشفى، وبجانبها قطعة منها، لها نفس اللون الخمري والملامح الدقيقة، وحتى العينان السوداوتين، والشعر الأسود الكثيف، وعلى السرير المجاور تمدد "مراد" يغطُّ في نوم عميق، بينما جلست أم "مريم" على طرف السرير الممددة عليه "مريم" تنظر لها ولصغيرها في هدوء.

فتحّت "مريم" عينيها وابتسمت لوجه أمها الناعس، ونظرت إلى جوارها في تلهف لترى صغيرها للمرة الأولى، فقد تمت ولادتها له بعد ان استخرجوه من بطنها.

-"ياسين"، سأسميه "ياسين".

قالتها "مريم" بشغف ما أن رأت عيني صغيرها لأول مرة، ولم يعترض "مراد" على الاسم، فلم يكن يشغل باله بهذه التفاهات كما كان يطلق عليها.

رقيق هو كنسمة ربيعية هلّت على وجهٍ متجهم فأسعدته وجعلت منه وجهًا مبتسمًا! كانت تستمد منه قوتها حتى جاء اليوم الذي شعرت فيه بضعفها الشديد بسبب وجوده بحياتها، فلم تكن لترضي الإهانة يومًا ولكنها باتت ترتضيها خوفًا على حياة صغيرها وصحته النفسية.

لم تكن "مريم" تريد لـ "ياسين" أن ينشأ بعيدًا عن والده، فبرغم قسوته الظاهرة وعنفه الظاهر في معاملته معها ومع الصغير، إلا أنه والده وكانت تعيش على أمل أن ينبت بقلبه بعض الحنان يومًا ما فيشعر بأنه أب لصغير رقيق حنون كـ "ياسين"، ولكن كان لـ "مراد" رأي آخر، فقد ازدادت قسوته يومًا بعد يوم، وليلة تلو ليلة، بات بعيدًا كل البعد عنهما، حتى باتت تشعر بالوحدة، وبدأت أعراض الاكتئاب تتسلل إليها، وبدأ آخر بالتسلل إلى عقلها.

وبعد ليلة عصيبة قضتها "مريم" في التفكير كثيرًا بعد عراك قوي نشب بينها وبين "مراد" بسبب خيانته المعتادة، وضربه لها ضربًا مبرحًا كاد يودي بحياتها، اتخذت "مريم" قرارها بالعودة مرة أخرى إلى عملها، علّها تجد هناك بعض المتنفس لأفكارها التي باتت منحصرة في عراكها المستمر مع "مراد"، وتربية صغيرها تربية سوية بعيدًا عن أي إزعاج نفسي أو ضغط عصبي.

عادت "مريم" إلى عملها وأصبح "ياسين" بعمر السنتين، وبامكانه الذهاب إلى روضة الأطفال ويمكنها أن تتركه هناك وهي مطمئنة عليه، بالطبع كان

هذا القرار بمثابة قرار الإفراج من السجن لـ "مراد"، فلم تعد هناك "مريم" تنغص عليه أوقاته باتصالاتها المستمرة، وإلحاحها عليه بحضوره باكرًا للمنزل للجلوس معها ومع "ياسين".

وكان القرار أيضًا بمثابة الإفراج عن "مريم" من مستشفى الأمراض النفسية التي كانت تعيش فيها، فقد خفت الضغوط عنها تدريجيًا حتى باتت تشعر ببعض الراحة، ولم تعُد بحاجة لوجود "مراد" إلى جانبها، فقد أصبح هناك عملها وعملائها وأصدقائها الجدد، كما كان هناك ذلك المتسلل إلى عقلها لبعض الوقت والذي كانت سرعان ما تطرده وتوبّخ نفسها على استدعائها له!

باتت علاقتها بـ "ياسين" أقوى، على الرغم من تركها له فترات طويلة؛ إلا أنها كانت تهبه من حبها وعطفها كميات مضاعفة تعويضًا له عن تركها له في روضة الأطفال، وبات "ياسين" يشعر بها ويقترب من عقلها أكثر وأكثر، نبيهٌ هو متفتح العقل يسبق عقله سنه تمامًا كما كانت هي في طفولتها، كانت تحمد الله كثيرًا على أن تركيبتها الجينية أقوى من تركيبة "مراد"، وقد أخذ "ياسين" عنها أفضل صفاتها وأقواها ولا سيما الحنان.

سارت حياتها بعد عودتها للعمل بهدوء حتى تلك الليلة التي انقلب فيها كل شيء رأسًا على عقب، وبات الهدوء عواصف عاتية، وبات الصمت كلمات جارحة، وحتى الهمسات باتت أسواط موجعة..

*****

obeikan.com

ليلة ساخنة تتسرب حرارتها إلى الوجوه والقلوب، استشاط "حسن" غضبًا فيها وقام بضرب "شريف" الذي اتهم "ندى" أخته بالخيانة، وطلقها وألقى بها لقمة صائغة لأي جائع ينهش بها، وها هو يطلب الرجوع إليها بعد أن اكتشف أن اتهامه لها ماهو إلا إتهام باطل بُني على مكالمة تليفونية من أحد الأشخاص الذي أراد هدم البيت على من فيه.

انفعل "حسن" بشدة حين حدثه "شريف" بالأمر؛ فقد كان الأوان قد فات وعُقد قران "ندى" للمرة الثانية، ولكن هذه المرة كان على "حازم" زوج صديقتها المتوفية، لم يصدق "شريف" الأمر فقام "حسن" بإحضار صورة لعقد القرآن وحين نظر "شريف" بها رآى ما لم يكن يتوقعه.

فقد كان "حازم" هو الشخص الذي أُرسِلت له صورته على أنه من تخونه "ندى" معه، فبدأ باطلاق الاتهامات على "ندى" مرة أخرى:

-يبدو أن الأمر لم يكن مجرد مكالمة تليفونية عابرة، فها هي السيدة المصون تتزوج من العاشق الوله زوج صديقتها المتوفية، إذن فقد كانت على علاقة معه، وكنت أنا المغفل الوحيد في هذه الحكاية.

-احفظ لسانك ولا تنطق بكلمة أخرى؛ "ندى" أشرف من الشرف، ولن أسمح لك أن تلطخ سمعة أختي المتزوجة على سنة اللّه ورسوله بعد أن طلقتها أنت، وألقيت بها دون حجة أو سبب.

-وأي سبب تريد أكثر من هذا، فهذا الحقير هو من أُرسلت لي صورته وقيل إنها

تخونني معه، وها هو يتزوجها الآن، إذن فقد كانت بالفعل خائنة.

لم يتمالك أعصابه "حسن" وقام بضرب "شريف" وطرده من المنزل، تعالت الأصوات، وخرج الجميع لرؤية ما يدور، ومعهم "مريم" التي كانت في زيارة لأمها ورأت الشر يتطاير من عيني "حسن"، فوضعت "ياسين" على أحد المقاعد، وهرولت إليه حاولت التحدث معه، ولكنه أبى أن يسمع فكان الوضع محتدًّا بشكل كبير، الجميع يتدافع على درجات السلم، أحضر "حسن" سكينًا من المطبخ وضرب به "شريف".

صرخات مدوية امتلأ بها المنزل، تواجد شرطي سريع على نحو غير معهود، "شريف" غارق بدمائه و"حسن" ممسكٌ برأسه ويجلس أرضًا، و"مريم" تجلس إلى جواره واضعة يدها على صدرها محاولة تهدئة نفسها.

هاهو "حسن" العائد في أجازة قصيرة لحل مشكلة "ندى"، والذي كانت تضع عليه آمالاً في مساعدتها تخطي بؤس حياتها مع "مراد" لن يكون موجودًا بعد اليوم، لن تتمكن حتى من رؤيته أو الحديث معه، فقد نشأ حاجزٌ جديدٌ بينهما، قضبانٌ معدنية وأسوارٌ عالية، ولكنها لم تكن أعلى من الأسوار المبنيَّة بينها وبين "مراد".

استقر "حسن" خلفها فترة كافية لإصابته باكتئاب شديد، وانتحر ليقابل ربه العدل.

-حسن القوي، دارس علم النفس انهار أمام الضغوط، ولم يستطع المقاومة،

فهل سأقدر عليها أنا؟ كيف سأحارب وحدي؟

قالتها "مريم" لنفسها، وجلست في شرفة منزلها تتناول كوبًا من العصير بينما كان "ياسين" يلعب بجوارها، تذكرت كل شيء وكيف انتهت الحياة بـ "حسن"، من سيقف معها الآن؟ من سيسمعها؟ من سيفهم همساتها المرسلة إلى السماء؟ من سيربت على قلبها حين تنظر للقمر؟ من سيأخذ بيدها ويساعدها على تنفيذ القرار الذي أوشكت على تنفيذه! الكثير من الأسئلة وصفر من الإجابات.

مازالت تشكو للسماء ومازال "ياسين" يلعب جوارها حتى أذن المؤذن لصلاة المغرب، تنهدت بعمق ورددت:

-يااااارب.

فلم يكن هناك من يسمعها سواه، تمنت أن تتخلص من تلك المشقة في الحياة، تمنت أن تنتهي تلك التعاسة المحيطة بها من كل اتجاه، انزلقت دمعة دافئة من عينيها جففتها بطرف إصبعها حتى لا يلمحها "ياسين" ثم قامت وارتدت ملابسها، واتصلت بـ "مراد" الذي طلب منها أن تذهب لمنزل والدته على أن يلتقيها هناك:

-متى ستعود؟

-ولماذا تسألين؟

-أريد الذهاب لشراء بعض الاحتياجات للمنزل، وأريد أن أترك "ياسين" معك.

-يمكن أن أتأخر قليلاً، اسمعي! اذهبي لمنزل أمي واتركيه عندها، واذهبي

لشراء طلباتك وطلباتها وسآتي من العمل عندها لنعود معًا ليلاً.

-ولكن لا أريد الذهاب لمنزل أمك، فأنا مجهدة للغاية وقد تأخر الوقت، أنا سأحضر بعض الطلبات من السوق، وأعود على الفور فلدي عمل في الصباح.

-فلتنفذي ما طلبته، لقد اتصلت بي أمي وطلبت مني أن أمر عليها لشراء بعض الاحتياجات، وبما أنك ستذهبين فلتحضريها معكِ.

-حسنًا..

قالتها "مريم" على مضضٍ، وزفرت بعدها زفرة قوية متأففة من أسلوب "مراد" وطلبات أمه وعدم مراعاتها في أي شيء، حملت "ياسين" وذهبت لمنزل أمه، التي طلبت منها الكثير من المشتريات فتوجهت لشراء مشترياتها ومشتريات والدة "مراد"، ولما كانت مشترياتها كثيرة وثقيلة، قررت أن تذهب إلى المنزل لتودعها هناك، ثم تعود مرة أخرى للسوق لشراء احتياجات حماتها، والذهاب لأخذ "ياسين" من عندها.

العديد من الأكياس البلاستيكية الممتلئة بالخضروت والفواكه، واللحوم والدجاج والسمك، والحليب والجبن والبيض، وبعض مستلزمات البيتزا والحلوى، فقد كانت عازمة على صنع البيتزا والحلوى، في اليوم التالي والذي كان موافقًا ليوم عيد زواجها الثالث على "مراد" وكانت تود الاحتفال بهذه المناسبة!

صعدت درجات السلم بتباطؤٍ شديد؛ فقد كان حملها ثقيلاً للغاية، طابقًا يدفع طابقًا، ودرجة تلحق درجة، حتى وقفت أخيرًا أمام باب شقتها، وضعت حقائبها

أرضًا، ومدت يدها بداخل حقيبتها المعلقة على كتفها واستلَّت منها مفتاح الباب.

حين دلفت لداخل البيت أحسَّت أن هناك شيئًا غير عادي، ضربات قلبها تصاعدت بقلق، لكنها سندت حقائبها واستدارت لتغلق الباب بهدوء، جففت بضع قطرات من العرق سالت على وجهها، وعدلت من وضعية خصلات شعرها التي التصقت بجبهتها.

وقفت في مكانها حينما تناهى إليها الصوت، تأوهات ناعمة طرقت أذنها، تسمَّرت في مكانها، فهي تعلم حقيقة تلك الأصوات، لا يمكن أن تنطلق إلا في وضعية حميمية!

موجات أخرى من التأوهات المنتشية، امتزجت نعومتها بالانتشاء، فدفعت الموجات رغم رقتها "مريم" إلى الأمام وتقدمت بضع خطوات، ثم تسمرت مرة أخرى بمكانها، كانت المرآه قد عكست المشهد، وها هو يطوق خصرها بيديه، كانت ككوب شاي يترنح من صب الإبريق فيه، سيل من الماء الساخن، يتدفق بقوة بين جنبات الكوب الزجاجي، يدور بين جنباته في دوَّامة عاتية، محدثًا بعض التصدعات المؤلمة في الجدران، هرجٌ ومرجٌ بالقاع، سكَّرها الأبيض يختلط بقوة مع حبَّاته السمراء، يمتزجان، حتى صار الكوب يكتسي بلون الشاي الأحمر، برودة المكيف كثّفت بخارهما كقطرات بللورية فوق الأجساد العارية، لذة التذوق جعلت للطعم صوت كصرخات متقطعة، عبارات وهمسات متطايرة مع البخار الناجي من برودة المكيف وقلبيهما.

هدأ كل شيء، واستقرت وُرَيْقات الإثم بقاع الكوب، وسقط الإبريق مستلقيًا

obeikan.com

بجواره، وانتقلت حرارة غليانهما إلى "مريم"، الواقفة في ذهول تراقب ذلك اللقاء الحميمي في سكون تام ممسكة بالأكياس البلاستيكية في يدها وحقيبتها والمفتاح في يدها الأخرى، زفرات قوية، وصعود قوي وهبوط أقوى لصدرها، المتسارعة دقات قلبه، سيل من الدموع الساكنة المحبوسة بداخل عينيها، صراعات كثيرة تدور بعقلها.

-فلتحضري سكينًا وتقتليهما..

-اصرخي بشدة وافضحيهما.

-انسحبي بهدوء، واستدعى الجيران ليشاهدوا إثمهما.

-لالا! فلتقتليهما، هو خائن وهي خائنة، يستحقان السحق لا فقط القتل.

لحظات مرت عليها كساعات، لم يكن "مراد" ولا رفيقته انتبها لوقوف "مريم" خارج غرفة النوم متابعة ما يحدث في انعكاس المرآة الموجودة أمام السرير، تقلب "مراد" في سريرة طابعًا قبلة ساخنة على شفتي رفيقته التي تغطي خصلات شعرها الطويلة المتناثرة وجهها، مادًّا يده متناولاً علبة السجائر والقدَّاحة الفضية التي أهدتها له "مريم" في عيد ميلاده الأول لهما معًا.

أخرجت الفتاة سيجارة وأعطتها قبلة مشبعة بأحمر شفاهها وأشعلتها برقة، ثم سحبت منها نفسًا عميقًا ونفثته بهدوء في وجه "مراد" الساند رأسه فوق صدرها العاري إلا من طرف غطاء السرير الحريري. ثم وضعت السيجارة برقة في فم "مراد" الذي أخذ منها النفس العميق بدوره ثم نفثه في وجهها الثائر

المحموم من شدة الرغبة.

نفسٌ تلو النفس يسحبه "مراد" من السيجارة، وتسحب "مريم" الواقفة مكانها ثاني أكسيد كُرهه، تُصارع شيئًا قويًا يتولد بداخلها، رغبة قوية في الانتقام، تعطش شديد للون الدم، نيران تحيط بقلبها أوصلت الدماء لما بعد درجة الغليان. مازالت متماسكة، تقاوم بشدة، تكتم الصرخات، والتأوهات القادمة من غنج الفتاة المستلقية على سريرها تضربها كأسواط لاسعة، مازالت قوية، مازالت هادئة، ولكن ليس لكثير من الوقت، فبمجرد أن أطفأ "مراد" سيجارته، وعاود كَرَّته في تقبيل فتاته ومداعبة جسدها العاري تمهيدًا لمواقعة ثانية انفجرت "مريم".

ألقت حقائبها، ومفاتيحها، كان لصوت ارتطامهما بالأرض ضجَّة جعلت "مراد" يتوقف عما يفعله وصمت لبرهة، نظر خارج الغرفة لم يرَ أحدًا فتوقع أن تكون الضجة قد حدثت بالشقة المقابلة لشقته.

بدأ يتحسس منحنياتها المتقدة، وتذوقها، والاستمتاع بطعم شهوتها، كانت "مريم" بتلك اللحظة قد استسلمت للصوت المتردد داخل عقلها، وبدأت بالاستماع لما يمليه عليها، فتوجهت في هدوء إلى المطبخ، واستلت سكينًا حاميًا، لمّت شعرها المجعد ورفعته لأعلى وثبتته مع غرتها باحكام، ثم توجهت لغرفة النوم ووقفت أمام الباب صامته، تتحدث سكينها بالكثير والكثير. كان "مراد" منهمكًا فيما يفعله مديرًا ظهره للباب، أما الكستنائية الشعر فكانت في وضع يسمح لها برؤية باب الغرفة، فلمحت شبحًا يكتسي وجهه بدموع سوداء،

متعرقًا إلى حد كبير، ويحمل بيده سيفًا لامع، كانت تظنه لوهلة أنه مجرد حلم، إلا أن السيف اللامع بدأ بالحركة والتلويح في الهواء، مع ابتسامة باردة من ذلك الشبح.

انتفضت الفتاة ودفعت "مراد" من فوقها، فانزعج لفعلتها وكاد يسبها، إلا أنه لمح نظرات الذعر بعينيها فالتفت بوجهه إلى حيث نظراتها المرتعدة، فكانت هناك "مريم" وسكينها اللامع، تقف مبتسمة الوجه مثبتة عينيها المحملتان بالكثير من الشر عليهما، ارتعد "مراد" بدوره وهم بشد غطاء السرير لتغطية جسده العاري، بينما أهمل تمامًا أمر الفتاة.

في الخلفية كان "خالد" يقف داخل عقلها يُشجعها بعباراته لتنفيذ العقاب، يدفعها للداخل، يسيطر على حواسها، لم تسمع أيّا من توسلات "مراد"، ولا الفتاة والتي كادت تفقد وعيها من قسوة ملامح "مريم".

*****

(٢٩)

مر بجوار الأسد الواقف بشموخ وعزة، رفع رأسه إلى الأعلى وظل متوجهًا بنظره إلى نظرة القوة الموجودة بعينيه، ثم أخفض رأسه، وسار مجددًا بمحازاة السور المعدني للكوبري العتيق، وفي المنتصف تمامًا وقف ساندًا بجسده على السور شاردًا بنظره حتى غاص داخل مياه النهر العتيقة، تجول بين ذرات الطمي العالقة فيه بصعوبة.

ثقيلة هي مياة النهر تجعل التنفس أمرًا مرهقًا للغاية، تحارب لأجل التقاط نفس ولن تقدر، فقد انسدت رئتيك وامتلأت بالماء والطمي. كان يقف بنفس المكان منذ عدة أيام مع "نهال" ، وكانت الصغيرة تلهو بجوارهما، أما الآن فهو يقف بمفردة متعاركًا مع عقله وقلبه، فقد كان يعلم منذ اليوم الأول أنها ليست ابنته، ولكن لمَ غضب عليها الآن! متيقن هو تمامًا أنها لم تخنْه، وكيف تُنجب من رجل غيره وهي عاقر لا تُنجِب من الأساس! ولكن كيف يُخبرها بالأمر! كيف يخبرها بأنها عاقر! كيف له أن يكسر قلبها ويحطم اعتزازها بأنوثتها! كيف له أن يهدم قوتها التي يستند بنفسه عليها في أشد الأوقات قسوة! هل يخبرها بأنه كان يعلم أنها لن تنجب من قبل الزواج ،ومع ذلك أصر على إتمام الزواج! هل يخبرها بأنه كان يعلم أن "ترنيم" ابنه "نهى" وانه كان يلحظ تعلقها الشديد بها، ولكنه لم يرد أن يكسر فيها شيئًا من كرامتها!

لم يكن يعلم أن ذهابه للمقهى في ذلك اليوم المشئوم سوف يلقي به إلى ذلك القاع السحيق من الهموم والتساؤلات، ليته لم يسمع كلام صديقه وعاد إلى المنزل مباشرة، لما قابل مصطفى ولا علم بحقيقة الأمر، الحقيقة التي كان يعرف منتصفها منذ سنوات وكان يتعايش معها بكل حب حتى لا يفقد حبيبته وزوجته، وحتى لا يكسر كرامة "نهى" التي يعلم جيدًا أنها لا تستحق تلك الكسرة.

كان يجلس مع صديقه المُقبل على الزواج، يتبادلا أطراف الحديث، حين أتى ثالث، لم يكن "سامح" يعرفه، ولكن ذلك الشخص كان يعرف "سامح" تمام المعرفة، طلب منه الحديث على انفراد، استأذن من صديقه وقام للجلوس على طاولة أخرى بالجهة المقابلة على الرصيف، جلسا معًا وبدأ الشخص بالتعريف عن نفسه:

-اسمي "مصطفى"، ربما لا تعرفني كشخص ولكنك تعرف جزء صغير مني يعيش معك بالمنزل.

-أي جزء منك يعيش معي بالمنزل؟ أفقدت عقلك؟

-لا تهزأ من كلامي، ربما إن كنت عرفتني من زمن لما تجرأت على هذا التهكم ولكن الزمن يفعل بنا ما يشاء، لن أُطيل عليك سأخبرك بكل شيء.

-حسنًا فلتنتهي من الأمر، فليس لدي وقت للهراء.

-"ترنيم".

-مابها "ترنيم"؟

-"ترنيم" هي جزئي الباقي عندك في المنزل.

-هل جننت يا رجل؟ ما هذا الهراء!!

قالها سامح بعصبية شديدة وشرارات تتطاير من عينيه.

-فلتهدأ أرجوك، الأمر لا يمسك بشيء، فـ "ترنيم" ابنتي وأمها هي "نهى".

-أي جنون هذا؟

قالها "سامح" وهَمَّ بالانصراف من أمام "مصطفى" الذي بقي هادئًا، فهو على علم بأنه سيعود ليعلم حقيقة الأمر، ولكن "سامح" خيّب ظنه وانصرف، فهو ليس بحاجة إلى تبين أي أمر، فقد أتته الإجابة الناقصة طوال سنوات، لقد علم الآن من هو والد "ترنيم"!

مازال يُصارع مياه النهر الثقيلة، متسارعة أنفاسه، متضاربة أسئلته، هل يغضب من "نهى" الآن؟ ولكنه لم يستطع الغضب عليها طوال تلك السنوات رغم علمه بخطئها! فقد كانت هي حبه الأول والتي رفضت الارتباط به، فلم يكن ذلك الشاب الوسيم الذي يلفت نظرها!

ولكن "نهال" كانت تحبه، وكيف لا تحبه وهو أحنُّ شاب يمكنها أن تقابله؟ كيف له أن يتخلص من عار أصاب عائلته وبنت عمه الوحيد، ذلك العار الذي أراد ستره طوال تلك السنين ولكن القدر لم يسمح له بذلك! هل يلقي بنفسه إلى القاع علّه يجد هناك الخلاص؟ أم يعود لهما ويخبرهما بحقيقة الأمر؟

عاتية هي العاصفة داخله، ولكنه قرر أخيرًا أن يتخلص من ذلك الهم الثقيل

وتحرير نفسه منه، بإلقاء نفسه بقاع المشكلة.

*****

بزيّه البرتقالي المتسخ، أمسك عامل النظافة بمكنتسه، وراح ينظف الشارع بعدما رُفعت آثار الحادث الذي وقع لفارس، كان أحدهم قد لملم كل الأشياء التي تطايرت من السيارة أثناء انقلابها واصطدامها وسلمها للشرطة.

زجاجٌ مكسور، وبضع مسامير ملقاة، وزيت مسكوب من الموتور، أخذ العامل يجمع كل شيء بمكنتسه، حتى وصل لجوار الشجرة التي انتهت عندها السيارة، وجلس أسفلها ليستريح قليلاً، ساندًا ظهره المنحني على جذعها الصامد القوي، وقد أسند يده إلى جواره فإذ بشيء تحت يده يعيقه من وضع راحته، ظن أنه حجر أو ما شابه، فقرر إزاحته قليلاً ليمكن من سند يده بشكل مستقيم.

امسك به ليزيحه، فصدر منه صوت متقطع، كذلك الذي يسمعه من هاتف حفيده المحتاج لشحن بطاريته.

فوجده هاتف (آي فون) بشاشة عريضه، فرح به فرحًا شديدًا، سيُهديه لحفيده وحتمًا سيفرح به، همَّ للقيام من أسفل الشجرة للتوجه بسرعة إلى المنزل، من فرحته وخوفه من أن يفقده ظل ممسكًا به في يده، عابرًا الطريق في رعونة، كادت تصدمه سيارة إلا أن أحدهم لحق به، وانقذه، شكره وأكمل طريقه ولكن ليس بنفس الشغف، فقد شرد هذه المرة، أثناء سيره فقد كاد يفقد حياته ثمنًا لهذا الهاتف اللعين.

-ياله من هاتف ملعون! كدت أفقد حياتي لأجله، لابد أنه سقط من الرجل الذي مات في الحادث، إذن لابد أن أتخلص منه.

تحدث إلى نفسه ثم قرر بيعه إلا أنه تردد في ذلك الأمر فربما ظن أحدهم أنه سرقه، وهو الذي يفضل أن يأكل من سلات القمامة على أن يمد يده لسرقة هاتف. قرر تسلمية لقسم الشرطة، ليُعيدوه لأهل المتوفي في الحادث، وليتخلص من لعنته الجاذبة للحوادث.

وصل بالهاتف لقسم الشرطة، وبعد إجراءات مطولة تم استلامه وتحرير محضر رسمي به، وضمه إلى باقي حاجيات "فارس" التي عثروا عليها بعد الحادث، لتسليمها إلى والدته بعد التحقيق، ومعرفة سبب الحادث، والذي أظهر تفريغ المكالمات فيما بعد بأن آخر رقم اتصل بهاتف "فارس" هو رقم لشخص يدعى "مراد عوني أبو اليزيد" يعمل محاميًا.

كان "مراد" قد قرر الانتقام من "مريم" بإبعاد "فارس" من طريقها، وذلك بعد اتفاقه مع المهندس "مختار" وعشيقته "نسرين"، على التخلص من "فارس" للأبد لتبقى "مريم" فريسة سهلة لـ "مختار" مكسورة العين أمام "مراد" وعائلتها. فلم يكفه ما فعله بها لسنوات! إلا أن القدر تدخل ليصاب "فارس" في ذلك الحادث، وينكشف أمر "مراد" و"مختار" والبيضاء.. "نسرين".

كان "فارس" بعالمه الخاص؛ يبحث عن "مريم" يتمنى أن يتوسد صدرها، ليستمد منها القوة ليعود للواقع مرة أخرى، كان يحاول أن يخبرها بكل شيء،

Obeikan.com

وكانت هي تجلس خلف الباب منتظرة منه أي شيء يُخبرها بالأمل في عودته مرة أخرى.

*****

إضاءة حمراء مثيرة، مفرش حريري، كوبين من الشراب المثلج، وطبق به القليل من الكافيار، ومقعد يسع لشخصين، ومنضدة دائرية، يتوسطها شمعدان صغير، وطفاية للسجائر، وشهوة متأججة تعبأت بها أركان الحجرة، جلست "نسرين" على طرف المقعد تدخن سيجارتها وتعبث بشعرها بأطراف أصابعها، واضعة قدمًا فوق الأخرى، بينما جلس "مختار" على طرف السرير المقابل لها يهم بفك رابطة عنقه وأزرار قميصه في هدوء.

-أظن أننا تخلصنا من "فارس" إلى الأبد.

-لا يا عزيزتي ليس بعد، فمازال هناك أمل في عودته للحياة مرة أخرى.

-ألم تقل أنهم فقدوا الأمل في عودته للحياة، وأن وجوده تحت أجهزة التنفس الصناعي ماهو إلا إجراء روتيني لمحاولة إنعاشه؟

-بلى، ولكن مازال هناك أملاً بعودته ولو بنسبة ١٪ ولن يهدأ لي بال حتى أسمع خبر وفاته بأُذُني.

نفثت "نسرين" دخان سيجارتها بهدوء، ثم أطفاتها وقامت من مكانها، واقتربت من "مختار" وبدأت بالتمايل على أنغام الموسيقى وهي تضع يديها على كتفيه وقد أحاط هو خصرها بذراعيه، ثم أكملا حديثهما على الفراش الحريري

obeikan.com

مستمتعين بعطر الشهوة المنتشر في الغرفة.

كان كل شيء يعطيهما شعورًا لذيذًا، حتى قررت "ليندا" مقاطعتهما بفتح باب الغرفة، والجلوس على الأريكة أمامهما في هدوء!

-جميلة هي غرفة نومك يا "نسرين".

قالتها "ليندا" وهي تشعل سيجارتها، ثم ألقت بقداحتها على المنضدة ومالت ناحية اليمين قليلاً ثم وضعت قدمًا فوق الأخرى، وأخذت نفسًا عميقًا هادئا من السيجارة، ثم ابتسمت لهما.

أصابهما الفزع وتسمّرا مكانهما، إلا أن "مختار" حاول القيام، ولكن "ليندا" قاطعته للمرة الثانية، بإحدى يديها آمرةً إياه بالبقاء:

-لالا ابق مكانك، ولتكمل ما بدأته فأنا أريد مشاهدة فُحولتك معها يا زوجي العزيز.

-"ليندا".. أنا...

-أنت حيوان لا أكثر، أما هي فالحيوان أرقى منها مرتبة.

-"ليندا" أرجوكِ

- لا أريد سماع صوتك، فقط أريد مشاهدة فحولتك، فلترني إياها الآن، ما بالك؟ أفقدت الرغبة! أم أنك لا تملك الشجاعة لتفعلها أمامي!

-"ليندا"..

-"ليندا" الآن ستمنحكما درسًا للحياة.

-"ليندا" أرجوكِ.

أخرجت "ليندا" هاتفها المحمول ومسدسًا، ثم قامت بالاتصال بأحدهم وظلت تنفث سيجارتها وتمسك بالمسدس في هدوء، بينما ظلت "نسرين" تحاول ستر ما ظهر من جسدها بمفرش السرير وهي ترتعد رعبًا. مرّت دقائق قليلة وكانها دهرًا كاملاً فلم يعرف "مختار" ولا "نسرين" ماهو ذلك الدرس الذي ستمنحهما إياه "ليندا"، هل ستقوم بقتلهما؟ وإن كانت ستفعل فلمَ تنتظر كل هذا الوقت! ومن تنتظر!

تساؤلات كثيرة عصفت بعقليهما، أجاب عنها "مصطفى" زوج "نسرين" السابق، والذي خرج من السجن مؤخرًا!

ذُعرت "نسرين" حين رأت مصطفى يقف أمامها بعد سنوات قضاها خلف القضبان في قضية شروع في قتل حصلت بعدها على الطلاق منه بحكم المحكمة كونه مسجونًا.

-"مصطفى"!

-تقصدي المغفل!

-"مصطفى" صدقني أنا لم أقصد.

-نعم كنتي تقصدين الخيانة، وسجني، وأخذ أموالي كلها فقط، أليس كذلك!

لحظات من الصمت مرَّت على أربعتهم تخللتها بعض الدموع المتساقطة من

obeikan.com

عيني "نسرين"، وخفقات سريعة من قلب "مختار"، وهدوء تام يظهر على وجه "ليندا"!

قوية جدًا تلك المرأة.. لم تهتز لتوسلات "مختار" و"نسرين"، فقط كل ماتفعله هو الجلوس بهدوء أمامهما، ولكن الأمر بداخلها ليس كما يبدو على وجهها، فهناك حرب مشتعلة تدور بداخلها، فأي امرأة تلك التي ترى زوجها بأحضان عشيقته ولا تهتز! غرورها قاتل، وهدوئها عنيف، ونظراتها ساخنة، لا بل كل ما فيها ساخن حد الغليان، ولكن يجب أن تُظهر جبلاً من الجليد يطفو فوق ذلك البركان حتى لا تفقد لذة الانتصار على خيانتهما.

*****

في المنزل المقابل لمنزل "مريم"، وعلى مقعده الوثير جلس يتأمل صورتها الموجودة على الحائط، ممسكًا بدفتر من الأوراق الوردية وقلم وبدأ برسم ملامحها على أوراقه، كان يهتم بتفاصيلها كثيرًا، بنظرة الشرود الدائمة بعينيها، ضحكتها المميزة والتي تتغلف بحزن مستتر، كل ما بها كان ينمُّ عن شخص غير الشخص المرح الموجود أمام الجميع، هو فقط من كان يعلم بحقيقتها الهشة لا أحد غيره، فقد كان هو المتسبب فيها مُذ سنوات، هو الذي جعل منها شخصًا آخر حتى هو لم يتوقع أن تصبح عليه.

أكمل "يامن" رسمه لـ "مريم" وطوى الورقة بعد أن كتب على طرفها بدلاً من توقيع اسمه عبارة:

اشتقت لكِ..

كان ينتظر عودتها ليرسل لها الورقة مع صديقه عامل التوصيل بأحد محلات الوجبات الجاهزة، حتى لا يفتضح أمره، ولكنها لم تأتِ فآثر النزول للسؤال عنها، كان يعلم أنها مغامرة، وأنه ربما فقد طريقة مراقبتها والاطمئنان عليها إلى الأبد، ولكنه قرر فعلتها حتى يطمئن قلبه عليها، فلم يعد هناك أحد له بعدما ابتعد عنه الجميع.

فبعد أن أصيب بالسرطان وتعرضه لجلسات العلاج الكيماوي فقد الكثير من وزنه وأصبح هزيلاً، وفقد شعره، وبات باهتًا لا حياة في جسده، ولا قلبه، فـ "مريم" كانت خيط النجاة بالنسبة له، كانت هي الوحيدة القادرة على انتشاله من ذلك البؤس الذي يعيش فيه، كانت النظرة الواحدة لعينيها كفيلة بأن تحييه لأيام وأيام.

حاول الذهاب لمنزل أبيها ولكنه علم منهم أنها تركت منزلهم ولن تعود للعيش معهم مرة أخرى وأنهم لا يريدون معرفة شيء عنها! فهي الأنثى المتمردة التي آثرت العيش بمفردها مع صغيرها ضاربة بنظرة المجتمع وكلام العائلة عرض الحائط، هي التي خرجت عن طوعهم كما يروا لا يحق لها أن تدخل بيتهم مرة أخرى.

-مسكينة يا "مريم" تحملتِ الكثير والكثير، وكل هذا تواجهيه بمفردك!

قالها "يامن" لنفسه، وبدأ برحلة البحث عنها، كل ما عرفه منهم أنها انتقلت للسكن بمدينة الرحاب البعيدة عن زحام القاهرة وضوضائها، ذهب وبدأ يبحث عنها بين شوارعها وبيوتها وحدائقها، حتى قابلها مصادفة في أحد الحدائق

تلعب مع "ياسين" والذي علم أنه ابنها من شدة الشبه بينهما، حتى أنه له نفس ضحكتها المبهجة.

جلس بمقعد قريب منها، كان واثقًا تمام الثقة أنها لن تتعرف عليه، فلم يعد هو "يامن" الذي عرفته طوال سنوات وأحبته، بل هو الآن مجرد مسخ في عيون الجميع، يخشى الجميع الاقتراب منه ويقضي ساعاته بمفرده ما بين آلامه شبحه المتمثل أمامه بشكل دائم في المرآة التي ينظر فيها كل صباح ويلعن نفسه ويلعن المرض ويلعن ظلمه لمريم و جرحه لها، كان متيقنًا بأن ما أصابه هو عقاب له على ما فعله بها؛ فقد كسر قلبها بعد أن أصابه بمرض عشقه، وهو أصيب بالمرض الذي لا شفاء منه، هما الآن متعادلين، إلا أن "مريم" استطاعت أن تتغلب على الكثير بينما بالكاد يستطيع هو أن يتمشى ويقضي حاجته.

وصل باب المنزل، ووجد حارسه يجلس على دكته الخشبيه بجوار المدخل، فاقترب منه في تردد وسأله:

-مساء الخير!.

-مساء النور سيدي، كيف أساعدك؟

-أنا أود السؤال عن المهندسة "مريم"، أليست تسكن هنا؟

-ها.. لا أعلم فأنا جديد هنا ولم أعرف جميع سكان العقار بعد.

-حسنًا أشكرك..

كان رد حارس العقار بمثابة راحة لـ "يامن" فقد كان مرتعدًا من فكرة أن تعرف

”مريم“ بوجوده، ولكنه بات متأكدًا الآن أن شيئا ما سيئًا قد حدث، خاصة وأنها لم تعد إلى المنزل حتى الآن.

استدار بجسده النحيل متجهًا ناحية منزله، فلمح ”مريم“ تنزل من التاكسي فانطلق مسرعًا حتى لا تلحظ وجوده ويكتشف أمره.

obeikan.com

(٣٠)

ظلام دامس، لا تستطيع أن ترى فيه حتى سكينها اللامع، صوت دقات قوية تشبه طبول الحرب، أنفاس متقطعة وكأن أحدهم يلهث خوفًا من شيءٍ ما! فتحت "مريم" عينيها فلم تجد سواه، حاولت توسيع حدقة عينيها لتتمكن من الرؤية بشكل أوضح، فكان هناك يجلس بأحد الأركان، متربعًا على الأرض، يحمل بيده كتابًا صغيرًا يقرأ فيه، تحاملت على نفسها وقامت مستنده إلى حائط مجاور لها، تحسست خطواتها برفق حتى وصلت بالقرب منه، فوجدته على هيئته السابقة التي تركتها عندها منذ سنوات، تمامًا كما هو لم تتغير ملامحه ولا حتى زيه، نظرت إليه مطولاً وكادت تنطق باسمه ولكنه سبقها في لهفة مغلقًا كتابه قائلاً:

-"مريم"! اشتقت لكِ يا صغيرتي.

-"خالد"!!

-نعم "خالد" الذي هجرته وتركته بمفرده في تلك الغرفة المظلمة منذ سنوات ولكنه لم يتخلَّ عنكِ ولم يتركك لحظة، كنت أعلم أنكِ ستعودين لي يومًا ما، وراهنت نفسي على ذلك، وها أنتِ الآن تقفين أمامي بكامل هيئتك وقوتك التي تركتها فيكِ.

أمسكت "مريم" برأسها، وكأنها تحاول العثور على الحقيقة بين خصلات

شعرها ثم تابعت في ذهول:

-ولكن.. ولكن كيف!! كيف عدت؟ لقد تخلصت منك منذ سنوات، ولماذا عدت الآن!

- عدت لأنكِ تحتاجينني، وتحتاجين دفعة قوية للتخلص من هذا الخائن، ولن يهبك القوة سواي، أنا من يحبك بصدق.

-لا، أنت لا تحبني، أنت وهم، خيال، أنا صنعتك، وأنا قتلتك.

-لن نكرر حديثًا قديمًا يا فتاتي، فأمامنا الآن واقعة خيانة يجب الثأر لها والتخلص من طرفيها، فلتقتليهما ولننتهي من أمرهما.

-ولكن كيف أقتلهما!

-بالسكين الموجود في يدك

-لا لن أقتل أحدًا، أنت مجنون، لا بل أنا المجنونة.

-وتتركيه ليخونك مرة أخرى!

صمتت "مريم" ولم تجد ردًّا على كلماته، فهو خائنٌ بالفعل، وقد شاهدت خيانته بعينيها، وشعرت بلمساته لجسد عشيقته، بل أنها استنشقت عطرهما وتذوقت شهوتهما!

هزَّت رأسها بشدة ثم تابعت:

-لا لن أصبح قاتلة.

-ستقتليه.

-لا!.

-لا تخافي، أنا معكِ، سأساعدك، سأوجهك إلى حيث مكان الضربة القاتلة.

دوارٌ بدأ يصيب رأسها، بعد أن صدمتها بالحائط مرات متتالية، خيط رفيع من الدماء بدأ يتسرب من منتصف جبهتها، وسكينها مازال بيدها، أما "مراد" فبدأ بالتحرك من السرير في خلسة، مقتربًا منها في هدوء.

والفتاة مازالت بمكانها تحاول ستر جسدها، اقترب "مراد" أكثر وهي مازالت تحاول خبط رأسها في الحائط، طاردة "خالد" منها.

-احترسي سيمسك بك.

قالها "خالد" في عقلها، فالتفتت مسرعة إلى الخلف مشهرة سكينها تجاه "مراد" الذي وقف مكانه محاولاً تهدئتها:

-"مريم" اهدئي أرجوكِ.

-لن أهدأ حتى أقتلك وأقتلها.

-وبمَ سيفيدك قتلنا، لن تجني سوى تشريد "ياسين" ودخولك السجن وإعدامك.

ضحكت "مريم" ضحكة مدوية، ثم قالت ساخرة، لن أدخل السجن يومًا، فستقتلان بعضكما البعض أما أنا فكنت في السوق أبتاع احتياجات المنزل

وسأعود لمنزل أمك وأنتظرك لتأتي هناك.

-"مريم" أرجوكِ، أنا خائن و حيوان، ولكن أرجوكِ لا تقتليني.

-سأقتلك ثم أقتلها، ثم أفضحكما.

-حسنًا! مارأيك أن تدعيها تذهب ثم نجلس لنحل كل شيء أنا وأنتِ يا صغيرتي.

-لا! يجب أن تموتا، يجب أن تذوقا من نفس الكأس وتشعرا بمرارته.

-وكيف سنذوق مرارته ونحن مقتولان! فقط اهدئي قليلاً.

بدأت "مريم" بخفض سكينها قليلاً، فحاول "مراد" الاقتراب أكثر ومسك السكين من يدها، إلا أنها انتبهت لما ينوي، فاشهرت سكينها مرة أخرى ولكن هذه المرة أصابت يده بجرح قطعي كبير، انفجرت الدماء بشده على أثره، فيبدو أنها قطعت له شريانًا.

سقط "مراد" أرضًا محاولاً سد جرحه بأي شيء، وهو يهتف صائحًا:

-مجنونة.. مجنونة.

وما أن رأت "مريم" الدم السائل من يده، حتى ألقت السكين من يدها وظلت تصيح بهيستريا، ظلت تصرخ وتصرخ ممسكة برأسها:

-اتركني، ابتعد عني، أنا لا أريدك ولا أريد شيئًا منك، لن أصبح مجرمة.

ظلت تصرخ حتى فقدت وعيها وسقطت أرضًا.

كان "مراد" ينظر لها بذهول، أما الفتاة فكانت شبه فاقدة للوعي، فقد ظنت

obeikan.com

للحظات أنها ستلقي حتفها على يد "مريم" المجنونة.

وما أن سقطت "مريم" أرضًا حتى قام "مراد" وصرخ على عشيقته بارتداء ملابسها والخروج من المنزل فورًا، ثم ارتدى ملابسه بدوره، وترك "مريم" ملقاة أرضًا وفر هاربًا!

كانت "مريم" تتصارع مع "خالد" صراعًا عنيفًا؛ فهذه المرة لم يكن الأمر مجرد قوة مكتسبة لمواجهة مخاوفها، بل وصل الأمر للقتل! كانت الجارة الموجودة بالشقة المقابلة والتي كانت صديقة لـ "مريم" سمعت أصواتًا عالية صادرة من شقتها، وحاولت الإنصات لما يحدث، لكنها لم تستطع فهم شيء مما يدور بالداخل، فقط رأت الفتاة تخرج مسرعة ترتدي بقية ملابسها على السلم، و"مراد" يلحق بها تنزف يده بغزارة، ساحبًا الباب خلفه في رعونة فلم يغلق جيدًا، وحين اطمأنت لنزول "مراد" من المنزل ظلت مترددة في الدخول، فتحت الباب وظلت واقفة تنادي على "مريم" بصوت منخفض، ولكنها لم تتلق أي رد!

عبثت الأفكار بصدر الجارة فخافت ن أن يكون "مراد" قد ألحق أذى بـ "مريم" خاصة بعد أن رأت الدم يغطي ملابسه ويده، فقررت الدخول بهدوء مكررة النداء على "مريم".

أكملت طريقها حتى وصلت لغرفة النوم فوجدت "مريم" ملقاة على الأرض والدماء تسيل من جبهتها، فصرخت وجرت ناحية الباب تنادي على الجيران لتلقى المساعدة.

نُقلت "مريم" إلى المستشفى بعد أن فشلوا في إفاقتها، وفي المستشفى تمددت على فراشها، وجلس حولها أبوها وأمها وبعض أقاربها وجيرانها، أما الصغير "ياسين" فكان جالسًا على طرف السرير بالقرب من رأسها، الجميع ينظر لها بترقب، الأطباء أجمعوا على أن أصابتها لا تستدعي تلك الغيبوبة كما أن مؤشراتها الجسدية تفيد بأنها بحال جيدة، إلا أنها مازات بعالم آخر، بعيدًا عن الواقع، تعيش هناك بكامل إرادتها..

تبدو للجميع هادئة جدًّا، ثابتة، لم يعلموا أنها على الطرف الآخر من العالم تستعد لحرب شرسة مع النفس والعقل، كانت حربها شرسة للغاية مع خالد فقد كان كالسرطان الذي تمكن من خلايا دماغها، لم يستسلم لها بسهولة، كانت تحارب بضراوة وهو يدافع بشراسة، كادت تزهق روحها أثناء المعركة، حتى مر من أمامها طيف شخص غريب، شعرت معه بشيء جديد عليها، راحة غير عادية، شعرت معه بشي يشبه الحب!

أي حب ينشأ في عالم موازٍ، في غيبوبة! لم تعلم حقيقة الأمر ولا هو، كل ما تعرفه أنها تحارب "خالد"، وهو كان بالغرفة المجاورة في حالة هروب من الواقع تمامًا مثلها، بعد أن فقد حبيبته في حادث سيارة.

كان الأطباء يتابعون حالتها الصحية بترقب، وهم على يقين أنها تهرب من الواقع برغبتها هي، دأبوا على اعطائها المهدئات والأدوية بشكل منتظم، فالصدمة لم تكن هينة كما علموا من أسرتها، كان "ياسين" هو المهدئ الطبيعي لها، أما هو فكان الطيف الذي يظهر ويختفي ويُحدث مع ظهوره رجفة بسيطة في جسدها.

استمرت في غيبوبتها عدة أيام، ثم عادت للحياة الواقعية مرة أخرى بعدما امتنع عن الظهور أمامها، وبعدما فقدت الأمل في الانتصار على "خالد" بمفردها، عادت وقد أصرَّت على التخلص من خالد نهائيًّا والتخلص من كل شيء يربطها بحياتها مع "مراد" إلى الأبد.

-أرجوك يا دكتور أريد التخلص منه.

-اهدئي يا "مريم" سنتخلص منه سويًا ويجب أن تساعديني.

-سأفعل ما تريد فقط، أخبرني كيف أتخلص من وجوده.

-اسمعيني جيدًا يا "مريم"، "خالد" شخص وهمي أنتِ صنعتيه بخيالك حتى تحول إلى هلاوس سمعية وبصرية، أنتِ حولتيه إلى مرض نفسي.

-ولكني قوية يا دكتور، هو فقط كان يمدني بقوة زائدة.

-بالفعل أنتِ قوية، وإلا لما كنتِ معنا الآن، وما كان "مراد" على قيد الحياة هو وفتاته، ولكنكِ لست بالقوة المطلوبة للتخلص من تلك الهلاوس.

-وماذا أفعل لأتخلص منها.

-سنتعاون في العلاج.

-حسنًا سافعل ما تقول، ولن أتحرك من هنا حتى أستعيد كامل قوتي النفسية والعصبية.

-قبل أي شيء يجب أن تعلمي أن أي ضغط نفسي سيتسبب لنا بكارثة.

-أعلم ذلك جيدًا.

-ويجب أن تعلمي أيضًا أن ما حدث ليس بالأمر الهيِّن، ولكني أُحييك على تخطيكي ذلك الأمر بتلك الجدارة، صحيح أنكِ هربتي إلى عالم موازي ولكني أعلم أنكِ كنتي تعيدين ترتيب أوراقك للبدء من جديد.

-بالفعل كنت أحاول أن أفعل ذلك، وكنت أحاول محاربته والتخلص منه.

-وإلى ماذا وصلتي معه؟

-قوي هو يا دكتور يأبى الخروج من رأسي وكأنه جزء مني.

-سيذهب يا "مريم"، لا تنسي أنك صنعتيه من خيال.

-ليتني لم أصنعه، ليتني لم أحتجه.

-أريد أن أعرف سبب صنعك له يا "مريم".

-كنت أشعر بالوحدة، لا يتكلم أحد معي، كنت أخاف الناس والرجال.

-وأين أهلك؟

-موجودين دائمًا، ولكن ليسوا قريبين مني، لا يفهموا ما يدور بداخلي، فكل ما يشغلهم هو أن أكبر وأتزوج ويكون لي بيت وعائلة، أما احتياجاتي الإنسانية فلم يهتموا بها، كنت بحاجة إلى عناق واحد من أمي أو أبي، ولكنهم لم يهتموا.

-ولما تخافين من الرجال؟

-كنت ومازلت أرى الجميع ينظر لي كجسد لا روح، لم يهتم أحدهم بروحي بقدر

obeikan.com

اهتمامهم بجسدي.

-لذلك صنعتي "خالد" الوهم.

-نعم! وكنت أعانقه كل مساء، وأنام بحضنه، وأحكي له كل شيء.

-ألم تجدي من يستحق ثقتك طوال تلك السنوات سوى "خالد" يا "مريم"؟

-لم يكن هناك سوى "حسن".

-ومن يكون "حسن"؟ هل هو أخوك؟

-"حسن" جاري وصديقي الوحيد، لا أعلم إن كنت أحبه أم فقط هي علاقة من نوع خاص بيننا، كل ما أعلمه أنه شخص مميز جدًا بالنسبة لي، أشعر معه بالسعادة دائمًا، وكنت أشعر بالأمان بوجوده.

-وأين هو الآن؟

-في عالم أعدل كثيرًا من عالمنا.

قالتها وذرفت دمعة دافئة، واعتصر معها قلبها حزنًا على "حسن" واحتياجًا له، فربما كان هو الوحيد الذي يمكنه محاربة "خالد" معها.

ابتسم لها الطبيب، مطمئنًا إياها:

-اسمعي كم عمرك؟

-عمري على الورق سبعة وعشرون عامًا، أما في الواقع سبعين.

-جميل وأنا عمري ٣٥ هل يمكنك أن تعتبريني صديق لكِ كحسن مثلاً؟!

obeikan.com

-كحسن؟

-نعم تحكي لي كل شيء وتثقي بي كي أحارب معكِ "خالد".

-حسنًا! أوافق جدًا.

قالتها وهي تضحك بخجل ثم أردفت قائلة:

-حسنًا يا صديقي الطبيب! أود أن أخبرك بشيء حدث لي أثناء هروبي في العالم الموازي.

-وما هو؟

-كنت أرى طيفًا لشاب غريب، لم أره أو أعرفه من قبل، ولكنه كان يمر من أمامي بضع أوقات.

-وبماذا كنتِ تشعري حين تريه؟

-كنت أشعر بأني أحبه.

قالتها واحمرت وجنتاها كطفلة صغيرة لم تتخطَّ العاشرة بعد، فابتسم الطبيب متابعًا:

-هل يمكن أن تصِفيه؟

-لا! ولكني كنت أعرفه كلما رأيته، كنت أشعر بروحه لا بجسده وملامحه، أتذكر ذلك الفيلم الأمريكي الذي فقد فيه البطل وعيه ودخل بغيبوبه وقابل هناك بضع أشخاص؟

-نعم!

-هذا ماحدث، الأمر يشبه ذلك الفيلم، أعلم أنه دربٌ من الجنون، وربما كان هذا الطيف مرض نفسي وهلاوس جديدة.

-ليس الأمر كذلك، فقط اهدئي وكل شيء سيكون بخير.

-حسنًا، هادئة أنا.

قالتها وابتسمت وكادت تُكمل حديثها حتى قاطعهما طرق "ياسين" المتواصل على الباب، الذي اندفع مسرعًا تجاهها وقفز حتى ألقى نفسه بحضنها مغمض العينين.

*****

عدة شهور مرّت ومريم تتعافى بشكل ملحوظ، وتتخلص من "خالد" بشكل تدريجي، فقد كان خروجه من عقلها أمرًا عسيرًا، وكان هو في الغرفة المجاورة يحاول تخطي ما حدث لحبيبته وخطيبته وزوجته التي لم يعقد قرانه عليها بعد والتي فقدها في حادث مروع أثناء توجههما لقاعة أحد الفنادق للاحتفال بعقد قرانهما وزفافهما!

كان شابًّا، ولكن آثار الزمن باتت واضحة على ملامحه، حزنٌ عميقٌ يسكن عينيه، وألمٌ يضرب بنفسه من الفقد، كان كلاهما بحاجة إلى التمشية قليلاً، فخرج كل منهما من غرفته وتوجه ناحية الحديقة، كانت "مريم" تجلس على مقعد خشبي تراقب سربًا من النمل يخترق بلاطات الرصيف، بينما هو كان يتجول في هدوء

obeikan.com

مستمعًا لموسيقى بيتهوفن بسماعات الأذن.

مرت آخر نملة من أمامها حتى تلاشى الصف بأكمله داخل البلاطات، فابتسمت "مريم" ابتسامة رقيقة، ورفعت رأسها في هدوء لتتابع غروب الشمس التي أوشكت على الهبوط خلف الأشجار، وما أن رفعت عينيها حتى رأت نفس الطيف، يخرج من خلف الشجرة ببنطال وقميص أبيض، يخترق بجسده القوي أشعة الشمس، فألقت بلونها الذهبي على وجهه وعينيه التي تحولت للون العسلي.

اندهشت "مريم" وقامت مفزوعة من مكانها، فتحت فمها على إثر الدهشة ونطقت بصوت عالٍ:

-أنت!

التفت هو ناحية الصوت، ونظر لها باندهاش ثم رد قائلاً:

-أنا!؟

-نعم أنت، أنا أعرفك، لقد رأيتك من قبل.

-تعرفينني أنا؟

-نعم!!

-قابلتك عدة مرات، كنت أراك أثناء رحلتي في العالم الآخر.

ضحك ضحكة مدوية وتابع قائلاً في هدوء:

-أي عالم آخر؟ هل توفاك الله ثم عدتِّ للحياة؟ أم أنكِ جنيّة لا قدّر الله!

ضحكت "مريم" بدورها، ورفعت غُرتها عن وجهها ونظرت مباشرة لعينيه قائلة:

-لا بالطبع! لست بجنية، ولم يتوفاني الله، لقد كنت في غيبوبة ما، وكنت أراك كطيف.

-غيبوبة !؟

-نعم، منذ عدة أشهر، ولكنك انقطعت عن الظهور فجأة، وأنا عدت للواقع ولم أعد أراك.

-لقد كنت في غيبوبة بالفعل إثر صدمة منذ عدة أشهر.

-مممممممم.

-وما اسمك أيتها الجنية؟

-اسمي "مريم" وأنت؟

-أنا "فارس"، المهندس "فارس".

-هاا! لا، لا تقل ذلك، أنا أيضًا مهندسة.

-حقًا؟

-بلى، أليست صدفة عجيبة؟

-جدًا.

obeikan.com

ثم انقطع حديثهما بعد قدوم الصغير "ياسين" مندفعًا ناحية "مريم" التي جلست على ركبتيها واحتضنته بحنان.

فاستأذن "فارس" في الانصراف وجلست "مريم" مع "ياسين" بالحديقة يتبادلان الضحكات والمداعبات الطفولية.

خرجت "مريم" من المصحة بعد خروج "فارس" بحوالي شهر، ولكنه لم يغب عنها يومًا، كان يتردد عليها بشكل شبه يومي، بعد أن صارا صديقين مقربين جدًا، كانت هي مازالت زوجة لـ "مراد" فلم يقم بتطليقها على الرغم من علمه التام بكرهها له، ولكنه كان متمسكًا بحقه في منزل الزوجية، ولم يشأ أن يتركه لها كزوجة وحاضنة لابنهما "ياسين"، ولكنها قامت برفع دعوى للخلع بعد خروجها مباشرة وحكم لها بالطلاق منه منذ عدة أشهر، وصارت حرة للمرة الأولى في حياتها منذ عدة سنوات.

كان والداها قد قررا بقائها معهما هي و"ياسين"، ولكنها رفضت رفضًا قاطعًا وقررت السكن بمنزل خاص بها، وقد ساعدها على ذلك "فارس" الذي وفر لها عملاً مناسبًا لها في نفس المجموعة التي يعمل بها مهندسًا وتقاضت منها راتبًا كبيرًا مكّنها من تأجير شقة صغيرة، ثم بعد ثلاث سنوات تمكنت من شراء شقة خاصة بها هي و"ياسين" بأحد المدن الجديدة والقريبة من مكان عملها.

*****

obeikan.com

(٣١)

مازالت طرقات المستشفى الضيقة تستقبل المزيد من الحزن والدماء، حوائطها الرمادية تجتذب المزيد من ذرات الغبار الذي يشكل بيئة جيدة لشبكات العنكبوت الذي يصطاد الذباب بمهارة شديدة تمامًا كمهارة "مصطفى" في التصويب ناحية "نسرين" و"مختار".

فبعد أن أطلق النار عليهما، وتخلص من خيانتهما خرج هو و"ليندا" بهدوء من المنزل، ولكنهما لم يعيا لأن الوقت قد تأخر وقد أوصد حارس العقار بوابة العمارة الكائنة بها شقة "نسرين"، مما اضطرهما لاستدعائه ليفتح لهما البوابة.

وحين رأى قطرات الدماء المنثورة على ثياب "مصطفى"، شك في الأمر وقام بسؤالهما عن سبب وجودهما بالعقار ومن من السكان كان يضيفهما، فردت "ليندا" عليه بأنهما كانا عند طبيب النساء بالدور الثاني، فابتسم لهما الحارس في خبث وطلب منهما الانتظار حتى ياتي بالمفتاح من داخل غرفته، وما ان دخل الغرفة حتى اتصل للإبلاغ عن شكه بأمرهما، لأن عيادة طبيب النساء كانت مغلقة بذلك اليوم!

نُقل "مختار" و"نسرين" إلى المستشفى محاولين إسعافهما، بعد أن حضرت

الشرطة وتبينوا الحادث.

كانت "مريم" تجلس على أحد مقاعد الاستقبال بجوار والدة "فارس" تدعو الله كثيرًا حتى ينجو "فارس"، ثم تذكرت أول لقاء لهما والطيف والغيبوبة، فانطلقت إلى غرفة الطبيب المسئول عن حالة "فارس" وقالت له في حزم:

-أريد أن أفقد وعيي.

-نعم؟ لا أفهمك سيدتي.

-ألم تسمع ما قلت؟ أريد أن أفقد وعيي، إنها الطريقة الوحيدة للوصول لعقل "فارس"، أرجوك يا دكتور.

-أنتِ مجنونة، وإن لم تخرجي من هنا سأطلب منهم نقلك لقسم الأمراض النفسية والعصبية بالدور العلوي.

-أرجوك يا دكتور افهمني.

-كل ما أفهمه الآن أنكِ يجب أن تهدئي قليلاً، وكل شيء سيكون بخير.

فتركته وخرجت حين رأت أنه ليس هناك فائدة من الحديث معه، فهو لن يفهم ما تتحدث عنه، لن يفهم العلاقة القوية بينها وبين "فارس".

*****

-ثقيلة جدًا المياه حين تتسرب إلى رئتك، ولكنها مريحة، مريحة جدًا حين تستمع لصوت هديرها، ولكن ما هذا الصوت الذي أسمعه؟ أهو صوت موتور ما؟

obeikan.com

كان الصوت هو موتور قارب الانقاذ الذي أسرع لانقاذ حياة "سامح" بعد أن رآه أحد رواد المراكب النيلية يلقي بجسده ليغوص في مياه النهر، تم انتشاله بسرعة من الماء، ونقله على الفور إلى المستشفى ليتلقى العلاج اللازم.

كانت "نهى" و"نهال" مازلتا تجلسان نفس جلستهما وتتوسطهما "ترنيم" حين طرق أحدهم الباب بعنف، فقامت "ترنيم" مسرعة لتفتح الباب، كان الطارق شخص غريب يحمل حذاء "سامح" وورقة صغيرة مطوية وبطاقته الشخصية وهاتفه المحمول، كل الأشياء التي تركها بجوار سور الكوبري قبل أن يلقي بجسده في قاع النيل.

-من أنت؟

-هل هذا منزل "سامح عبد الغفار"؟

-نعم هو، ما الأمر؟

قالتها "نهى" التي قامت خلف "ترنيم" بلهفة وهي تنظر للحذاء في يد الرجل وهاتف "سامح" المحمول.

-إنه بخير لقد نقلوه إلى المستشفى لتلقي الإسعافات اللازمة.

قفزت "نهال" من جلستها جرت ناحية الباب وأمسكت بكتف الرجل صارخة:

-أي مستشفى؟ ماذا حدث؟ خذني له.

انطلق ثلاثتهم مع الرجل إلى المستشفى، بعد أن استقلوا سيارة أجرة وفي

الطريق فتحت "نهى" الورقة الصغيرة فوجدتها رسالة من "سامح":

عزيزتي "نهى":

حين تقرئي تلك الورقة أكون أنا قد استقريت في قاع النهر أدفن بين طميه علّي أجد به راحة من تلك الدوامة القاتلة التي وضعت فيها، لن أطيل الأمر عليكي، فقد كنت أعلم من بادئ الأمر بأن "ترنيم" ابنة لكِ ولكني لم أعرف من يكون والدها، وبعد أن عرفت أن "مصطفى" هو الوالد الحقيقي لها، أتمنى لكم حياة سعيدة.

حبيبتي "نهال":

أتمنى أن تسامحيني فقد كذبت عليكِ طوال أعوام، ولم أخبرك بعدم قدرتك على الإنجاب لعيب صغير بكِ، سامحيني أرجوكِ.

صغيرتي "ترنيم":

لن أقول لكِ إني أحبك، ولكنك ستعي مقدار حبي لكِ حين تبلغي رشدك فلتعيشي عيشة هنيئة مع والدك الحقيقي واذكريني دائمًا، فمازلت بابا "سامح" الذي يحضر لكِ الشوكولاته والبسكويت.

قرأتها "نهى" وهي تحاول لملمة الحروف من بين دموعها المنهمرة فقد كانت تعلم بحب "سامح" لها، ولكنها لم تكن تعلم أنه كان يحبها بهذا القدر، لدرجة أن يستر فضيحتها وينسب ابنتها سفاحًا له كي لا ينكشف أمرها.

وصل الجميع للمستشفى، وهرعوا إلى غرفة الاستقبال للاطمئنان على حال

"سامح" الذي وجدوه يرقد باكيًا على سريره، فانطلق ثلاثتهم وارتمين بحضنه باكين منهمرة دموعهن بغزارة.

*****

بالغرفة العلوية كانت "ندى" مازالت مقيدة إلى سريرها حتى أتتها زائرة لم تكن تعرفها من قبل، كانت كاتبة وصحفية في إحدى المجلات الشهيرة وجاءت لأخذ حوار صحفي منها عن الأسباب التي يمكن أن تدفع امرأة لطعن زوجها ومحاولة قتله، لتناقش قضيتها مع قرائها وربما استخدمت قصتها في عمل قصصي لها.

دخلت "مرام" بهدوء وسلمت على "ندى" التي كانت هادئة للغاية وجلست تقص على "مرام" ماحدث مع "حازم" منذ اليوم الأول لزواجها منه وحتى اليوم الذي طعنته فيه انتقامًا منه على كل ماحدث لها بسببه، ثم صمتت قليلاً فسألتها "مرام":

-ما بكِ؟، لمَ الصمت الآن؟

-لقد اشتقت أولادي جدًّا، أيمكن أن تساعدينني كي أراهم ولو لدقيقة واحدة!؟

-بالطبع سأفعل ذلك ولكن أين سأجدهما؟

-ستجديهم بالدور الأول، فقد علمت أن "حازم" هنا بنفس المستشفى ولا ريب أنهم معه، أو مع والدته.

-سأبحث عنهم وأحضرهم لكِ على الفور، لا تقلقي.

انصرفت "مرام" إلى الطابق الأول تبحث عن "كريم" و"ميرنا" بين الوجوه، ولكنها لم تتعرف عليهما، فلم تكن تعرف سوى اسميهما، فتوجهت لموظف الاستقبال لتسأل عن والدهما فوجهوها لغرفة العناية المركزة.

اخترقت الطرقات الرمادية بسرعة باحثة عن الصغيرين، حتى وصلت إلى المكان المخصص لانتظار العناية المركزة فوجدت ثلاثة أطفال بجوار سيدة تحتضنهم وامرأة عجوز تبكي بحرقة وسيدة أخرى تمسك القرآن تقرأ فيه بخشوع، اقتربت منهم لتسأل عن الصغيرين:

-مساء الخير!

رفعت "مريم" رأسها لتجد "مرام" صديقتها من أيام الجامعة تقف أمامها، فقالت بذهول:

-"مرام"! أنتِ "مرام"!؟ صديقتنا من الجامعة؟

فاندهشت "مرام" وردت بلهفة:

- "مريم"! هل هذه أنتِ؟ ياااااااااه لقد مر الكثير يا صديقتي كيف حالك؟

-بخير حال الحمد لله وأنتِ؟

-أنا بخير.

-ولماذا أنتِ هنا؟

-أنا أبحث عن "كريم" و"ميرنا" أمهما تريد أن تراهما.

-"ندى"؟

-وهل تعرفينها؟

-إنها صديقتي وجارتي من منزل أمي.

-حقًا؟ وهل تعرفي مكان الصغيرين؟

فرد "كريم" في خجل:

-أنا "كريم" وهذه أختي "ميرنا".

-يا الله صغيرة هي الدنيا، وضيقة جدًا.

قالتها "مريم" وهي تتنهد بألم، ثم أردفت قائلة:

-هل يمكنك فعلا أخذهما لرؤية أمهما؟

-بلى! فقد كنت بصدد عمل حوار صحفي معها وطلبت مني ذلك وبعلاقاتي يمكنني توصيلهما إليها.

-حوار صحفي؟ وهل تركتِ الهندسة واتجهتِ للصحافة؟

ضحكت "مرام".

-نعم! لم أجد نفسي بين الخطوط والألوان، ولكني وجدتني وبقوة بين السطور والحروف والفصلات، ولكن دعكِ مني وأخبريني لمَ تجلسين هنا فـ "ندى" بالطابق العلوي.

obeikan.com

-أنا هنا بانتظار صديقي "فارس" فقد تعرض لحادث ومازال بغيبوبة.

-شفاه الله وعافاه، حسنًا سآخذ الصغار لأمهما وأعود إليكِ لاحقًا.

-حسنًا عزيزتي! أنا بانتظارك.

انطلقت "مرام" بالصغيرين وأخذتهما لأمهما التي رُدَّت لها روحًا كانت ضائعة منها بمجرد أن وقعت عينيها عليهما. ركضا إليها مسرعين وظلت تقبل كل جزء فيهما، بينما ترقرقت دمعة من عين "مرام" الواقفة بجوار الباب تنتظر أخذ الصغيرين لإعادتهما لـ "مريم" مرة أخرى.

أما "مريم" فما زالت تنتظر أي شيء من "فارس" الراقد في عالمه الخاص، وبينما هي شاردة أيقظها "ياسين" من شرودها وهزها بقوة قائلاً:

-ماما.. ماما!

-ها "ياسين" ماذا حدث؟ هل عاد "فارس"؟

-لا يا ماما.

-هل أصابك مكروه؟

-لا يا ماما، أتعرفي من رأيت بالغرفة المقابلة هناك؟

-من؟

-أتذكري "ترنيم"؟

-من تكون "ترنيم"؟

obeikan.com

-الفتاة البيضاء التي قابلناها في حديقة الحيوان قريبة صديقتك..

-اه "ترنيم"، تذكرتها.

-لقد كانت هناك هي وصديقتك.

-"نهى"!

-لا أعرف! ولكن هي التي قابلناها بالحديقة.

-حسنًا! فلتأتِ معي.

يبدو أن اليوم هو يوم اللقاءات الغريبة.

-ماذا قلتِ يا ماما؟

-لا شيء يا صغيري لا شيء، تعال معي.

أمسكت "مريم" بيد "ياسين"، وتوجهت إلى الغرفة التي أشار لها عليها، وما أن دخلت حتى وجدت "نهى" تجلس بجوار أختها، و"ترنيم" تتحرك جيئة وذهابا داخل الغرفة فاقتربت منهم قائلة في لهفة:

-"نهى".. ماذا حدث؟

-"مريم".. أعلمتي ماحدث لنا؟

-لا! ولكن "ياسين" رأى "ترنيم" هنا وأخبرني بوجودكم، فجئت أرى ما يحدث.

قصت "نهى" على "مريم" كل ما حدث، ومحاولة انتحار "سامح"، وعودة

"مصطفى" بعد اختفائه بسنوات.

-يبدو يا صديقتي أن شبح الماضي لا يتركنا نعيش بسلام أبدًا.

-لكل خطأ عقاب يا "نهى"، وأنتِ أخطأتِ، وهذا أقل عقاب يمكن أن تحصلي عليه، أما "سامح" فيجب أن تصنعي له تمثالاً فقد سترك انتِ وابنتكِ، أما "مصطفى" فيجب أن يرى ابنته إن تأكدتِّ من توبته وعودته نادمًا بحق.

-أعلم أنني أخطأت، ولكن ألم يكف كل ماحدث لي طوال تلك السنوات للتكفير عن خطئي؟

-اللّٰه غفور رحيم.

-ولكن المجمتع لا يغفر يا "مريم".. لا يغفر.

قالتها وبكت.

كانت "مرام" قد نزلت وتوجهت لمكان العناية المركزة حيث أخذت الصغيرين من "مريم" ولكنها لم تجدها، فأخبرتها السيدة "فريال" والتي كانت تقرأ في المصحف بأن "مريم" قد توجهت مع "ياسين" للغرفة المقابلة.

أخذت "مرام" الصغيرين إلى حيث توجد "مريم" وكانت المفاجأة الثانية لها:

- "نهى"!

- "مرام"!

فوقفت "مريم" مندهشة:

-مهلاً مهلاً، وهل تعرفان بعضكما!؟

ضحكتا وردت "مرام":

-نعم أعرفها تمام المعرفة، فهي صديقتي المقربة منذ عدة سنوات.

-وأين التقيتما؟

ضحكتا مرة أخرى وقالتا في نفس واحد:

-بإحدى المستشفيات.

-لالالالا! ان قصتكما كبيرة ويجب أن أعلم كل شيء، ولكن يجب أن أطمئن على "فارس" أولاً ثم لنا جلسة طويلة وتحكيا لي كل شيء.

ضحكت ثلاثتهن، واستأذنت "مريم" منهما لتذهب بانتظار أي اشارة من "فارس" واخذت الصغار معها.

في الممر المبلل إثر تنظيفه منذ قليل، وعدم تجفيف أرضيته جيدًا، جرى الصغار يتسابقون تتبعهم "مريم"، فكاد "ياسين" يسقط أرضًا فجرت "مريم" لتلحقه وانزلقت قدمها وسقطت واصطدمت رأسها بناقلة معدنية تنتظر صاحبها لينقل عليها أدواته، ولم تكن تعلم أنها كانت تنتظر رأس "مريم" لتصدمها لتفقد وعيها في الحال..

*****

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، وكان هو يجلس على المقعد الخشبي

obeikan.com

متطلعًا ناحية الشجرة، بانتظارها.، فَلَاحَ طرف ثوبها الأبيض من خلف الشجرة، تبعته هي تسير بلهفة باحثة عنه، وما أن وقعت عينيه عليها حتى جرى ناحيتها، وعانقها عناقًا قويًا، كاد يكسر ضلوعها، أما هي فتشبثت بضلوعه وكانها طوق النجاة وهي الغريقة في بحر الدنيا.

قبل جبهتها بعد أن رفع غرتها برقة هامسًا لها :

-لماذا تأخرتِ؟

-لم أكن أعلم أنك بانتظاري.

-لقد انتظرتك أعوامًا.

-وأنا كنت أبحث عنك.

-هيا بنا نذهب من هذا المكان.

-إلى أين؟

-إلى الواقع.

-لأفقدك مرة أخرى؟ لا لن أذهب، في واقعي أنتِ حلم بعيد المنال، أما هنا فأنتِ معي ولن أترككِ مرة اخرى.

-ولكن "ياسين" هناك بمفرده يا "فارس".

صمت قليلاً ثم رد:

-ولكني أحبك.

obeikan.com

-وأنا أحبك أكثر منك، ولكن لا أستطيع أن أترك "ياسين" فليس له سواي، أرجوك يا "فارس".

-"مريم"..

قالها وهو يتوسلها بأن تبقى، فأمسكت بيده وسحبته ناحية الشجرة قائلة:

فلتأت معي يا "فارس" "ياسين" بانتظارنا، ووالدتك أيضًا تنتظرك، لقد حدث الكثير وأنت هنا.

-ماذا حدث؟

-يجب أن ترى كل شيء بنفسك، فلتعد معي يا "فارس" أرجوك.

*****

على فراش في غرفة الاستقبال، تمددت "مريم"، والتف حولها "مرام" ونهى والصغار، في هدوء، بينما حدث الكثير بغرفة العناية المركزة فقد سجلت الأجهزة الملحقة بجسد "فارس" قراءات جديدة، قراءات تدل على عودة "فارس" من الغيبوبة، وبدأ بتحريك يده ورأسه، انطلق الطبيب مسرعًا إلى الغرفة، بينما وقفت السيدة "فريال" على الباب تحاول رؤية أي شيء مما يحدث.

أما "مريم" فقد فتحت عينيها مبتسمة ابتسامة رقيقة قائلة:

-هل عاد؟

-من الذي عاد؟!

obeikan.com

قالتها "مرام" باندهاش وهي تنظر باستغراب إلى "نهى" التي لم تفهم شيئًا بدورها.

فرد عنها "ياسين":

-يبدو أن أمي تقصد "فارس".

-نعم يا صغيري، هل عاد؟

-لا أعلم! ولكن بما أنكِ سألتِ عنه فأظن أنه سيعود قريبًا جدًا.

فابتسمت له "مريم" قائلة:

-شقي.

حاولت "مريم" النهوض من مكانها وساعدتها "نهى" و"مرام"، وسنداها حتى وصلت غرفة العناية فوجدت السيدة "فريال" مشدوهة النظر بالداخل، فاقتربت منها قائلة بلهفة:

-ماذا حدث سيدتي؟ هل عاد؟

-أظن ذلك، ولكنني لا أرى شيء.

نظرت "مريم" إلى "ياسين" الذي ابتسم قائلاً:

-ألم أخبرك أنه سيعود، وقريبًا جدًا.

أيام مرّت، واسترد "فارس" عافيته وخرج من المستشفى بجسد يحوي الكثير

obeikan.com

من الكسور، وروحٍ ضمدت كل جروحها بعناقٍ صادق.

في الخميس الموافق الثاني عشر من شهر يوليو، وهو عيد ميلاد ياسين، قررت "مريم" إقامة حفل كبير له بأحد المقاهي المعروفة، كان الجميع يلتف حول الطاولة الحاملة لحلوى عيد الميلاد، تشع البهجة من عيونهم، وتنطلق أجسادهم متمايلة مع أنغام الموسيقى، الجميع يحضر، "فارس" ووالدته، و"ليندا"، و"مرام"، و"نهى" و"نهال" و"ترنيم"، وحتى الصغيرين "كريم" و"ميرنا" اللذين تكفلت "مريم" برعايتهما مع "ياسين" لحين إتمام شفاء أبيهما أو خروج "ندى"، الجميع سعيد، البالونات منتشرة بأرجاء المكان، أصوات الموسيقى العالية، التي توقفت فجأة بعد أن دخل عليهم ضابط شرطة، وبعض الأفراد يسألون عن السيدة "ليندا"، ويتبعهم "مصطفى" مكبل اليدين.

فزعت "مريم" لما رأت، وسألت "ليندا" في لهفة:

-سيدة "ليندا"!! ما الأمر.

قاطعتهما "نهى" موجهة كلامها لـ "مصطفى":

-"مصطفى"! ماذا حدث؟

-"نهى".. سامحيني.

-ماذا حدث؟ أنا لا أفهم شيئًا.

-لقد قتلتهما يا "نهى" قتلتهما.

obeikan.com

-قتلت من يا "مصطفى"، أستذهب وتتركني مرة أخرى، لماذا يا الله. لماذا تعاقبني كل هذا العقاب!!

-"ترنيم" يا "نهى"، احترسي لها جيدًا، ربِّيها على الأخلاق، لا تتركيها تخطئ نفس أخطائنا.

أخذهما الشرطي وذهب، فتبعتهما "مرام" وعلمت أن مصطفى قد أصاب "مختار" و"نسرين" بطلقات نافذة أودت بحياتهما، وقد أظهرت كاميرات المراقبة الموجودة بالعقار تواجده و"ليندا" بنفس التوقيت الذي تمت فيه الوفاة، وتم القبض على "مصطفى" الذي اعترف بجريمته، وحان الوقت للقبض على "ليندا" لتنتهي أسطورة مجموعتها الاقتصادية بسبب الخيانة.

انتهى الحفل، وتبادلت الفتيات الحديث، والأطفال يلهون غير مبالين لما يحدث بعالم الكبار، بينما جلس "فارس" يتطلع إلى "مريم" المبتسمة الوجه، والضاحكة كالأطفال بين صديقاتها، وقد شعر بأنها أخيرًا حصلت على بعض الدفء الذي كانت تبحث عنه.

فربتت السيدة "فريال" على كتفه قائلة، تزوجها يا بني فهي تستحق أن تلقى الكثير من الحب، اما "مرام" فظلت تسرد ما حدث لها في حياتها وكيف واجهت المجتمع بأكمله، ورفضت الزواج حتى وصلت لهذا السن دون زواج او أبناء، مكتفية بنجاحها ككاتبة وصحفية.

قاطعتها "مريم" قائلة:

-حسنًا أيتها الكاتبة العظيمة! إن كتبتي حكايتنا في قصة فماذا كنتي لتسميها؟

-سؤال عميق.. ولكني سأجيبك عنه، فأنا كنت أفكر في هذا الأمر.

-حقًا!؟

-بلى! فحكاية كل واحدة منكن يمكن أن تكون رواية عن المعاناة التي تتعرض لها كل فتاة وامرأة في مجتمعنا هذا؟

-وماذا ستسمين حكايتي أنا؟

-أنتِ يا "مريم" يمكنني أن أطلق على حكايتك اسم "عزيزتي مريم".

فردت "نهى" :

-حسنًا! وماذا إن كنتِ مكاني وحاسبك كل من علم بحكايتك، وحكم عليكِ بالوأد وِحْدَةً، كيف كنتِ ستواجهينهم؟

-سأقول لهم جملة واحدة.

- ما هي؟

لا تحاسبني فـ أنت لست الله.

تمت بحمد الله

يوليو ٢٠١٦

obeikan.com

المؤلف في سطور

مروة حسن الجمل

من مواليد ١٩٨٣، محافظة الجيزة - مصر

درست التصميم الداخلي والآثاث بكلية الفنون التطبيقية، وتخرجت فيها عام ٢٠٠٥

صدر لها :

١- كذبات (رواية) إلكترونية.

٢ - بقايا (رواية) إلكترونية.

٣- وكسة .. حكايات عايشينها (رواية) ٢٠١٥.

٤- عزيزتي مريم، رواية ٢٠١٦.

للتواصل مع الكاتبة

www.facebook.com/maro2hassan

facebook search: Marwa Elgamal

obeikan.com

مختارات من إصدارت إبداع ٢٠١٦

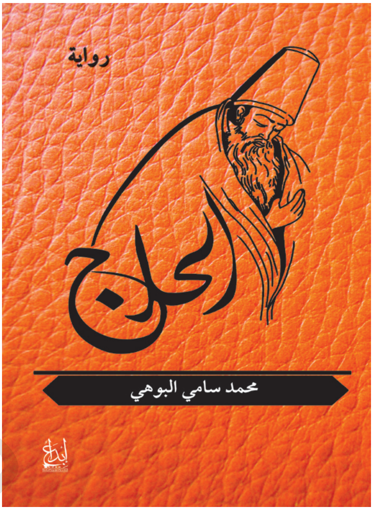

تلك اللحظة
That Moment
عاطف عبد الرحمن

الأمر الحلو
نسرين فؤاد

أحمد عثمان
لمسة مليكا
رواية

قرينة الأميرة
مروة حسني

obeikan.com

جزار لندن
منال عبد الحميد

رواية
المشرحة
محمود وهبة

الغولة
منال عبد الحميد

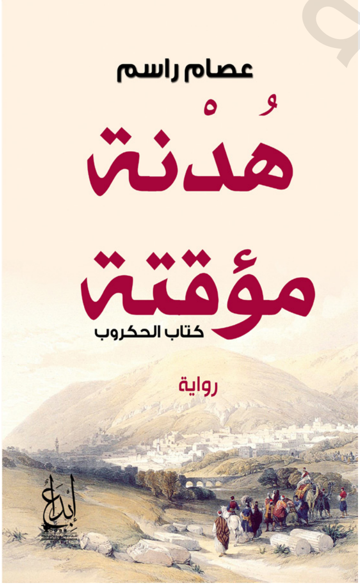
عصام راسم
هُدْنة
مؤقتة
كتاب الحكروب
رواية

الطبعة
٤
ظل ممدود
عبد الرحيم كمال

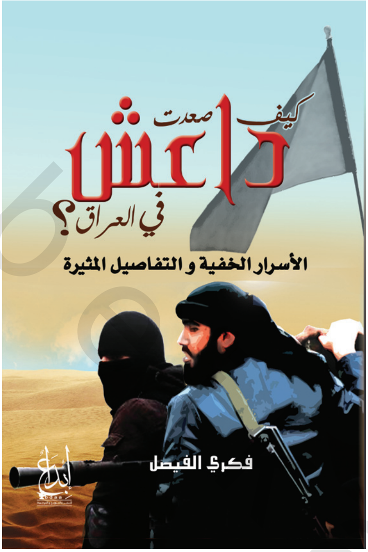
كيف صعدت
داعش
في العراق؟
الأسرار الخفية و التفاصيل المثيرة
فكري الفيصل

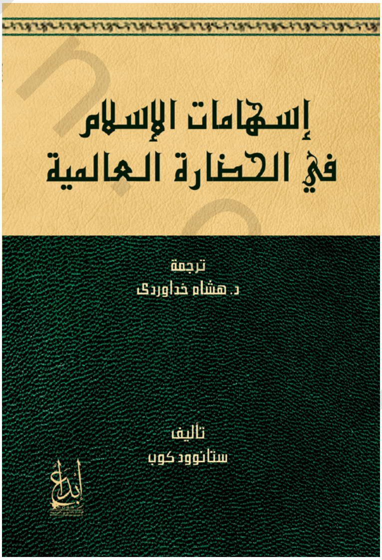
إسهامات الإسلام
في الحضارة العالمية
ترجمة
د. هشام خداوردى
تاليف
ستانوود كوب

أموت ليظل اسمها سرا
شعر
السيد العديسي

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com